جهاد النفس

الأستاذ: حسين مظاهري

دار المحجة البيضاء

دار الرسول الأكرم (ص)

جِهَادُ النَّفْسِ

جهاد النفس

تأليف

الأستاذ مظاهري

ترجمة

لجنة الهدى

شبكة الفكر
alfeker.net

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

البحث الأول

التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قال ربِّ اشرحْ لي صدري ، ويسّر لي أمري ، وآحللْ عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾[1] .

إن عملكم ودوركم في المجتمع أيها المعلمون الأعزاء يرضي الله ، إذ يعتبر القرآن الكريم عملكم عمل الله ودوركم بإذن الله أيضاً ، حيث تشير أول سورة نزلت على النبي الكريم (ص) إلى هذه الحقيقة :

﴿ بسم الله الرحمٰن الرحيم ، إقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلق ، خلقَ الإنسانَ منْ علقٍ ، إقرأ وربُّكَ الأكرمُ ، الذي علّمَ بالقلمِ ، علَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ ﴾[2] .

في هذه السورة المباركة ، يورد القرآن إحدىٰ صفات الله ، وهذه الصفة هي التعليم ، أي نفس العمل الذي تقومون به ﴿ علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

إنّ هذا العمل بأمر الله ومن أولىٰ الصفات التي وردت في القرآن باعتبارها ميزة للنبي الأكرم (ص) ، ومن هنا يظهر أن صفة التعليم هي أفضل صفات الله .

---

(١) سورة طه ، الآيات : ٢٤ ـ ٢٨ .

(٢) سورة العلق ، الآيات : ١ ـ ٥ .

إنّ عملكم ودوركم في المجتمع ، عمل الأنبياء ووظيفتهم حيث نقرأ في آياتٍ كثيرة من بينها سورة الجمعة :

﴿ هـوَ الذي بعثَ في الأميّينَ رسـولاً منهمْ يتلو عليهمْ آياتـهِ ويـزكّيهمْ ويعلّمهمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا منْ قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ﴾[١] .

لماذا بُعث النبي ؟ لقد بُعث النبي بمعجزة ، أي أنه جاء بالقرآن .

لماذا بُعث ؟ ولماذا جاء بالقرآن ؟ هل كانت البعثة النبوية ونزول القرآن من أجل التعليم والتربية ، أم من أجل التربية والتعليم ؟ .

هـذه الآية التي تكـررت في القرآن الكـريم تقول : عملكم هـو عمل النبي (ص) ودوركم في المجتمع يشبه وظيفة الأنبياء (ع) .

﴿ ومنْ أحياها فكأنّما أحيا الناسَ جميعاً ﴾[٢] فحسب التفسير المنقـول عن الإمام الصادق (ع) أنّ هذه الآية تعني أنه لو استطاع شخص ما أن يهدي شاباً وأن يُخرجه من الضلال إلى الصراط المستقيم ، ثمّ يصنع منه إنسـاناً ، فكأنما أحيا الدنيا كلّها . ولو شاهدتم طفلاً صغيراً يحتضَر ، ونقلتموه بواسطة المركبة التي بحوزتكم إلى المستشفىٰ ثمَّ تحسّنت صحته ، ستشعرون بارتياحٍ بالغٍ في ضميركم والناس سيكـرمونكم ، ويشجعـونكم كما أنكم ستحـرزون مكانة عظيمة عند الباري عزّ وجلّ ، لأنكم تمكنتم من إنقاذ طفلٍ من الموت .

فالقرآن يبيّن أنه لو استطعت أن تُحـي طفـلاً من الناحية المعنوية ، وأن تهدي شخصاً ما إلىٰ الصراط المستقيم ، وبـاختصار لـو استطعت أن تصنـع إنساناً ، فإن ثواب ذلك ليس إحياء شخص واحد فحسب ، بل كأنك أحييتَ النـاس جميعاً . مثـلاً ، إذا كان عـدد سكان الأرض أربعـة مليارات ، وكـان بإمكانكم أن تُربُّوا إنسـاناً واحـداً فكأنكم أحييتم ثـلاث مليارات من السكـان المحتضرين . أيُّ أجرٍ في الإسلام يمكن أن يكون أفضل من هذا ؟ إنّ القرآن هو الذي حَدّد لكم هذا الأجر .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

في حرب خيبر ، كان الموقف حساساً جداً ، وذلك أن المسلمين هُزموا في اليوم الأول ، كما هُزموا في اليومين الثاني والثالث ، واستشرت حالة الهزيمة بين المسلمين وهبطت المعنويات بينما ابتقوت معنويـات الأعداء ، وأصبـح الإسلام في خطر . وعندما حان المساء أخبرهم النبي (ص) أنه سيُعطي الراية غداً لشخص يحبهُ الله ورسولُه ويُحبُّ اللهَ ورسولَه ـ ومن هنـا أرجو أن تقـرأوا التاريخ كي تستوعبوا دروسه وخصوصياته ـ وفي صباح اليوم التالي شعر أمير المؤمنين (ع) بألم في عينيه ، فاستدعاه النبي (ص) وداوىٰ عينيه بمعجزة حيث مسح عيني علي (ع) بماء فمه ، فبرأت عيناه وسلّمه الـراية ، وكـان الموقف حساساً جداً . أمير المؤمنين على أهبة الاستعداد للدخول في ساحـة الحرب حينذاك ، حيثُ يريد النبي (ص) ـ وهو الرجل الأول في الإسـلام ـ أن يقول جملة للرجـل الثـاني في الإسـلام ـ علي (ع) ـ ينبغي أن تكـون في مستـوىٰ الموقف . فعندما يريد رئيس ديني أن يقول جملة لشخص ـ سوف يصبح قائداً فيمـا بعد ـ هـذه الجملة ينبغي أن تكون بحجم المـوقف وأمير المؤمنين (ع) راكب ، والنبي الأكرم (ص) راجل ، والراية بيـد علي (ع) ، والجيش يستعد للدخول في ساحة الوغىٰ ، والجملة التي قالها النبي الأكرم (ص) آنذاك خير شاهد لما أريد قوله وهي :

« لأن يهدي الله بك رجلًا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس »[1] .

يا علي ، إن ما تنوي القيام به مهم جداً ، لأنك تريد أن تُحيـي الإسلام ، ولكن ينبغي أن أخبرك أن هناك ما هو أهم ، وهو أن تهدي شخصاً ما وأن تصنع إنساناً ، إن استطعت أن تُربي إنساناً مسلماً وتقدمه إلى المجتمع ، فإن ثواب ذلك ليس أكثر من هـذه الحرب فحسب ، بـل **« خير لـك مما طلعت عليـه الشمس »** أي إنّ أجر ذلك أكبر من الدنيا وما فيها .

هذا من ناحية الثواب ، فإن عملكم يحظىٰ بهذا القدر من الثواب . أما من ناحية القيمة ، أنتم الذين تستـطيعون أن تبـطلوا مفعول قـانون الـوراثة ، والبيئة ، بل أن تبطلوا قانون التغذية والتربية الأسرية .

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ، ج ٤ ص ١٣ ـ ١٤ .

كما تعلمون ، فأن قانون الوراثة هام جداً ، بمعنى أن الصفات الظاهرية ، والصفات المعنوية للوالدين تنتقل عبر الجينات إلى الأولاد . فالأب المتكبّر يكون ولده وبناته متكبرين ، وغالباً ما يكونون هكذا ، أولاد الإنسان الأناني يكونون مثله في الغالب . هذا هو قانون الوراثة ، الذي يُقرّه الإسلام أيضاً .

تعلمون أن علماء النفس والأطباء النفسانيين تحدثوا كثيراً عن هذا القانون ، كما أنّ التجارب أثبتت صحة قانون الوراثة ، وإذا لم يلتزم الآباء والأمهات بالإجراءات الوقائية ، فإن مضاعفاته كبيرة وخطيرة جداً ، والعكس أيضاً صحيح ، بمعنى أنه إذا كان للأب صفات جيدة فستنتقل عادة إلى الأولاد . وإذا كانت الأم تحمل صفات جيدة فستنتقل عادة إلى الأولاد .

كما في العبارة : « **الشقي من شقي في بطن أمه** »(١) .

البعض يتصور أن هذه العبارة تعني الجبر ، حيث يفسّرها بشكل بعيد عن الواقع . طبعاً هذه العبارة لا تعني ذلك ولكنها إشارة إلى قانون الوراثة بالذات . إنها تعني بأن عليك أن تعلم أنت أيها الأب وأنتِ أيتها الأم ، بأنكما توفّران الأرضية اللازمة لسعادة طفلكما أو شقائه وهذا هو قانون الوراثة .

إن قانون التربية الأسرية له تأثير كبير أيضاً . فلو نشأ طفل في عائلته ، فمن المستبعد ألا يكون لحن صوته وطريقة كلامه شبيهين بهما عند الأب والأم كما في العادة، وقانون التربية الأسرية كقانون الوراثة ، قانون عجيب يُهيء الأرضية لسعادة الأولاد أو شقائهم .

أما حول قانون البيئة ، فعندما يكون أحدٌ في بيئة ما فكأنه يسبح في مياه جارية بقوة . إذا أراد أن يتحرك بخلاف حركة التيار ، فسيواجه صعوبات جمّة ، وإذا كان سبّاحاً قد يتمكن من العوم ، ولكن بصعوبة بالغة ، وعادة يجرفهُ التيار أينما ذهب . لذلك فالبيئة تؤثر في التربية وبالأخص لها تأثير كبير على الأطفال .

القانون الآخر هو قانون التغذية . إنكم تعلمون أن علماء النفس تحدّثوا

---

(١) سفينة البحار ، ج ١ شقى .

بإسهاب حول الغذاء ، وهم يعتقدون بأن نوعية الغذاء لها تأثير كبير على جمال الأطفال .

عندما تكون الأم حاملة فإنّ الإسلام يأمرها بعدم تناول الأطعمة المشتبهة ، وفي المقابل عليها أن تكثر من تناول الفواكه الطازجة ، كالسفرجل والتفاح . . . الخ ، لأنها تؤثر على جمال الطفل ، وتطبق نفس القاعدة على حليبها . . لو تناولت الأم أطعمة طازجة ولذيذة ، فإن ذلك له تأثير على جمال الطفل . الأطعمة الحرام أيضاً تؤثر سلباً ، ولكن علماء النفس لا يعرفون ذلك ، علينا أن نأخذ هذه الأمور من الإسلام . الأطعمة الحرام لها تأثير كبير في شقاء الطفل ، والأغذية المشتبه بها تؤثر في شقاء الطفل ـ أيضاً ـ . كما أن الطعام الطاهر والحلال يؤثر منذ انعقاد النطفة حتى سن الرشد .

هذه وجهة نظر الشارع الإسلامي ، طبيعي كلكم تعلمون أن هذه القوانين الأربعة (التي يكفي واحد منها لتوفير أرضية سعادة الأولاد أو شقائهم ، فكيف إذا اجتمعت كلها ؟ فسيكون لها حتماً تأثير بالغ على التربية) .

ولكن ما يعنينا الآن هو أنه هناك أشياء عديدة يمكنها أن تبطل مفعول هذه القوانين الأربعة ، أقصد أنكم أنتم المعلمون لا سواكم ، تستطيعون إبطال مفعول جميع هذه القوانين ، وهذه قيمة عملكم .

قدّم عمر بن عبد العزيز أحد الخلفاء الأمويين ، خدمات كثيرة لمحبّي أهل بيت الرسول (ص) خلال فترة خلافته القصيرة ، إذ أفلح في تجسيد العدالة الاجتماعية في الإسلام . حتى أن المؤرخين يذكرون بأنه في فترة خلافته القصيرة الأمد لم يكن هناك فقير واحد في المجتمع الإسلامي . بحيث كانوا يكتبون له بأن ليس عندنا فقراء ، فماذا نفعل ببيت المال ؟ فكان يصدر أوامره بشراء العبيد وإطلاق سراحهم .

لقد جسّد بحق العدالة الاجتماعية والمدرسة الاقتصادية في الإسلام . ومن الناحية التاريخية يجب أن نقول إنه كان رجلاً طيباً ، رغم اغتصابه الخلافة ، لكنه خدم محبي الرسول وأهل بيته (ع) بالأعمال التي أنجزها . قبل زمن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت الأمور قد أخذت منحىً خطيراً أصبح فيه

لعن أمير المؤمنين علي بن طالب (ع) بعد الصلاة يُعدّ عندهم من الواجبات ، ويذكر المؤرخون بأن شخصاً مسافراً كان قد نسي لعن علي (ع) بعد الصلاة ، فعاد إلى نفس المكان ولعن علياً (ع) وبنىٰ مسجداً في نفس المكان تكفيراً لذنبه .

وبهذا الوضع الذي كان عليه المجتمع الإسلامي ألغىٰ عمر بن عبد العزيز هذا اللعن ، إذ كان يقول : إن أصبحت طيباً ، فإن المعلم هو الذي أوصلني إلى ما أنا فيه ، إشارة إلى دور المعلم وما أحدثه من تأثير في كيانه . فإشارة واحدة وشرارة واحدة ، على دماغ طفل من الممكن أن تشعله كشرارة في مخزن البارود .

يقول عمر بن عبد العزيز : جاءتني شرارة من العلم إلى دماغي .

إنّ عدالته الاجتماعية كانت نتيجة لذلك ، وحبّه لأمير المؤمنين علي (ع) كان من أجل ذلك . وما عدا غصبه للخلافة فإن كافة أعماله كانت حَسَنة ، وهنا لا أريد التطرق إلى معالجة قضية الخلافة في الوقت الحاضر .

شرارة من جانب معلم ، تصنع عمر بن عبد العزيز ، كان والد عمر ـ أي عبد العزيز ـ خطيب الخلفاء ، وهذا يعني أنّ عليه أن يصعد المنبر ويَلعن علياً (ع) . يقول عمر بن عبد العزيز : مع أن والدي كان خطيباً لامعاً إلاّ أنه كلّما كان يصل إلى اسم علي كانت تنتابه لُكْنَةٌ اللسان . سألته مرة عن سبب هذه اللكنة فقال : لو علم الناس بفضائل علي (ع) لما اجتمعوا حولنا . علي (ع) ينبوع الفضيلة .

بناءً على قانون الوراثة ، رجل كهذا ينبغي ألاّ يُقدِّم عمر بن عبد العزيز إلى المجتمع ، عمر من ناحية قانون الوراثة كان سيئاً جداً ، من ناحية الطعام كان يأكل من مال أبٍ كان يؤمّن راتبه من « سبِّ » أمير المؤمنين (ع) . ومن الناحية العائلية ، كانَ والده عبد العزيز خطيب الخلفاء ، نشأ هذا الولد في عائلة أبٍ كهذا . أما البيئة فإنه تربىٰ في بيئة مستهترة .

شرارة من معلم استطاعت أن تبطل مفعول كافة القوانين الأربعة . ونظير هذا كثير في التاريخ .

ابن يزيد بن معاوية قانون وراثته مثل يزيد من ناحية الغذاء ، أبٌ سكّير ومربّي كلاب ، وفي نفس المكان كان يمارسُ الموبقات . من ناحية البيئة العائلية فإن وضع معاوية ويزيد وزبانيته أمرٌ واضح ومعلوم . فقد ترعرع بين خلفاء بني أمية ، ولكن معلماً متديناً وعاقلاً في غضون أيامٍ معدودات استطاع أن يربيه ، بحيث أنه عندما مات يزيد ، صعد ابنه المنبر وقال : لعن الله معاوية ولعن الله أبي يزيد . أنا لستُ خليفة النبي ، لقد اجتمعتم حولي بدون سبب ، إن كنتم تريدون خليفة النبي حقاً ، فإنه الإمام السجاد (ع) في المدينة . بعد ذلك عندما تتبعوا الجذور ، ليروا كيف أصبح معاوية بن يزيد هكذا ؟! فوصلوا إلى دور المعلّم وتأثيره . فَدُفِنَ المعلّمُ حياً كي يلقوا الرعب في نفوس الآخرين .

وهم أيضاً أدركوا أن المعلّم يستطيع أن يصنع من ابن يزيد بن معاوية إنساناً محباً لأهل بيت الرسول (ص) بكل معنى الكلمة . ونظير هذه الأحداث كثيرة في التاريخ .

إلىٰ هنا استنتجنا بأن قيمة عملكم أنتم المعلّمون هي أنكم تستطيعون إبطال مفعول قوانين علم النفس الثابتة . عملكم لوجه الله ، وهو عمل الأنبياء ، وأجركم أيضاً عالٍ جداً . ليس لدينا أجر أعلى من أجركم ، فقيمة عملكم عالية جداً . إنكم تستطيعون أن تبطلوا مفعول القوانين التكوينية . فعليكم أن تنتبهوا لأنفسكم .

لأمير المؤمنين (ع) قول يقول فيه : « **كفىٰ بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره** »[1] علينا أن نعرف قدر أنفسنا . يجب أن ننتبه ، بأن كافة المصائب التي تصيب الإنسان سببها أنه لا يعرف قدر نفسه . ومن الناحية الأساسية فإن كافة مصائب عالم اليوم ، سببها أن العالم لم يعرف حقيقة الإنسان لحد لآن ، على هذا لم يمنحهُ المكانة والقيمة اللائقة .

إنكم ترون عالم اليوم بعلمه ومدنيته لا يعترفُ بقيمة الإنسان لأنه يجهل قدره .

---

(١) ميزان الحكمة ، الجهل/ ٢٨٦٤ .

إذن عليكم أن تعرفوا قدر أنفسكم ، يجب أن تعرفوا مكانتكم ، لأنكم لو علمتم أن لديكم درّة فلن تضيعوها ولن تدعوها دون أن تستفيدوا منها ، إذا كان لدى شخص ما مصباح ، ولكنه لا يعرف تأثيره ، فأما أنه سيبيعه بثمنٍ بخسٍ أو لا يحافظ عليه كما ينبغي . لكنه لو علم أن لديه حجراً ثميناً فإنه سيعلم قدره لا محالة .

عملكم أنتم المعلمون كدرةٍ ثمينة ، لا يمكن تحديد سعرها . إذن اعرفوا قدركم واستفيدوا من عملكم إلى أقصى حد . اعلموا أن الفُرص تمرّ مرّ السحاب . فإن سنحت لكم فرصة فاغتنموها .

على الإنسان أن يغتنم الفرصة أو النعمة المتوفرة لديه ، يقول القرآن :
﴿ ثمَّ لَتُسئَلُنَّ يومئذٍ عنِ النعيمِ ﴾[1] .

أحد الأسئلة التي توجّه إلى أهل جهنّم ، هي ، لماذا لم تعرفوا قدر النِّعَمْ التي كانت لديكم ، لماذا لم تغتنموا الفرص ، ولماذا لم تستفيدوا منها ؟! أنتم المعلّمون يمكنكم أن تربّوا مسلماً ، تستطيعون أن تصنعوا إنساناً ، وبإمكانكم أن تبنوا أفراداً يخدمون المجتمع . تستطيعون أن تسعدوا مجتمعكم . وباختصار يمكنكم أن تقدموا للمجتمع أناساً مفيدين للآخرين ولأنفسهم ، ولكن كلّما كان العمل راقياً ، كانت المسؤولية أكبر .

﴿ منْ قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنّما قتلَ الناسَ جميعاً ﴾[2] حسب التفسير المنقول عن الإمام الصادق (ع) فإن هذه الآية تعني : إذا حَرَفتم بواسطة عملكم وقولكم أحداً عن الطريق القويم ، أي بدلاً من أن تربّوا الأطفال تربية إسلامية ، ينحرف الأطفال عقائدياً بواسطة أقوالكم وأعمالكم في المدرسة ، فيسيئون الظن بعلماء الدين والإسلام ، هل تعرفون مدى الذنب الذي تقترفونه بعملكم هذا ؟ .

فلو قتل أحدكم شخصاً ما بغير ذنب ، كأنما قتل الناس جميعاً . فما هي

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : ٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

جريمته ؟ يصفه القرآن بأنه قاتل ، والقاتل مصيره جهنم خالداً فيها .

﴿ ومنْ يقتلْ مؤمناً متعمّداً فجزاؤهُ جهنمُ خالداً فيها ﴾[1] .

فلو أجهضت سيدة ما ، وقتلت جنينها وهو في الشهر الرابع ، فهي قاتلة ، فإن ماتت دون توبة ، فستذهب إلى جهنم ، وتبقىٰ فيها إلى الأبد .

إنها لم تقتل سوى جنيناً في بطنها ، ولكن الإسلام يعتبر ذنبها كبيراً جداً . فنتيجة الآية التي قرأتها لكم تقول : إذا حَرَفت طفلاً مسلماً عن الطريق ، فإن ذلك ليس قتل نفس فحسب ، بل كأنك قتلت ثلاثة مليارات من نفوس الكرة الأرضية . ﴿ منْ قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنّما قتلَ الناسَ جميعاً ﴾[2] .

حذارىٰ من تربية الطفل على حب الجاه ، أو حب الذات ، أنتم المعلمون يمكنكم بواسطة أقوالكم وتصرفاتكم أن تربوا إنساناً يضاف إلى المجتمع أو بشراً جاهلاً لا يعرف شيئاً .

يقول الإمام الصادق (ع) ناصحاً أصحابه : « **كونوا دعاةَ الناسِ بأعمالكم ، ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم** »[3] .

اللّسان له تأثير كبير جداً سواءً على الأعمال أو التصرفات . عليكم أن تنتبهوا إلى تصرفاتكم في المدرسة لئلا تترسخ صفة الرذيلة ـ لا سمح الله ـ في الأطفال الذين يتخرجون من تحت أيديكم .

لو تداعت اعتقادات الطفل نتيجة أقوالكم ، وتربّىٰ على ارتكاب الذنوب فالقرآن يقول : كأنكم قتلتم العالمين جميعاً ، لذلك يجب أن أقول : أنتم المعلمون تستطيعون أن تقدّموا أشخاصاً صالحين أو سيئين إلى المجتمع ، أنتم تستطيعون أن تبطلوا مفعول قانون الوراثة . ما تقدم كان يتمحورُ في قيمةِ وأجرِ المُعلّم .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢

(٣) قرب الإسناد ص ٥٢ / الكافي ج ٢ ص ٧٨ .

أما من ناحية المسؤولية ، عليكم الانتباه لأحاديثكم مع الأطفال في الصف . الموضوع الذي يجب أن أنوّه به ، هو أن تعلموا أن هناك واجبٌ كبير يقع على عاتقكم ، وعليكم تأدية هذا الواجب بصورة جيدة .

أدنى الأشخاص هو الذي لا يؤدي الواجب الملقىٰ على عاتقه بصورةٍ جيدة . لن أنسىٰ عندما كنت في خدمة أستاذنا الجليل الإمام الخميني (رحمة الله عليه) جاءت مجموعة من العاملين في شركة النفط ، وقالوا : جئنا لنرىٰ ماذا تريد الثورة منّا ، ولم نأتِ لنقول ماذا نريد من الثورة . من الواضح أن قائد الثورة العظيم سُرَّ بهذا الكلام الرقيق ، فأجاب سماحته : الثورة تريد منكم أمرين :

١ ـ تهذيب النفس ، على الإنسان أن يهذّب نفسه وبالأخص المعلم أو المدير أو الشخص الذي يتعامل مع الشباب واليافعين ، عليه أن يهذّب نفسه أولاً ، ليتمكن من تهذيب الآخرين . لا يُعقل أن يستطيع شخص لم يهذب نفسه تهذيب غيره : ﴿ **قلْ كلٌ يعملُ على شاكلتهِ** ﴾[1] . وعلى هذا الأساس جاء تأكيد قائد الثورة بضرورةِ تهذيب النفس .

٢ ـ عليكم أن تقوموا بالواجب الملقىٰ على عاتقكم بصورةٍ كاملةٍ . وكلُّ شخص يقوم بواجبٍ ما ، أنا المعمم الروحاني لديّ واجب . أنتما المعلم والمدير لديكما واجب ، الكاسب في السوق لديهِ واجب ، والذي في الجيش والشرطة لديهِ واجب ، ينبغي أن يقوم كل شخص بتأديةِ واجبهِ دون التدخل في واجباتِ الآخرين . من هنا إذا كان سؤال تلك المجموعة دقيقاً ، فإن جواب سماحتهُ يمتاز برقّة خاصة .

إذن الواجب الملقىٰ على عاتقكم أيها المعلّمون الأعزاء هو واجب التعليم والتربية ، أو كما يقول القرآن الكريم التزكية والتعليم ﴿ **يزكّيهم ويعلّمهم** ﴾[2] ، فغالباً ما تقولون بأن التعليم والتربية ، ولكن القرآن يجعل التربية قبل التعليم لأن الإسلام يعتبر التربية الإسلامية وتهذيب النفس قبل التعليم والتعلّم .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٤ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

إذن هناك واجب مُلقىً على عاتقكم ، وعليكم أن تنهضوا بهذا الواجب بصورةٍ كاملة . وإذا أراد الإنسان أن يقوم بالواجب بشكلٍ تام عليهِ أن يبني نفسه ليكون تأثيره بنّاءً .

هذا البحث ، يحتاج إلى تفصيل والمجال لا يتسع لذلك . وفي الختام ، علينا أن لا نقول شيئاً أمام التلاميذ إلا بعد معرفة وتمعّن .

وإذا تكلمنا دون علم ووزن للكلام فإن الخسارة ستكون فادحة ، وهنا يكمن الفرق بين العاقل والأحمق . إذن العاقل هو الذي يفكّر أولاً ثم يتكلّم ، والأحمق هو الذي يتكلّم ثم يفكر .

إن موقعكم أيها المعلمون ـ بناءً على ما أشرنا ـ هو حساس للغاية . لأن الطلاب يسألون عن أمور مختلفة يطلبونها من المعلم . خاصة في الأوضاع الراهنة ، من الممكن أن تطرح أبحاث دينية وأيديولوجية أيضاً في الصف . ما أرجوه منكم هو إن كنتم تعلمون عن الموضوع المسؤول عنه أجيبوا ، وإن كنتم لا تعلمون عنه قولوا بكل صراحة : « لا أعلم » لأن علمنا ـ مهما كان كبيراً ـ فإنه وكما يقول انشتاين : « **نسبةُ علمنا إلى جهلنا ، كنسبةِ القطرة إلى البحر** » ، لا يمكن أن يكون الإنسان خبيراً في كافة الأعمال . لذلك في القضايا العقائدية من الممكن أن تجيبوا الطالب إجابة لا تكون صحيحة . فيرسخ الجواب الخاطىء في ذهنه . إنكم تعلمون أن دماغ الطفل مثل آلةِ التصوير ما يوضع أمامهُ ، يلتقط الطفل صوراً منه ، احذروا ألا تقولوا ـ دونما علم ـ كلاماً في القضايا الاقتصادية والاجتماعية وقضايا الإسلام الأخرى ، بحيث تبنون أساساً خاطئاً في عقل ودماغ الطفل . قد يصبح الأساس الفكري للطالب خاطئاً بسبب جوابكم الخاطىء ، وقد تصدر عنه تصرّفات غير لائقة .

لو حصل ذلك من يتحمل مسؤوليته ؟ لا شك أن المذنب هو من قام بتلك التصرفات أولاً ، ثم من لقنه المعلومات الخاطئة التي ترسخت في ذهنه وتصرف طبقها .

« منْ سنَّ سنّةً حسنةً عُمل بها من بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سنّ سنّةً سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزره

ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً »[1] .

إذا بنى شخصٌ مسجداً ، فالذين يُصلّون في ذلك المسجد يحصلون على الثواب الإلّهي ؛ وبنفس المقدار سيكتب الثواب لباني المسجد أيضاً . وإذا بنى شخصٌ مكاناً للفحشاء والمنكر ، فسيكتب لهُ ولمرتاديه نفس المقدار من الذنوب .

إذا أبديتم رأيكم في قضايا إسلامية ، مثلاً تقولون دونما علم وبدون وعي موضوعاً حول الاقتصاد الإسلامي ، وترسّخون في ذهن الطفل صيغة اقتصادية لا تتفق وتعاليم الإسلام ، ثم يتلف ذلك الطفل أموال شخص ما نتيجة تعليماتكم الخاطئة ، في هذه الحالة سيكتب الذنب في قائمة أعمالكم أيضاً .

لو أبدت معلمةٌ في الصف رأياً حول الحجاب الإسلامي بدون أن تعي ذلك ، ورسّخت تعاليم خاطئة في ذهن الطفل ، فإن ذنب الأعمال الخاطئة الناجمة عن هذهِ التعاليم الخاطئة يقع على عاتق باني تلك الأفكار أيضاً .

مرة أخرى أرجوكم ألاّ تقولوا ما لا تعلمون ، وإن كنتم لا تدرون ، قولوا ـ بشجاعة تامة ـ لا ندري ، فنحن الطلبة نقول : « **لا أدري نصف العلم** » هذهِ هي الحقيقة .

لو قال الإنسان لا أدري سيكون مرتاحاً ، ولن يتحمل مسؤولية فـ « **أنا أدري** » غالباً ما تكون خطأ ، وتنجم عنها المظالم . إن كنتم تعلمون فقولوا وإن كنتم لا تعلمون قولوا لا نعلم .

وعندما تكون لديكم شبهة قولوا أيضاً : لا نعلم . وهنا من الأماكن التي يجب أن يحتاط المرء فيها .

الإسلام لديه قضايا اقتصادية واجتماعية ومعارف ، قضايا أيديولوجية ، بالمعنى الخاص والعام . الإجابة على كل هذهِ الأسئلة تحتاج إلى خبرة ووعي ، والذي يُريد أن يُبدي رأياً ، يجب أن يستوعب الموضوع لا أن يردّد موضوعاً كالببغاء ، ففي ذلك مظلمة .

---

(١) ميزان الحكمة ٨٩٣٩ .

أرجـو أن تتمعَّنوا في هـذهِ الجملة الأخيرة ، كمـا أرجو أن تكـون هذهِ الجلسة مفيدة لي ولكم .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

البحث الثاني

الذنب وتهذيب الغرائز

﴿ رب اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحلل عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾[1] .

كنت أنوي التحدث معكم عن موضوعٍ معين ، لكن وبسببِ ذكرى عاشوراء أرجأت هذا الموضوع ، إذ ينبغي أن نعيش هذهِ الأيام بكلٍ وجودنا وشعورنا ، ولذلك فإن بحثنا سيكون عَن مُؤدّي نصيحة من الإمام الحسين (ع) ، لولا وضّحتم هذهِ النصيحة لأصدقائكم وفكّرتم فيها . نحن لدينا روايات قليلة عن الإمام الحسين (ع) وسبب قلةِ هذهِ الروايات هو أجواءُ الكبت والقمعِ والاستبداد التي تميّزت بها مرحلةُ هذا الإمام الشهيد . لذلك لم يكن هناك أحد يروي عنه . ولكن بما أن الإمام الحسين (ع) يمتاز بشفافية خاصة بين الأئمة الأطهار ـ عليهم السّلام ـ فإن كلامه أيضاً له شفافية خاصة . طبعاً ليس هناك فرق من ناحية الفضيلة بين المعصومين الأربعة عشر ـ عليهم السّلام ـ ولكن الحسين (ع) يمتلك شفافية خاصة .

فمن المعروف أن النبي الأكرم (ص) قال : « **إن للحسين (ع) حرارة في قلوب الناس لن تبرد أبداً** »[2] بمعنى أن الحسين (ع) أوقد ناراً في قلوب الناس لن تنطفىء أبداً . هذهِ النار هي نار العشق والعرفان ، هذهِ الشفافية والحلاوة

---

(١) سورة طه ، الآيات : ٢٥ ـ ٢٨ .

(٢) ناسخ التواريخ .

يمتلكها الحسين (ع) ؛ ورواياته أيضاً فيها هذهِ الشفافية .

من بين الروايات المنقولة عن الإمام الحسين (ع) روايةٌ سنتحدث عنها هنا :

جاء أعرابيٌّ إلى الإمام الحسين (ع) وقال : « **يا ابن رسول الله ، عظني بكلمتين** »[٢] كأني به أعرابياً عالماً ، أراد جملةً بليغة يقتدي بها في حياته ؛ لذلك قال : عظني بكلمتين ـ فأجابه الإمام الحسين (ع) :

« **منْ حاولَ أمراً بمعصيةِ اللّهِ كانَ أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر** »[١] .

ولمعرفة هذهِ الرواية ينبغي وضع مقدمة ليتضّح المفهوم أكثر . الإنسان لديه غرائز ، ومن وجهة نظر الإسلام يجب تلبيتها وتهذيب هذهِ الغرائز ، فإذا أراد شخص أن يقضي على رغباته ، فإن ذلك ممنوع في الإسلام . القرآن الكريم يُبيّن هذا المنع بالإضافة إلى أن هذا الأمر ممنوع حسب روايات أهل البيت وسيرة النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) أيضاً .

القرآن الكريم يقول :

﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا** ﴾[٢] .

بمعنى : أن الباري عزّ وجلّ أغرق عليك نعماً كثيرة من بينها العمر والسلامة ، والعقل والشباب ، فاستفد منها جميعاً لآخرتك ، ولكن عليك أن لا تنسىٰ الدنيا . أي لا تنسىٰ الرغبات والغرائز المودعة فيك ﴿ **ولا تنسَ نصيبكَ منَ الدنيا** ﴾[٣] .

القرآن الكريم يحتجّ على الرهبانية حيث يقول :

﴿ **قلْ منْ حرَّمَ زينةَ اللّهِ التي أخرجَ لعباده والطيباتِ منَ الرزقِ . . .** ﴾[٤] .

---

(١) تحف العقول حكم الإمام الحسين (ع) .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

بمعنىٰ : أيها النبي ، قل للذين يفضلون الرهبانية : من الذي حرم زينة الدنيا التي خلقهـا اللّهُ لعباده ؟ الـرزق الجيد والـطيب خُلق لكم . المرحـوم الفيض الكاشاني عليه الرحمة ـ وهو أحد علماء الشيعة الكبار وصاحبُ « التفسير الصافي » .

ينقل رواية عن النبي الأكرم ص) حول هذا الموضوع يقول فيها: أخبروا النبي الأكرم (ص) بأن ثـلاثة من الصحـابة اختـاروا الرهبـانية خـوفاً من آيـة العذاب النازلة ، أحدهم تعهد بأن لا يمس امرأة ، والآخر تعهد بأن لا يـأكل طعاماً لذيذاً ، والثالث تعهد بأن لا يختلط بالناس . لقد ترك هؤلاء الحياة وذهبوا إلى الصحراء وانهمكوا في العبادة ويضيف المرحوم فيض الكاشاني : وامتعض النبي (ص) جداً عن سماعهِ هذا النبأ . وهرع مسرعاً نحو المسجد على غير عادة. كان ممتعضاً لدرجة لم ينتبه فيها إلى طرفِ عباءته الملقىٰ على الأرضِ وفي غير موعد صرخ المؤذن : « **الصلاة جامعة** » واجتمع الناس كلهم . ارتقىٰ النبي (ص) المنبر وقوفاً على السُلّم الأول وقال : أيها الناس إني نبيكم أأكل من الطعام اللذيذ ، ألمس المرأة ولديّ علاقات مع الناس في المجتمع « **فمن رغب عن سنتي فليس مني** » فمن لم يكن هكذا فليس بمسلم . نظير هذه الآيـات والروايات كثيرة في الإسلام ، لذلك « **لا رهبانية في الإسلام** » .

إذن : خالق هذا العالم منح الإنسان غرائز ورغبات ينبغي تلبيتها . ولكن السؤال هنا ، كيف يجب تلبية هذهِ الرغبات . الإنسان يستطيع أن يلبّي رغباته عبر طريقين :

١ ـ **الحلال** .

٢ ـ **الذنب** .

يستطيع الإنسان أن يكدح ويؤدي واجبه بصورة جيدة ، ثم يحصل على المال ويرضي غريزة حبهِ للمال عن طريق الحلال ـ كما أنه يستطيع أن يواظب على دروسهِ ، وينال مكانةً اجتماعيةً ، وبذلك يرضي غريزة حبهِ للمال . وإذا كان ينوي ضمان مستقبل أبنائه عليه أن يكدح في الطريق المعقول والمشروع ، ليضمن مستقبل أبنائه وبذلك يُرضي ويُهذّب غريزة حب البنين . وهذا الطريق الأوّل أما السبيل الآخر لتهذيب وإرضاء الغرائز ، فهو سبيل الحرام (الذنب)

أحياناً يوفر الشخص المال عن طريق التزوير والاحتيال ، يحصل على منصب اجتماعي بواسطة النصب والاحتيال ، ويوفر ضمان مستقبل أولاده عن طريق التطفيف والاحتكار . أو إذا أحالوا واجباً إليه لا يؤديه بصورةٍ جيدة ، وقد حذر القرآن الكريم هؤلاء المطففين . هذا الشخص أرضىٰ غريزة حب المال وحب الجاه وحب الأبناء ولكنه انتهج الطريق الحرام (الذنوب) .

إن غرائز ورغبات كلا الفريقين قد لُبِّيت ، ولكن هنالك فرق كبير . فلو لُبيت الغرائز عن الطريق الشرعي والمعقول فهي مباركة حقاً ، إن الإنسان يمكنه أن يصل أينما يشاء . إنّ السبيل الحقيقي لتكامل الإنسان هو أن يُرضي ويهذّب غرائزه عن طريق الحلال . هذا هو الطريق من وجهة نظر القرآن والروايات ، وقد أثبتت التجربة أن لا سبيل للتكامل سوى هذه الطريق . ولكن لو حدث ذلك عن طريق الحرام (الذنب) فلن يبلغ الهدف المنشود القرآن يقول : لن يبلغ الهدف المنشود ، والروايات تقول لن يبلغ الهدف المنشود والتأريخ أيضاً يقول لن يبلغ الهدف المنشود . سأنقل لكم قضية من كربلاء ، لكي ترون كيف لا يمكن بلوغ الهدف المنشود عن طريق الحرام (الذنب) :

كان من المقرر أن يأتي عمر بن سعد إلى إيران ويصبح والياً على إيران في ذلك العهد . فحدثت قضية كربلاء . جاء ابن زياد إلى الكوفة في وقت تزامن مع موعد قدوم عمر بن سعد إلى إيران .

الشورى التي شكلها ابن زياد قالوا له : عمر بن سعد يستطيع أن يخمد النار التي أضرمها الحسين (ع) لذلك استدعى عمر بن سعد ، وقال له : مهمتك أن تذهب إلى كربلاء . قال : لدي عهد من يزيد بأن أذهب إلى الري لأحكم هناك .

ابن زياد قال : أنا لدي صلاحيات تامة من قبل يزيد ، عليك أولاً الذهاب إلى كربلاء للقضاء على الحسين (ع) وبعدها تذهب إلى ولاية الريّ . فشعر ابن سعد بالخوفِ والقلق لأن قتل الإمام الحسين (ع) لم يكن عملاً هيناً ـ كان عمر بن سعد رجلاً ماكراً ـ ولكن حين تطغىٰ إحدى الغرائز على الإنسان أو يهيمن الشيطان على الإنسان ـ سأتحدث معكم حول هذا الموضوع في

المستقبل إن شاء الله ـ إنه كان حائراً عند مفترق طريقين ، العقل يقول : كلا ، الغريزة والجانب البهيمي تقول : نعم . في تلك الجلسة ، طلب مهلة لكي يفكر وفي ليلةٍ من الليالي استمر يفكر حتى الصباح .

المؤرخون يذكرون نقلاً عن ابنه أنه كان يسير في صحن الدار ويناجي نفسه : هل أذهب إلى كربلاء وأقتل الحسين (ع) ؟ لو فعلت ذلك فسأنال الرئاسة والمال وستقبل عليَّ الدنيا ، ولكن آخرين ستفنى حيث جهنم وعذاب الله وخزيُ المنقلب إذا لم أذهب إلى كربلاء، لديّ الآخرة وكرامات الجنة ورضا الله ورسوله ، وبالمقابل لن أحصل على الدنيا . إنَّ حالة التلكّأ من الحالات السيئة للإنسان وتجرّه شيئاً فشيئاً نحو الكفر وعمر بن سعد انتابتهُ هذهِ الحالة حيثُ مهّدت الأرضية لخسرانهِ وتعاستهِ التي اختارها لنفسهِ . قبل أذان الفجر تغلّبت نفسه على روحه ، وطغى الجانب البهيمي على الجانب الملكوتي . ومن أجل أن تطفِىء ضربات الوجدان الجانب المعنوي جاء بعذرٍ باهتٍ كروحهِ .

يقولون هناك قيامة ، سنذهب إلى كربلاء ونقتل الحسين (ع) ونُتمّ الأمر . ثم نعود إلى الري ونتولى الرياسة فيها . وبعد ذلك نتوب .

قرر أن يذهب إلى كربلاء ، لماذا اتخذوا هذا القرار الخطير ؟ لأن غرائز حب المال وحب الجاه وضمان مستقبل الأولاد ملأته وهو نفسه كان يبحث عن إرضاء يزيد . كافة هذهِ الغرائز عن طريق الحرام . وفي الصباح ذهب إلى ابن زياد وقال : جئت لأخبرك بأني سأذهب إلى كربلاء .

ذهب عمر بن سعد إلى كربلاء ، وأتم الأمر بشكلٍ مفجع . الكثير من الأعمال التي ارتكبها عمر بن سعد في كربلاء ، لم يؤمر بها . رأفة الإمام الحسين (ع) لم تستطع أن تغيّرهُ . حتى في اليوم التاسع التقى به . لكن جذابية الإمام الحسين (ع) لم تؤثر فيه لو هُزمت روحنا الإنسانية ، سنصبح تُعساء . ستصل التعاسة إلى مدى لا تستطيع جذابية الحسين (ع) نوّه مراراً ، وقال : سأعطيك بيتاً .

وباختصار أي شيء كان يطلبه ، كان الحسين (ع) يقول: سوف أوفرّ لك،

إلى أن قال صراحةً : أريد حكم الري ، فقال الإمام الحسين (ع) : أرجو أن لا تأكل من قمح الري وأن يقطعوا رأسك في فراشك . فأجاب ابن سعد مستهزءاً : هذا هو ما يكفينا .

باختصار لم يقبل بنصائح الإمام وأتمم الأمر كما أراد ابن زياد وبعد مقتل الإمام (ع) جاء إلى الكوفة . ومكث فيها أياماً بسبب وجود السبايا من آل بيت الرسول (ص) وما نجم عن قضيتهم من هيجانٍ شعبي إلى حين إرسالهم إلى الشام وعندما خفتت الضوضاء ، جاء عند ابن زياد ـ وهنا تجد رواية الإمام الحسين (ع) مصداقها البارز ـ « **من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر** » .

كل من يريد أن يحصل على شيء عن طريق الحرام (الذنب) سيواجه الإحباط واليأس ، وتراه مسرعاً باتجاه عكس ما كان يروم . قال لابن زياد : إني مستعد للذهاب إلى الري . فقال ابن زياد : سمعت أنَّ لديك جلسات مع الإمام الحسين (ع) في كربلاء . ما مناسبةُ عقد هذهِ الجلسات الخصوصية مع عدونا ؟ أنَّ ابن زياد بالذات لا يعرف ماذا يقول . إنها نبوءة الإمام الحسين (ع) تريد أن تتحقق .

إن الباري عزّ وجلّ يسلّط الأعداء على بعضهم البعض . قال عمر بن سعد : كانت لديّ جلسات أو لم تكن ، أنت أردت أن أقتُل الإمام الحسين (ع) وأنا قتلته ، وأسرت عائلته وسلمتها لك وقد أرسلتهم إلى الشام ، فماذا تريد مني بعد كل هذا ؟ .

قال ابن زياد: كان يجب عليك أن لا تعقد جلسات خصوصية مع عدونا . وفي أثناء الحوار ، قال لعمر بن سعد : أعطني عهد حكم الري .

أعطى ابن سعد عهد يزيد إلى ابن زياد فأخذه ومزقه ورماه جانباً .

قال عمر بن سعد : يا ابن زياد ، لقد حطمتني . قال : اخرجوه . فمسكوه وألقوا به خارجاً . كان دائماً يقول : ﴿ **خسرَ الدنيا والآخرةَ ، ذلكَ هوَ**

الخسرانُ المبينُ ﴾[1] بمعنى : « أصبحت تعيساً في الدنيا ، وخسرت الآخرة يا له من خسرانٍ مبينٍ » .

وتدريجياً أصبح مجنوناً . عندما يأتي إلى البيت كـانت زوجته وأولادهُ يؤنبونـه ، قالـوا له : لقـد حطمتنا، وكنت السبب في بؤسنا . بسبب عملك الشنيع ، لا نستطيع الخروج من البيت . عندما كان يسير في الزقاق كان الأطفال يرشقونه بالحجارة . كان هناك حمّام بالقرب من دارهِ ، وفي هذا الحمّام بابان يدخل من إحداهما إلى الحمام . فكان يواجه بالاستهزاء من قبل الموجودين ، وكانوا يضربونه ، بحيث يهرب من الباب الآخر وبناء على الأوامر تمت مصادرة فراشه . الشيء الوحيد الذي بقيَ يُردده دائماً :

﴿ خسرَ الدنيا والآخرةَ ذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ ﴾[2] .

ثم جاء دور المختار ، كانت زوجة عمر بن سعد أخت المختار . لذلك عندما ثار المختار ، تمكنت هذهِ الزوجة أن تحصل من أخيها كتاباً بعدم التعرض لابن سعد لكن المختار يعلم أن عمر بن سعد ارتكب جريمة ، ويجب أن ينال جزاءه لذلك كتب في كتاب عدم التعرض « عمر بن سعد في أمـان » « ما لم يحدث حدثاً » المعنى الظاهر للعبارة أن عمر بن سعد ، طالما يتآمر فهـو في أمان .

ثار المختار لينتقم لدم الحسين (ع) من المشاركين في مأساة كربلاء ، ليشفي بهذا العمل غليل الزهراء ـ عليها السّلام ـ والشيعة . كان يفكر دائماً في كيفية إنزال العقاب بعمر بن سعد . أحياناً كان عمر بن سعد يشارك في مجلس المختار . في أحد الأيام أمر المختار بذبح اثنين من أولادهِ أمام عينيـه . قال عمر بن سعد : إن رؤية هذا المشهد تؤلمني جداً . قال المختار : عندما قطعوا رأسي عليّ الأكبر أمام الإمام الحسين (ع) ، ألم يكن ذلك مؤلماً ؟ .

ذهب المختار إلى داره وطلب اثنين من ضباطه الأذكياء وقـال : اذهبوا وأتوا بعمر بن سعد . وكونوا على حذر لأنه رجل مخادع ، إذا قال هاتوا ملابسي

(١) سورة الحج ، الآية : ١١

(٢) سورة الحج ، الآية . ١١

اريد أن ألبسها ، فإنه يُضمر الخداع وعليكم أن تقضوا عليه هناك . باختصار أعلمهم أنه يريد رأس عمر ابن سعد .

هنا ستتحقق لعنة الإمام الحسين (ع) جاء الضابطان كان عمر بن سعد راقداً في فراشه . قالوا له : إنَّ المختار يريدك . فنهض وقال : المختار أعطاني كتاباً بعدم التعرض . قالوا : أرِنا ذلك الكتاب ، أخذوا الكتاب ووجدوا فيه مكتوباً : عمر بن سعد في أمان . « ما لم يحدث حدثاً » قالوا : حسناً ، هاتان الجملتان لهما معنيان ، الأول طالما أنه لم يتآمر فهو في أمان والمعنى الأخر ، طالما أنهُ لم يُخل بطنه فهو في أمان ، لأن « ما لم يحدث حدثاً » . من مادة الحدث ، قال عمر بن سعد : المختار لم يكن يقصد المعنى الثاني : ﴿ ومكروا ومكرَ اللَّهُ والله خير الماكرينَ ﴾[1] .

إنَّ آية الله الأراكي الذي كان يصلي في مدرسة الفيضية، أحياناً كان يقول هذهِ الجملة البارزة : ﴿ الله يُمهل ولا يُهمل ﴾ الباري عزّ وجلّ لديهِ صبرٌ وحلمٌ كثير ، ولكن يا أعزائي حذارى أن تنخدعوا من حلم الله ، الله حليم ، ولكن حينما يأتي دور العذاب ، فإنه شديد العقاب » .

قال عمر بن سعد للضابطين : المختار لم يكن يقصد المعنى الثاني ، قال الضابطان : نحن هكذا نفهم . قال : هاتوا ملابسي . ما إن قال هاتوا ملابسي ، قطعوا رأسه وجاءوا به إلى المختار . أحد أولاد عمر بن سعد كان هناك فبكىٰ لرؤية رأس أبيه . قال المختار : إلحقوه بأبيه . يقول الإمام الحسين (ع) :

« من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر » لان من يصِح عمر بن سعد ، ويريد أن يرضي غرائزه عن طريق الحرام (الذنب) لن يحصل على ما يبتغيه ، يا ليت أنه لن يحصل على ما يبتغيه فحسب ، بل يحصل على عكس ما ينشره ، يحصل على الذل والجنون ، والقتل في

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٥٤ .

الفراش . ولأنَّ ضمان مستقبل الأولاد عن طريق الحرام (الذنب) يؤدي إلى الذلّ والهوان . إن القرآن يقول :

﴿ وليخشَ الذين لو تركوا منْ خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾[1] .

أي : إذا أردت أن تضمن مستقبل أولادك ، وإذا كنت تخشىٰ على مستقبلهم فاتّق وقوّ علاقتك بالله . عندما تتحدثْ انتبه ماذا تقول . أليس في كلامك لدغة واستغابة وقذف بالناس، كن على يقين بأن قذفك الناسَ بالتّهم سيغدو حيّة قِطاء لضمان مستقبل أولادك ، ولكن كن على ثقة بأن استغابتك ولدغات كلامك ، وأكاذيبك وشهادات الزور ستصبح ناراً لضمان مستقبل أولادك . كما أن عكس هذهِ القضية نراه في قضية حضرة الخضر وحضرة موسى عليهما السّلام . قضية عجيبة جداً . وكما قال أستاذنا الكبير ، قائد الثورة الإسلامية العظيم (قدس سره) الذي كان يقول لي : في هذهِ الآيات القلائل يكمن علمٌ بحجم الدنيا . لقد حلّت ـ هذهِ الآيات ـ مسألة القضاء والقدر بصورة نهائية كما أنها حلّت مسألة الجبر والتفويض التي تعتبر من المسائل الفلسفية المهمة والمستعصية ، ففي هذهِ الآيات نقاط حساسة سيَدور حولَها بحثنا في هذا المجال .

فعندما وصل موسى (ع) والخضر (ع) إلى تلك القرية ، لم يأذن لهما أهل القرية بالدخول ، حتى أنهما أعطوا نقوداً ، وطلبا غذاءً ولكنهم لم يقدموا لهم غذاءً ، فخرجا من القرية متعبين جائعين وصلا إلى جدار مائل . قال الخضر (ع) لموسى (ع) : علينا أن نهدم هذا الجدار ونعيد بناءَهُ : فامتعَضَ موسى (ع) وقال : أنهم لم يقدموا لنا غذاءاً وطردونا ، فهل يعقل أن نقدّم عملاً حسناً لصالحِهم فَقوّضَا الجدار وأعادا بناءه كما قاما بأعمال أخرى في طريقهم لا حاجة لنا بذكرها الآن . عندما قرّرا الافتراق ، قام الخضر (ع) بتوضيح فلسفة أعماله إلى أن وصل الدور إلى قضية الجدار ، فقال : **﴿ وأما الجدار ، فكانَ**

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩ .

لغلامينِ يتيمينِ ﴾[١] بمعنى أن ذلك الجدار كان ملكاً لطفلين يتيمين ، وكان تحته كنز ، ﴿ وكانَ أبوهما صالحاً ﴾[٢] بمعنى أن والد هذين الطفلين ، كان رجلاً مُوحِداً ، وكان كلامُهُ ينزل على الآخرينِ كالماء الزلال ، وليس كلدغة من حية قِطاء . لم يكن مضراً للآخرين ولا أنانياً . لذلك كان لديّ أمر من جانب الباري عزّ وجلّ بتقويض ذلك الجدار وإعادة بناءه ، لكي لا ينهدم الجدار قبل أن يكبر الأطفال ولكي لا يحصل الآخرين على الكنز الذي تحته .

ماذا تقول لنا هذه الآية ؟ هذهِ الآية تقول لنا : إذا أردت أن ترضي غرائزك إرضِها بالطريق المشروع ، وإذا أردت أن تكون عاقبتك وأولادك على خير ، كن صالحاً ، كُن خيّراً وخدوماً ، إخدم الله وخلق الله بقدر الإمكان . وكُن على يقين إذا أردت الدنيا ، سيعطونك إياها وإذا أردت الآخرة ستنالها أيضاً .

﴿ منْ عمـلَ صالحـاً منْ ذكرٍ أو أنثىٰ وهـوَ مؤمنٌ فلنحيينه حيـاةً طيبـةً ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ ﴾[٣] .

بمعنىٰ إذا أصبحت إنساناً خيراً ، وإذا متّنت علاقتك بالله ، وإذا لم يكن في حياتك ذنب بالأخص في حق الناس ، فلك في الدنيا حياة طيبة وسعيدة ، وفي الآخرة أيضاً تنتظرك الجنة الخالدة . الأجر الذي تناله في الآخـرة يفوق ما قمت به من أعمال وليس هنالك أية نسبة بين عملك وذلك الأجر في القرآن الكريم الكثير من الآيات نظير هذهِ الآية وروايات كثيرة نظير الرواية التي قرأتها . ولدينا أمثلة عديدة في التأريخ ذكرت لكم عدداً منها ورواية الإمام الحسين (ع) تستند إلى القرآن وكذلك على الروايات والتأريخ .

إذن يا أعزائي ، إذا أردتم سعادة الدنيا ، لتكن لكم علاقـة بالله ، وأن تخلوا حياتكم من الذنوب . كونوا على ثقة أنكم لن تجنوا شيئاً عن طـريق الحرام . من الممكن أن يحصل المرء لأيام معدودات على المال والجاه عن طريق الحرام ، ولكن هذا المال والجاه قد يصبح مصدراً لتعاستهِ وبؤسهِ .

---

(١) و (٢) سورة الكهف ، الاية : ٨٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ٩٧ .

أنا وأنتم سمعنا وشاهدنا البعض مرفهين ولكن نفس هذا الشخص الذي يبدو أن وضع حياتِهِ مستقر ، عندما تنظر إليه بعمق ، ترى أن حياته هي الموت التدريجي ، وإذا كان الموت يُشْترىٰ ، فهو مستعد لأن يهب كل ما يملك ليشتري الموت .

هذا الشخص يتحسّر بشكلٍ لم يتحسّر مثله أي فقير أو مسكين طوال عمره . لماذا ؟ القرآن يقول :

﴿ **ومنْ أعرضَ عنْ ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضَنكاً** ﴾[1] كل من يُعرض عن الله وكل من ليس له علاقة قوية بالله . فإن أول مصائبه أن يحيا حياة تعيسة في الدنيا .

إذن أنتم يا أعزائي يا من تعشقون الإمام الحسين (ع) كلما فكرتم أو تحدثتم أو عملتم تذكروا رواية معشوقكم : « **من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر** » .

أنصحكم نصيحة : (وسأتحدث في المستقبل حول ذلك بصورة تفصيلية إن شاء الله) .

أعزائي ، لقد أكدتُ في أوقاتٍ سابقة : إن عملكم وحرفتكم راقية جداً ، هو عمل الله والنبي .

كما أن عبء مسؤوليتكم كبير جداً . الأولاد الذين تشرفون على تعليمهم ، أمانة في أيديكم وأرذل الناس هو الذي يخون الأمانة .

وهناك رواية عن الإمام السجاد (ع) ما مضمونها : لو وضعوا عندي الخنجر الذي قُطع به رأس والدي أمانةً فلن أخون وسأردهُ إلى صاحبه .

عبد الرحمن بن سبابة يقول : عندما توفي والدي ، كنا في ضنكٍ من العيش فأقرضني أحدُ أصدقاء والدي قدراً من المال . فاشتغلت في التجارة ، وعن طريق الكسب الحلال استطعت أن أوفي قرضي .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤ .

وتدريجياً ادّخرت كميةً من المال . ساعدتني على أداء فريضة الحج . وفي المدينة ذهبت لزيارة الإمام الصادق (ع) فقال الإمام (ع) : كيف حال أبوك ؟ قلت : ﴿ **إنّا لله وإنا إليهِ راجعون** ﴾ لقد توفي أبي . قال : ماذا تصنع وكيف جئت إلى هنا ؟ فشرحت له القضية بأني اقترضت مالاً واشتغلت في التجارة .

ما إن سمع الإمام الصادق (ع) بالقضية ، قال : « ماذا فعلت بمال الناس ؟ » ، قلت : يا بن رسول الله ، لقد أوفيت قرض وأمانة الناس وبعدها جئت إلى خدمتكم » .

فَسُرَّ : الإمام الصادق (ع) كثيراً ، وقال لي : « **عليك بصدق الحديث وأداء الأمانة** »[1] بمعنى عليك بمراعاة أمرين : كن صادقاً ومستقيماً في عملك . إذا كان المرء ذا مصداقية فسيصبح عزيزاً في المجتمع .

٢ ـ المواظبة على أداءِ أمانات الناس :

الأولادُ الذين تشرفون على تَعلِيمهم هم أمانةٌ في أعناقِكم . عليكم تأديةُ واجبِ حفظ الأمانة إذا لم تُؤدوا واجبكم بصورة تامة لا سامح الله ، وتذهبون إلى الصف ، بدون مطالعة وتخدعون الأولاد ، وتتلفون وقتكم عبثاً ، فهذا تطفيفٌ وخيانةٌ في الأمانة والمالُ الذي تحصلون عليه من هذا الطريق سيصبح نقمة ، ويجرّ عليكم الويلات . وكما نوّهتُ فيما مَرّ ذكره من حديث الإمام الحسين (ع) : « **ستجري مسرعاً نحو الفقر والفاقة بدون أن تشعر** » .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **ويلٌ للمطففينَ ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفونَ ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرونَ ، ألا يظنُّ أولئكَ أنهم مبعوثونَ كيومٍ عظيم** ﴾[2] الظن بيوم القيامة يبعث على إعادة النظر في التعامل ، فكيف إذا تيقّن المرء من ذلك .

تقول الآية : ﴿ **ويلٌ للمطففين** » . إنّ الكاسب المطفف والمجحف

---

(١) وسائل الشيعة المجلد ١٣ ، ص ٣١٩ ، الحديث (٦) .

(٢) سورة المطففين ، الآيات : ١ ـ ٥ .

والمحتكر في خطٍّ واحد . موظف الدائرة الذي يتهاون في عملهِ مطففٌ .

وأنتم المعلّمون أيضاً إذا لم تؤدوا واجبكم والأمانة الملقاة على عاتقكم في نهاية العام الدراسي ، فإنكم مطففون . أنت أخذت مالاً ، ولكنك بتباطئك في العمل والعُطَل اللاشرعية ، لم تؤدِ الأمانةُ الملقاة على عاتقك بصورةٍ تامة . وكما يقول القرآن الكريم :

﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾[1] .

استوفيت وخسرت الكيل ، إذن أنت مصداق هذهِ الآية شئت أم أبيت فويلٌ لك أيضاً .

إذن موجز البحث عبارةٌ عن نصيحةٍ مُؤدّاها أن تواظب دائماً في قولك وعملك ، وقبل أن تفكر ، وقبل أن تقول ، وقبل أن تعمل تَذَكّر قول الإمام الحسين (ع) :

« من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع ما يحذر » .

---

١) سورة المطففين ، الآيتان : ٢ و ٣ .

البحـث الثالـث

جهـاد النفـس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ربّ اشرح لي صدري ويَسِّر لي أمري واْحلُلْ عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

الإنسان لديهِ امتياز من بين كافة المخلوقات وهذا الامتياز هو أنه ذو بُعدين بُعد مادي ، والآخر حيواني يسمـونه في الفلسفـة : الجسم كما يُسمىٰ جسم الإنسان في علم النفس باسم الرغبات أو الغرائز ويُسمىٰ في الأخلاق والعرفان الإسلامي باسم الاتجاه الحيواني ، أو البعد الحيواني للإنسان ولذا فهو من هذهِ الناحية حيوان بكل معنىٰ الكلمـة ولا يختلف عن الحيوانـات أبداً . ولـه بُعد معنوي أيضاً ، وهـذا الجانب جـانب ملكوتي ويُسمىٰ في الفلسفـة « الروح » لذلك يقولون : إن الإنسان مُركب من الروح والجسم . العقل والروح والوجدان الأخلاقي ، والقلب والصدر جميعها ذات معنى واحد وتتجه نحو البعد المعنوي للإنسان ، وإن ارتقاء وتكامل الإنسان ، يجري عن طريق هذا التركيب ، وبما أنّ الملائكة يمتلكون البعد المعنوي فقط ، لذلـك لم يُشاهـد ، ولن يُشاهـد تكاملٌ في الملائكة .

مع أن حضرة جبرائيل ملك مقرّب ، وله سعة وجودية على العالم وكما قال النبي الأكرم (ص) لو تمكن المرء من استيعاب حقيقة جبرائيل ، فـإن له هيمنـة على عالم الـوجود أيضـاً ، إن سعتهِ الـوحدويـة كبيرة إذ أنـه ملك الله المقرب . كما هو الحال بالنسبة لحضرة عزرائيل . ولكن ليس هنالك تكامل في جبرائيل ، ليس هنالك أدنى فرق بين جبرائيل الحالي وجبرائيل قبل مليار عام

مع أنه منهمك في عبادة الله ، وكما قال القرآن الكريم فإن جبرائيل لا يخالف ولا يعصي ربه وشأنهُ شأن سائر الملائكة ، لا يسير نحو التكامل ، كما أن الحيوانات ليس لها تكامل ، مثلاً دابّة الأرض والنمل هذهِ حشرات تعيش بصورة جماعية ، ولديها حضارة خاصة ، وبالأخص دابة الأرض والنحل والنمل حيث كتب علماء الإسلام كتاباً حولها مثل « الدميري » مؤلف كتاب حياة الحيوان وآخرين مثل مترلينغ النمل ودابّة الأرض والنحل .

النظام والطرق الحضارية المتبعة في حياة هذهِ الحشرات تفوق ما يتبعه الكثير من البشر ، ولكن على رغم الحضارة التي يمتلكها النحل مثلاً ، إلا أنه لا يسير نحو التكامل . قبل مليار عام كانت دابّة الأرض تبني بيتاً راقياً جداً بحيث حازت على إعجاب وتقدير المهندسين في دقّة تصميمها ، ولكنها الآن تبني نفس ذلك البيت .

لم يحدث أي تطور (تكامل) في بناء البيت أو في النظام لدى النمل لكي تصل إلى حضارة أرقىٰ .

التكامل موجود في عالم الخلقة باسم الإنسان فقط ، لأنهُ يمتلك بعدين : بعد ملكوتي (ناسوتي) ويسمىٰ الروح ، وبعد حيواني يُسمى الجسم . التركيب أيضاً تركيب عجيب ، بمعنى أن طريقة التركيب مجهولة لحد الآن ، ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ندرك كُنهها ، لا يستطيع أي فيلسوف أن يوضّح طريقة التركيب بين الروح والجسم . إنهم يكتفون بالقول : إن طريقة تركيبه طريقة تعلّقية ولكن ماذا تعني التركيبة التعلقية ؟ ماذا تعني حقاً ؟ وما هي طريقتها ؟ تركيب بين ضدين ! . روايةٌ عن النبي الأكرم (ص) في سفرهِ إلى المعراج يقول فيها : رأيت ملكاً في ليلة المعراج ، كان نصفهُ من النار والنصف الآخر من الثلج ، الثلج لم يكن يسري إلى النار ، وكذلك النار إلى الثّلج . إذا أردنا أن نفهم هذهِ الرواية ، فنحن خير مثال لها .

جميع رغباتنا الروحية لا يتلاءم معها جسمنا ، وعلى العكس جميع رغباتنا الجسمية تسبب المتاعب والألم لروحنا . أنتم لا يمكنكم أن تجدوا لذة روحية ترضي الجسم ، كما تُرضي بُعدكم الحيواني ، مثلاً صفة طلب العلم وصفة

البحث عن العلم ، وصفة طلب الحقيقة وصفة التسامح ، وصفة الإيثار والتضحية جميع هذهِ الصفات ترتبط بالبعد الملكوتي والروحي للإنسان . عندما تُحل مسألة ما تستلذ الروح كثيراً ، ولكن نفس هذهِ اللذة الروحية يعقبها ألمٌ في الجسم بمعنىٰ أن طلب الحقيقة يسبب المتاعب عند البحث عن العلم ، وطلب العلم تُفرض أمور على النفس وعلى البعد الحيواني .

جميع هذهِ الأمور تسبب الألم والمتاعب لجسمكم ، أما الأكل والشرب وإطفاء الشهوة والاستراحة فهي مستلزمات مفيدة للجسم ، لكن وكما يقول مثنوي كلما اعتنيتم بهذا الجسم ، تقتل الروح ، ويسري الكسل والمتاعب للروح ، ما هذا التركيب بين هذين الضدّين ؟ التركيب الذي يتكامل الإنسان بواسطتهِ ، ولكن أحياناً يركب الجانب الملكوتي والمعنوي الذي أسميناه الروح ، يركب الجانب المادي ، الجانب الناسوتي والحيواني ، ويتحرك إلى الأمام في حركة تكاملية بمعنى أن هذا الجسم يصبح كالحصان بالنسبة للروح ، الروح تهذّبه وتُروّضهُ وتمتطيه ، إلى أين يذهب ؟ يصل إلى مكان لا يعلمهُ إلا الله . نظير البراق الذي امتطاهُ النبي الأكرم (ص) وصعد إلى الأعلى ، أما كيف كان هذا البراق ، وكيف صعد إلى الأعلى ، لا نعلم ، إن ما نعلمهُ هو أن النبي الأكرم (ص) ذهب مع هذا الجسم إلى الحد الذي اقترب فيه إلى الله حيث يقول القرآن :

﴿ ثم دنا فتدلىٰ ، فكانَ قابَ قوسينِ أو أدنىٰ ﴾[1] .

آخر مراتب القرب تكمن في هذهِ الآية الشريفة . الإنسان أيضاً هكذا أحياناً يمتطي البراق ، بمعنى أنه يسمو فوق هذا الجانب المادي ، وهذهِ الرغبات والغرائز ، ويسير سيراً صعودياً يتصل في مرتبته الأولى والثانية بعالم الملكوت ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ إنَّ الذينَ قالوا ربّنا اللّهُ ثمَّ استقاموا تتنزلُ عليهمُ الملائكةُ ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن اولياؤكم في الحياةِ الدنيا

---

(١) سورة النجم ، الآيتان : ٨ و ٩ .

وفي الآخرة ﴾[1] . بمعنى أن الذين يقولون رَبُّنا الله ، أولئك المؤمنون العاملون بإيمانهم ، إنهم حقيقةً مؤمنون أقبلوا على الله تعالى واستقاموا على الطريقة الإلٰهيةِ وصمدوا بوجهِ الشهوات .

يصل إلى مرتبةٍ يأتي الملائكة ويتكلمون معه . ويرى الملائكة . وهم يقولون له : نحن أصدقاؤك ، نُنجدك في الدنيا وفي الآخرة ، إنه يتعامل مع الملائكة ، وشيئاً فشيئاً يصل كما يؤكد القرآن وروايات أهل البيت ، ومن حيث التجربة إلى التصرف في عالم الملكوت ، ويتصرف في عالم التكوين . إن استيعاب هذا الأمر صعبٌ ، وشاهدنا بأن البعض قد حقق ذلك بالفعل .

« جابر الجعفي » أحد الأشخاص ، الذين استطاعوا أن يسيطروا على رغباتهم ويمتطون البعد المادي نحو التكامل الملكوتي . الراوي يقول : قلت لجابر في الكوفة : لقد اشتقت إلى الإمام الصادق (ع) . قال : هل تريد الذهاب إليه ؟ فتعجّبت ، وقلت : نعم ، ولكن كيف يمكن الذهاب إلى الإمام الصادق (ع) ؟ .

فذهبنا خارج الكوفة . ثم قال : أعطني يدك وأغمض عينيك . أعطيتهُ يدي ثم فتحت عيناي ، فإذا بي في أزقّة المدينة ، فتعجبت . قال جابر : هذا بيت الإمام الصادق (ع) اذهب إلى هناك حتى آتي . عندما مررت في الأزقّة سألت نفسي قد يكون هذا ضرباً من السحر ، أين أنا مِن الكوفة ؟ الأفضل أن أضع مسماراً في الحائط ، وفي العام القادم عندما آتي إلى مكة والمدينة سأرى هل المسمار موجود أم لا ؟ يقول : بينما كنت على هذهِ الحال وإذ بجابر الجعفي قادم فأعطاني مسماراً وصخراً وقال : اضرب المسمار في الحائط .

يقول : ذهبت عند الإمام الصادق (ع) ولكني كنت خائفاً جداً ، فرأيت جابراً قادماً وانفرد بالإمام (ع) أحياناً كان الإمام الصادق (ع) يناجيه وأحياناً كان هو يتحدث إلى الإمام ـ خلوة العاشق بالمعشوق ـ جلست عند الإمام (ع) مدة وبعد ذلك خرجنا سويةً ، فرآني جابر ، وقد أصبت بالذهول فقال : هل تريد أن

---

(1) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٠ و ٣١ .

تذهب إلى الكوفة ؟ قلت : نعم . قال : اغمض عينيك وأمسك بيدي ، ثم فتحت عيناي وإذا بي في الكوفة .

لا تستغربوا ، إن هذهِ الأمور لها جذور قرآنية . ناهيك عن العرفاء والتجربة وتاريخنا ، فإذا لم تكن هذهِ الأمور ، ذات جذور قرآنية ما كنت قد تحدثت عنها لكم ، نقرأ في تفسير القرآن الكريم حول « آصف بن برخيان » أحد تلاميذ حضرة سليمان : عندما جاءوا بالخبر ، كان هو يعلم بالخبر بأن بلقيس تحكم في اليمن ، وإن الناس هناك يعبدون الأصنام . قال حضرة سليمان : من الذي يستطيع أن يأتيني بعرش بلقيس ؟ القرآن يقول : ﴿ **قالَ عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ تقومَ منْ مقامك** . . . ﴾[1] ثم يقول : ﴿ **قالَ الذي عندهُ علمٌ منَ الكتابِ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفك** ﴾[1] قال : إئذن لي بأن آتيك بعرش بلقيس في لمح البصر ، اغمض عينيك ثم افتحها ، سيكون العرش جاهزاً ﴿ **قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾[2] فأذن له . فجاء آصف بن برخيا بالعرش في لمح البصر ، القرآن يقول إنه جاء به . ما هذا العلم يا ترىٰ ؟ .

كيف يمكن للإنسان أن يُدرك هكذا ؟ إذا أراد أن يُدرك ، هذا هو السبيل ، عليه أن يسير في الملكوت ، وأن يسيطر على النفس ويهذب البعد الحيواني ، أن يلجم هذا الحصان الجامح ويمتطيه ، حينذاك يصبح جابر الجعفي ، وآصف بن برخيا .

هذا الموضوع طرحته بصورة عرضية ، ولم أقصد أن أتناوله بهذا الشكل الأمر الذي أودّ أن أسترعي انتباهكم نحوه ، وأعلم أنكم تعانون من نقصٍ شديد في هذا المجال ، هو أن تتعاملوا مع القرآن ، القرآن فيه أشياء كثيرة ، كلما تريدونه في حياتكم موجود في القرآن وللأسف فنحن لا نتعامل مع القرآن ، إذا أردتم نور البصيرةِ والعلم ، وأن تسخّروا عالم الملكوت وسلامة الدنيا والأخرة ، عليكم بالتعامل مع القرآن .

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٣٩ .

(٢) سورة النمل ، الآية : ٤٠ .

الإمام السجاد (ع) يقول : إذا ماتت الدنيا وبقيت مع القرآن ، فلن أخشى شيئاً ، بمعنى لن أخشىٰ أحداً ما دمت مع القرآن . هذهِ الآية الشريفة تصف القرآن بما يلي :

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ أولئك الذين درسوا الأدب وهم موجودون الآن في مجلسنا يعلمون بأن كلمة « علم » قد جاءت بصورة نكرة ، وتدلّ على القلّة وتنوينها تنوين التنكير ، ويدل على القلة ، حيث يصبح معناها هكذا : ذلك الذي (أي آصف بن برخيا) كان لديه علم قليل من القرآن استطاع أن يقوم بهذا العمل . يقول الإمام الصادق (ع) :

« علم آصف بن برخيا » بالنسبة إلى القرآن وبالنسبة لنا كان كقطرةٍ في البحر . وحسب رواية الإمام الصادق (ع) وحسب القرآن وبالذات ، كانت لديه قطرة من علم القرآن وتمكن أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام بلمح البصر . هذا علم . لذلك قلت : لا تظنوا بأن جابر الجعفي من خرافات التاريخ ، كلا ، إن له جذور قرآنية ، إذا امتطىٰ الإنسان البراق كما امتطاهُ النبي (ص) ، وذهب حيث كان جبرائيل الذي قال :

« لو دنوتُ أنملةً لاحترقت » بمعنى اذهب أنت ، فلا مكان لي هناك ، ولو اقتربت قيد أنمله لاحترقت ، وكما امتطى النبيِ (ص) البراق ، وذهب إلى ذلك المكان الذي لا نعرف أين هو ، الإنسان أيضاً هكذا هو سياقهُ التكاملي ، ليس فقط يستطيع أن يسخّر الفضاء وعالم المادة بل بإمكانه أن يُسخّر عالم الملكوت ، ليس فقط عالم الملكوت بل يمكنه أن يصل إلى مكان يجد فيه ربه ، كما يجد الإنسان الظامىء العطش . أنتم عندما تشعرون بالعطش كيف تشعرون بهِ ، مرةً قد يصل الأمر إلى أن يسمونه بعالم الفناء ، يقولون عالم القرب ، عالم اللقاء ، لقد تحدث في واحد وعشرين موضعاً حول عالم اللقاء وأساساً هذهِ هي الغاية من خلق الإنسان .

لو استطاع الإنسان أن يسيطر على هذا البعد المادي والبهيمي ، وأن يتغلب البعدُ المعنوي على البعد المادي يستطيع أن يصل إلى أي مكان يشاء . من العبث أن يقول إنسان ما ، لا أستطيع ، إذا لم يستطع فإنه لا يريد الحركة باتّجاه التكامل ، إذا أراد الإنسان كل شيء فذلك ممكن ، ويستطيع الإنسان أن يحققه

وهذا هو معنى الآيةِ الشريفة :

﴿ إنّا عرضنا الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أنْ يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسانُ إنهُ كانَ ظلوماً جهولاً ﴾[1] .

إلا أن هذا الإنسان الذي قَبِل الأمانة ، يمارس الظلم والجهل بحق نفسهِ . القرآن يقول : ﴿ ظلوماً جهولاً ﴾ مستعملاً صيغة المبالغة ، وهذهِ الحقيقة إذ أن الإنسان يمارس الظلم والجهل بحَق نفسهِ بصورة مستمرة . الإنسان يجهل نفسه وهذا هو مصدر كافة متاعبنا الراهنة . الغرب والشرق ، الحضارة والعلم لم يعرفوا الإنسان ، ولأنهم لم يعرفوه نرى كافة النظريات التي قدمها فلاسفة الغرب ولا سيما علماء الأخلاق تفتقر إلى معرفة الإنسان . كتاب « أسلوب البحث عن الأصدقاء » يتحدث حول الأخلاق ، أخلاق الغربيين ماذا يفعل الكاتب في كافة أجزاء الكتاب الذي طبعت ملايين النسخ منه وهو كتاب جيد إنهُ يقول : إذا كنت خلوقاً ستجذب المزيد من الزبائن . يضرب عدداً من الأمثلة للبائعين . . . إذا كنت بشوشاً ودمث الخلق ستكون محبوباً . يضرب بعض الأمثلة للمعلمين ، وبعض الأمثلة لمديري المعامل . وحتى نهاية الكتاب يفترض الكاتب الإنسان كحيوان آحادي الأبعاد ، الكل يحسبون الإنسان آحادي الأبعاد ، يتصورون أنه لا يفهم إلا أن مصدر كافة المتاعب يكمن في عدم معرفتهم وجود ودور الإنسان . مهندس ألماني أراد أن يزن قيمة الإنسان وبعد المحاسبة توصل إلى قيمةٍ هي عشرون ماركاً (٨٠) توماناً لماذا ؟ يضيف المهندس الألماني : الإنسان يملك ٤ كيلو من الكلس وكان قد قدر ذلك من الناحية الفيزيائية والكيماوية ، وكذلك (٥) كيلو حديد ، ٣ كيلو سكر و . . . إذن سعر الإنسان الواحد (٨٠) تومان حين قرأت هذهِ الجملة سخرْتُ من هذا المنطق الهزيل .

أمير المؤمنين (ع) يؤكد في أحد الروايات نفس هذا الموضوع .

« من كان همهُ بطنه فقيمتهُ ما يخرج منها » .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .

إذا أراد الإنسان أن يصبّ جلّ اهتمامهُ على بطنه ، فليسَ له أية قيمة إطلاقاً ، قيمتهُ ما يخرج من بطنه . حقاً إن الإنسان لجهول ، بمعنى أنه لم يعرف نفسه ، عالم اليوم لا يعرف الإنسان ، نحن لم نعرف أنفسنا لذلك ننسج كدودة القز حول أنفسنا حتى نكاد نختنق ، ليل نهار من أجل البطن ، من أجل حب الدنيا ، والرئاسة ، لا نمضي فقط بل نذنب أيضاً من أجل ذلك .

يُعتبر هذا الشخص كدودةٍ تتخبط في المزبلة كما تؤكد ذلك الروايات . هذهِ هي قيمة الإنسان الذي يفكر في بطنه ويَهتم الجانب المادي ، الإنسان الذي لا يعلم إلى أي مدى يمكنه أن يصل ، الذي لا يعلم أنه قد يصل إلى مرحلةٍ يقول له جبرائيل : أنا خادمك ، الإنسان الذي يستطيع أن يصل إلى القرب الإلّهي ، يهوي إلى القعر بسبب حب الدنيا والذنوب . نقرأ في الروايات : إن البعض في يوم القيامة لديهم منازل وغرف من اللؤلؤ ، لا أعلم ماذا تعني ؟ ثم يقول : « **فأنظر إليهن سبعين مرة وأكلمهم ، من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت** » .

إني أتكلم ومن ضمن كلامي أقول : دع أهلَ الجنة مع أطعمة الجنة وحور العين ، ولكن ليكن طعامكم كلامي ولذّتكم التّحدث معي . هذهِ الأمور تحتاج إلى ذوق أرقى لذة للعاشق هي أن يختلي بالمعشوق ، هذهِ ذروة اللذة . لا يمكنه أن يتذوق لذة أخرى . الأكل والشرب لا قيمة لهما بالنسبة له والأرقىٰ من ذلك حديث العاشق مع المعشوق ، والأرقىٰ من ذلك أن يتحدث المعشوق إلى العاشق ، هذهِ اللذة التي يحظىٰ بها العاشق من المعشوق لذة معنوية ، بمعنى أنه مستعد أن يتخلىٰ عن اللذة المادية ، وما هو حيواني ، وكذلك كل ما في الدنيا ، من أجل أن يقول لمعشوقه : أحبك .

هذا ما يقوله القرآن : ﴿ **يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعي** ﴾[1] . يا من تمكنت من أن تسيطر على نفسك وجانبك الحيواني ، يا من وجدت جانبك الناسوتي وضالتك ونفسك المطمئنة ، تعال ، تعال ، إلى أين ؟ ﴿ **ارجعي إلى ربك** ﴾[2] تعال، تعال ، تعال نحوي . لا يقول : نحو الجنة ، لأن الجنة

---

(١) سورة الفجر ، الآيتان : ٢٧ و ٢٨ (٢) سورة الفجر آية : ٢٨

لا تساوي شيئاً للإنسان ، الإنسان خُلِقَ للذهاب إلى الجنة ، خُلق ليتخلى عن الدنيا والجنة من أجل معشوقه : ﴿ إرجعي إلى ربّـكِ راضيةً مـرضيةً ﴾[1] . المعشوق الحقيقي يقول : أيها العبد ، أنا راضٍ عنك ، أحبك ، أنا راضٍ عنك .

هذا الإنسان من وجهة نظر القرآن الكريم إنسان راقٍ جداً .

ولكن لو حدث العكس ، بمعنى أنه انجرف نحو السقوط وتم تركيب بعدهُ المعنوي حيث تغلب البعد الناسوتي ، حينها يهيمن البعد الحيـواني ويمتطي الروح ، مثل معاوية الذي امتطى عقله . العقل يعمل لحسابه ، والروح تعمل لحسابه ، إنه يتحرك أيضاً ولكن أيّةُ حركة ؟ حركة نزولية ، لا يمكن للإنسان أن لا يتحرك ولا يتكامل ، ولكن أي تكامل ؟ هنالك حرب دائمة تدور رحاها بين الروح والجسم ، ذلك هو الجهاد الأكبر . الإنسان في حـركة مستمـرة ، تارةً حـركة صعـودية يصـل فيها إلى الله : ﴿ إرجعي إلى ربـك ﴾ وأخرى حـركة نـزولية ، القـرآن يقول إن الإنسـان في الحالـة الأخيـرة يصبـح أرذل من أي ميكروب :

﴿ إن شرّ الدوابِّ عندَ اللّهِ الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون ﴾[2] .

أرذل من أي ميكروب . ما مدى الضرر الذي يلحقه ميكروب السرطان بـالمجتمع والفـرد ؟ يصبح أدنى من ميكـروب الجذام : القـرآن يقـول : إن الإنسان الذي ليس له عقل أو فكر وقد مات الجانب المعنوي فيه وقُضي عليه ، فإن مضارّه لنفسهِ وللمجتمع أكثر من ميكروب السرطان .

أيهما يلحق ضرراً أكبر بالعراق ميكروب الكوليرا أم صدام ؟ إذا هيمنت إحدى الغرائز على الإنسان ، فهذا هو الإنسان لا شيء يسدّ نهمه ، وإذا تورّط في الجريمة يصل إلى ما وصل إليه الحجاج بن يوسف الثقفي عندما حان وقت الغداء يأتي بأحد شيعة علي (ع) ويقطع رأسه ثم يتركه ينازع المـوت ويرفس

---

(١) سورة الفجر ، آية : ٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

برجليه . كان يتلذذ برؤية هذا المنظر البشع ، كان يؤكدُ ما مضمونه : إني أستلذ حين أقتل أحد شيعة علي . شخصٌ كهذا لديه حركة ، ولكن إلى أين ؟ القرآن يقول : إلى جهنم .

هناك رواية عن النبي الأكرم (ص) مفادها : أن النبي (ص) كان جالساً مع جبرائيل فسمعا صوتاً مدوياً ، هذا الصوت يسمعهُ جبرائيل والنبي . فسأل النبي (ص) : ما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت صخرة ألقيت منذ سبعين سنة في أحد آبار جهنم ووصلت توّاً إلى قعر البئر .

لقد فسّر لنا أستاذنا الكبير قائد الثورة العظيم (قدس سره) في بحثهِ الأخلاقي هذهِ الرواية ، إذ قال : معنى ذلك أن الذي يأتي إلى هذهِ الدنيا ، وبدلاً من أن ينتهج حركة صعودية ، ينتهج طريق جهنم ويتقدم ، وبدلاً من أن يقوّي يوماً بعد يوم علاقته مع الله يقوم بتوثيق علاقتهُ مع الشيطان ، وبدل أن يقوّي الروح ، تتقوّى رغباته وغرائزه ، فاعلموا أن أيّاً من هذهِ الرغبات التي تقدمتم بها تستشري يوماً بعد يوم ، وشخصاً كهذا قد انتهج طريق جهنم ، وهو ميتٌ الآن وبعد مرور سبعين سنة وصل إلى قعر جهنم .

هنالك حديث شائع يقول : إن أحداً وقع من الأعلى إلى الأسفل ، فرأوه في المنام ، وسألوه كيف حالك يا سيد ؟ قال : يكفي أن أقول إن كل ما يقوله الروحانيون حول مجيء النكير والمنكر ، في ليلة القبر الأولى كذب في كذب ، فأنا عندما سقطت من الأعلى ، وقعت في وسط جهنم مباشرة ، لقد كان صادقاً في كلامه ، لأنه لا منكر ولا نكير لهؤلاء ، ويذهبون إلى وسط جهنم مباشرة . الرواية تعني نفس الشيء ، لقد فسّرها قائد الثورة العظيم تفسيراً حسناً .

حركته النزولية إلى وسط جهنم ﴿ إليه الرجعىٰ ﴾ ذلك يسير باتجاه الله ، وهذا يتجه نحو جهنم ، ذلك يصل إلى الجنة والآخر إلى جهنم ، أما الفرق فهو أنَّ : الذي يصل إلى جهنم ستكون حركته حركة ختامية وكمالُهُ سيكون الاحتراق ، ولكن ذلك الذي كانت حركته السير في ذات الباري عزّ وجلّ فإن لذتهُ لذة العاشق من المعشوق ، لذة العبد من المولى ، ولا يصل إلى نهاية لذلك أدعوكم إلى معرفة النفس .

أمير المؤمنين يقول : « **كفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره** »(١) ونحن لا نعرف أنفسنا .

الراوي يقول : كنت في خدمة أمير المؤمنين (ع) عندما كان يحفر قناتاً وسط النخيل . فخرج من القناة ظهراً ، وصلى صلاة الظهر والعصر ، ثم قال : هل هنالك طعام للأكل ؟ قلت : لدينا قرع مطبوخ . قال : هاتِهِ . يقول : جئت بقدرٍ من القرع المطبوخ لعلي (ع) فغسل يديه الكريمة من ماء كان يخرج من بين الرمل وبدأ بالأكل ، كان يناجي نفسه وأحياناً يقول : لعنه الله على من دخل جهنم بسبب البطن . حقاً لتكن لعنة الله على شخصٍ كهذا ، وكذلك لعنة الله على كل من يستغيب الناس حسداً وطلباً للجاه ويمارس القذف والنميمة ، ويصبح جهنمياً ، ولعنة الله على من يذهب إلى جهنم بسبب البطن . ثم يقول : تناول طعام الغداء ثم ذهب إلى القناة وقام بالحفر بالمعول فأصاب بمعولهِ صخرةً ففار الماء بحيث غمر الماء العكر محاسن أمير المؤمنين (ع) ولم يستطع الاستمرار في العمل . فخرج من القناة أمّا الأطفال والأقارب فجاءوا لرؤية علي (ع) ليشاهدوا الماء الوفير ويبدو أنهم فرحوا بذلك كثيراً .

وفي الوقت الذي لم يكن علي (ع) قد خرج بعد من القناة ، كانت إحدى قدميه على حافة القناة ، والقدم الأخرى على الحافة الأخرى ، قال : أعطوني قلماً ودواةً . لقد كان عمله طيلة السنوات الخامسة والعشرين إنه أوقف أربعاً وعشرين نبعاً وقناةً ومزرعة للفقراء والضعفاء والمساكين . يقول في تلك القناة ، كتب كتاب الوقف ، ثم قال : يا أولادي ، ويا أقربائي ، لا تطمعوا في هذهِ القناة ، إنها ملك للفقراء والمساكين . ماذا تقول لنا هذهِ الجملة ؟ عليٌّ إنسان ، لم تكن لذته مرتبطةً بوجود القرع المطبوخ أو فقدانه فهي لذة حيوانية .

لذةُ مولانا أمير المؤمنين (ع) هي أن يتمكن من حفر قناة ويعثر على ماء ليزرع النخيل للفقراء والمعوزين . إن هذهِ هي لذة علي (ع) ، وهذهِ هي الإنسانية . الإنسان هو الذي تكون لذته معنوية أن يستلذ بالعثور على العلم وطلب العلم ، والبحث عن الحقيقة والإيثار والتضحية ، أن يسعد لسعادة رفيقه

(١) نهج البلاغة ، طبع مصر ، المجلد (١) ، ص ٥٦ .

ويحزن لحزنه ، هذا الشخص يُسمىٰ إنساناً . قد يكون لدينا ما يربو على خمسين رواية عن الإمام (ع) يقول فيها : أَحِب ما تحب لنفسك وما لا ترغب فيه لا تُرغبهُ للآخرين وإلا فلست بمسلم .

أيها السادة الكرام ، وأيتها الأخوات الفاضلات لو اقتديتم من الآن بهذهِ الرواية ، فستصلح جميع الأمور . هل تحبّذون أن يستغيبكم أحد ؟ كلا . إذن لا تستغيبوا مسلماً . أنتم الذين لا ترغبون أن ينظر أحد نظرة شهوانية إلى أعراضكم ، فلا تنظروا بها لأعراض الآخرين . أنتم الذين لا تريدون أن يقذفكم أحد ويريق ماء وجهكم ، فإذا كنتم حقاً مسلمين فلا تقذفوا أحداً . أنتم تريدون أن ينجدكم أحد عند الحاجة ؟ نعم . إذن يجب أن تفكروا بالمعوزين . أتريد أن يحترمك الناس ، وأن لا يهاجمونك ؟ إذن عليك دائماً أن تحترم شخصية الآخرين . هذا هو المسلم . تعالوا نقتدي بهذهِ الرواية منذ الآن وخلاصة البحث هي : أنا إنسان ، لدي جانب ملكوتي ، أصل به إلى أي مكان أريده ، أستطيع أن أصل إلى مرحلة أرفض الدنيا وزخارفها حين أواجه الذنوب ، إذن من الأحرىٰ أن يعمر بُعدي الملكوتي . هنالك حرب بلا هوادة بين البعد الملكوتي والمادي ، كل واحد يريد أن يصرع الآخر . تعالوا نترك الذنوب في حياتنا . لتكن هذهِ الرواية قدوتكم في الحياة ، لكي تكونوا منتصرين دائماً في هذهِ المنازلة التي سماها النبي الأكرم (ص) : « الجهاد الأكبر » . إن لم نكن هكذا ، فالذنوب أحسن غذاء وقوة للبعد المادي .

الذنب يمكنه أن يزيل إنسانية الإنسان ، إذن الذنب يجعل الإنسان أرذل من أي حيوان ، يغطي العقل ويحجب القلب والوجدان الأخلاقي ، وأخيراً فإن الذنب يولد الفظاظة للإنسان ويقتل الوجدان الأخلاقي ويصل إلى مدى يقول القرآن عنه : ﴿ **أولئكَ كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ** ﴾[1] أولئك ليسوا بشراً ، إنهم حيوانات بل أدنى من الحيوان . البحث لم يكتمل بعد ، أرجو أن :

١ ـ تتمعنوا في هذا الكلام ، إذا كان لديكم انتقاد أو أي شيء آخر فستتحدث حوله لاحقاً إن شاء الله لذلك راجعوا أنفسكم في كل ما تحدثنا عنه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

٢ ـ إذا تقرّر أن تشاركوا في الجلسات عليكم بنظم أموركم لأنكم أنتم العاملون في مجال التربية والتعليم يجب أن تجسّدوا النظام أمام الآخرين .

البحث الرابع

الإنسان الملكوتي

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي** ﴾ .

إتماماً للحديث السابق الذي قلت فيه أن الإنسان مركبٌ من الروح والجسم . وبعبارة أخرى الإنسان له بعدان : بعد ملكوتي ومعنوي يسمىٰ الروح وجانب ناسوتي ، وبهيمي يسمىٰ الجسم والذي يسمّونه أيضاً الرغبات والغرائز ، كما أننا نسمي ذلك البعد المعنوي علاوة على اسم الروح نسميه العقل . وقد سمي أيضاً في القرآن الكريم القلب والصدر ، وجميع هذهِ التسميات تشير إلى ذلك البعد المعنوي للإنسان .

الأمر الذي يجب أن أنوّه لهُ وننتبه إليه هو الحرب التي تدور بلا هوادة في داخلنا ، هذهِ الحرب سماها النبي الأكرم (ص) : « الجهاد الأكبر » .

لدينا روايات كثيرة ، تقول بأن هذهِ الجبهة أصعب الجبهات ، وهذهِ الحرب أهم الحروب ، والشجاع من استطاع أنّ يحفظ توازنه فيها .

الروايات حول هذا الأمر مختلفة ، على سبيل المثال رواية تقول : إن شاباً كان قد عاد توّاً من جبهة الحرب . لم يكن قد ذهب إلى بيته وكان غبار الجبهة على وجهه . فمرّ من جانب النبي (ص) وهو يمتشق سيفه المُدمّىٰ . قال النبي (ص) : يا شاب بارك الله فيك وفي جهادك في سبيل الله ، ولكن « **عليك بالجهاد الأكبر** » فقال : يا رسول الله وأي جهادٍ أكبر من هذا الجهاد ؟ (إنه عائد

من جبهة الحرب) ، قال : الجهاد الأكبر ، جهاد النفس الأمارة . جهاد الروح مع الجسد ، جهاد البعد المعنوي ضد البعد البهيمي ، ولدينا رواية أيضاً أن شباباً كانوا يتبارون في القوة وكانت هناك صخرةً كبيرةً أرادوا رفعها ، فوصل النبي الأكرم (ص) وشجعهم ، قائلاً : بارك الله فيكم ، إنها مباراة ورياضة ، ولكن « **أشجع الناس من غلب هواه** »[1] ليس الشجاع مَنْ تمكن مِن رفع صخرة حتى نقول إنه أشجع من الآخرين . أجل ، نسميهِ شجاعاً ، ولكن الأشجع من الجميع ، من تغلب على هواه وشهواتهِ وبُعدهِ البهيمي .

المهم هناك قضايا كثيرة في الإسلام مشابهة للقضيتين اللتين ذكرتهما وشعار الإسلام هو : « **أشجع الناس من غلب هواه** »[2] إذا تغلب البعد المعنوي لدى شخص ما على بعده المادي في ساحة الحرب ، هذا أشجع الناس وهذا ما يصعب تحقيقه .

التذكير المفيد لكم ، يا أعزائي هو أن هذهِ الحرب دائمية ، أحياناً يكون الجسم هو الغالب والبعد المعنوي مغلوب فيها ذنبٌ يطغىٰ على البعد المعنوي ويشلّ تحركه ، لأن البعد المعنوي يصبح مقهوراً بسبب الذنب . أحياناً يحصل العكس ، يدوس المرء على الذنب ونفسهِ الأمارة ، فيجتنب الذنب ويتغلب البعد المعنوي ، ويصرع البعد المادي ويتغلب عليه . الأمر الجدير بالعناية أنه إذا خرج بعدنا المعنوي من ساحة الحرب ، فنحن مرفوعي الرأس ، كشابٍ تقدم من جبهة الحرب وأحرز نصراً ، ولكن لو حدث العكس ، بمعنى أن يخرج البعد المادي منتصراً فإن الإنسان يطرق برأسهِ خجلاً كمن قد شارك في حرب وخرج منهزماً منها . لكن هنا يختلف الأمر ، بمعنى أنه عندما يأتي الذنب ونتغلب نحن على النفس الأمارة ونصرع البعد الحيواني أرضاً ، فإننا صرعنا أنفسنا ، لأننا نتكوّن من جسمٍ وروح . من هنا علينا أن ندرك أن حقيقة الإنسان تكمنُ في بعدهِ المعنوي وليس المادي إنسانية الإنسان تتحقق بروحهِ ووجدانه الأخلاقي وعقله . الإنسان الذي ليس له عقل أو فكر ، الإنسان الذي ليس لديه وجدان أخلاقي ، وأطفأ ومضات وجدانه ، ليس إنساناً أساساً ، ومن وجهة

---

(١) و (٢) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٦٨٩ .

القرآن أيضاً لا يعتبر إنساناً . القرآن يقول :

﴿ **إنَّ شرَّ الدوابِّ عندَ اللهِ الصمُّ البكمُ الذينَ لا يعقلونَ** ﴾[1] .

بمعنىً أن عاقبة بعض الناس تؤول إلى جهنم ، كأنهم اتخذوا طريق جهنم ويتقدمون باتجاهه . لماذا ؟ إن هؤلاء لديهم قلب بمعنى لديهم البعد المعنوي ولكنه مقهور ، أبادوه ، ولم يعودوا يفهمون ، لديهم عين المعنوية والبصيرة ، ولكنهم فقأوا عين البصيرة بواسطة الذنوب ، بمعنى أن البعد المعنوي هُزم في الجهاد الأكبر ، لم يعد لديه إذن يسمع بها أو عين البصيرة يعقلُ بها . يقول : ﴿ **أولئك كالأنعام** ﴾ لم يعد إنساناً ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾ لذلك من الواجب أن تكون هذهِ النقطة حاضرة في أفكاركم ومن هنا تتضح أحد أدلّة الوجود والتجرد ، إلى الآن وصلنا إلى هذهِ النقطة بأن الإنسان يتكون من البعد المعنوي والملكوتي ، والبعد البهيمي والناسوتي ، بمعنى أن لديه جانب حيواني يسمىٰ بالرغبات والغرائز ، وجانب معنوي يسمىٰ العقل والروح وهذان الجانبان في نزاع مستمر ، وإذا تغلب جانبنا المعنوي والروحي ، فنحن مرفوعي الرأس ، مع أننا لم نصرع أحداً ، بل صرعنا أنفسنا ، ولكننا مرفوعي الرأس ، وإذا حصل العكس ، بمعنى إذا صرع الجانب المادي الجانب المعنوي ، فنحن سنكون مطأطيء الرأس ، خجلين مع أن أحداً لم يهزمنا بل نحن الذين هزمنا ذلك الجانب . إذن إنسانيتنا في بعدنا الملكوتي .

الإنسان هو المسؤولُ عن تكوين وجدانٍ أخلاقي ، وتسامح وحبٍّ للآخرين وتفانٍ من أجلهم . إذا سمع استغاثة مظلوم ، يحزن ويبكي ، ويأرق ، وكما تقول الروايات : الإنسان هو من يفرح إذا أعان مسكيناً ، وأن يكون بنيان حياتهِ قائماً على حب الآخرين وليس حب الذات ورحم الله الشاعر سعدي حين يقول :

جسم الإنسان شريف بروحهِ الإنسانية

ليس هذا الثوب الجميل علامة الإنسانية

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢

إذا كان الإنسان إنساناً بعينه ولسانهِ وأذنه وأنفهِ

فما الفرق بين الرسم على الحائط وبين الإنسانية

ليت سعدي أخذ ذلك المعنىٰ من القرآن وقال : ما الفرق بين الإنسان والبهائم ؟ .

هكذا يقول القرآن ، إذا لم يكن للإنسان بُعدٌ ملكوتي ، إذا لم يكن للإنسان أخلاق إنسانية ، وإذا لم يهتم بواجباتهِ ، ولم يأبه لارتكاب المعاصي ، فما الفرق بينه وبين البهيمة ؟ القوا مقداراً من الكلأ أمام حمارين ، من المعلوم أن الحمار الأقوى سوف يتغلب ، ويأكل الكلأ ، هذا يسمونه قاعدة هيمنة القوي على الضعيف . إذا أصبح الإنسان هكذا : (دنيانا اليوم هكذا ، بمعنى أن قاعدة هيمنة القوي على الضعيف سائدة حالياً) . فما الفرق بين الحمار والإنسان ؟ .

عندما تقومون بعمل يرتضيه الله ويرتضيه العقل ، تشعرون بالفخر والاعتزاز ، وعندما تَقومُونَ بعمل لا يرتضيه الله والعقل ، تشعرون بأنكم مطأطيء الرأس ، من هنا ندرك أن إنسانية الإنسان بعقلهِ وروحه وجانبهِ الملكوتي إذا كنا بشراً ، علينا دائماً بتقويةِ جانبنا الملكوتي .

إذا أردنا أن نكون بشراً ماذا يجب أن نفعل ؟ .

هذا هو عنوانُ الإثارة التي سنبحثها . ماذا يجب أن نفعل ، لكي نحقق النصر في المعركة بين الحق والباطل ، في المعركة بين الجانب الناسوتي والجانب المعنوي في هذا الجهاد الذي قلنا : إن النبي (ص) أسماهُ الجهاد الأكبر ؟ القوةُ يجب أن تأتي دائماً من الخارج ، إذا لم تأتِ القوة من الخارج فنحن مهزومون والسبب واضح ، لأن الجانب المادي يكون عاصفاً دائماً كما أن جيشه لا يعد ولا يحصى كغريزة حب المال ، وغريزة حب الحياة ، وغريزة حب الأولاد ، غرائز الصفات الدنيئة ، كالحقد والحسد ، وكذلك قانون الوراثة ، وقانون البيئة ، وقانون التغذية . كل هذهِ في جانب ، والجانب المعنوي فقط في الطرف الآخر ، وإذا أردتُ أن أضرب مثلاً ، فإن الحرب في داخلنا تشبه الحرب الراهنة في الخارج .

إنكم ضعفاء جداً من حيث العدة والعدد ، فكيف تنتصرون ؟ هذا هو بحثنا ماذا يجب أن نفعل ؟ لنفترض أن الجانب المادي والجانب البهيمي فينا قوي جداً من الناحية التسليحية وأن الجانب الملكوتي فينا ضعيف جداً ، ماذا يجب أن نفعل لتقويتِهِ ؟ طبعاً قوة الخارج ضرورية ، فما هي هذهِ القوة ؟ .

١ ـ الاهتمام بالواجبات :

أن يهتم الإنسان بالواجبات ، القرآن الكريم يقول :

﴿ واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وأنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ﴾[١] .

بمعنىٰ أن تستعينوا بالله في معركة الحق ضد الباطل ، معركة الروح ضد الجسم ، هو يجب أن يُعينكم ، بأي شيء ؟ الصلاة **﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾** إذا اهتم الشخص بواجباته ، عندما يحين موعد أداء الواجب يحدث صراع في داخله إلى أن يقوم بأداء ذلك الواجب ، هذا الصراع والقدرة الناجمة عنه تساعد المرء على تأدية واجباته .

القوة الخارجية تساعد ذلك البعد المعنوي ، ويمكن بواسطتها أن تتغلب القوةُ على الجسم ، بمعنىٰ عندما تحدث زوبعة تستطيع القوة الخارجية أن تقف في وجهها ، وأن تسيطر عليها وتروضها ، لذلك فقد أثبتت التجارب كما أكّدت الآيات القرآنية ، وروايات أهل البيت ، إننا إذا أردنا أن نصبح بشراً ، وإذا أردنا أن ننتصر في هذهِ المعركة التي قال عنها الرسول (ص) : « إنها أعظم المعارك » ، علينا الاهتمام بالواجبات وبالصلاة خاصةً ، أنا لا أعلم ما هذهِ الصلاة ؟ . كم هي قوة جبارة ، وكم هي مفيدة للإنسان بحيث تم التأكيد عليها إلى هذا الحد لذلك ينبغي عليكم أن تؤكدوا على قيمةِ الصلاة لشبابِكُمْ .

فخر الرازي مُفسر ، وعالم سني ، عنده كتاب في التفسير ، وهو تفسير جيد ينقل جمله على هامش سورة : **﴿ والعصرِ ، إنَّ الإنسانَ لفي خسرٍ ﴾**[٢] . روايةً تبيّن الخلاف الموجود بين المفسرين حول معنى والعصر (حول تفسير

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

(٢) سورة العصر ، الآيتان : ١ و ٢

والعصر) كل واحد تحدث بشيء ، الاحتمالات كثيرة ، وليس ذلك ما أريد أن أبحثه الآن .

أستاذي الجليل ، قائد الثورة العظيم قال : والعصر تعني قسماً بحضرة بقية الله (عج) وكان يقول : العصر بمعنى العصارة ، وبما أن إمام الزمان عصارة الخلق ، لذلك فقد أقسم الباري عزّ وجلّ بهِ .

حسناً ، هذهِ فتوى رقيقة لمن يملك رقّةً بالغة ، ولكن هنالك معانٍ أخرى من ضمنها ، قيل : إن المقصود بالعصر هو صلاة العصر : « والعصر » تعني قسماً بصلاة العصر ، فخر الرازي يحبّذ المعنى الأخير ، ولكي يثبت ادعاءه يروي رواية والرواية كما يلي : يقول جاءت امرأة ، وهي تولول وتصيح عند النبي (ص) فقالت : يا رسول الله ، ليخرج أصحابُك ، لديّ عمل معك وحدك . خرج الصحابة ، وجلست تلك المرأة عند النبي (ص) ، قالت : يا رسول الله ، ارتكبت معصية ، معصيتي كبيرة جداً ، قال النبي (ص) : رحمة الله أوسع منها ، مهما كانت المعصية كبيرة يجب أن لا يقنط المرء . مهما كانت المعصية كبيرة ، وأمدها طويل ، فلو تاب المرء وجرىٰ صراع في داخله فستغفر ذنوبه . ليس في الإسلام طريق مسدودة .

قال النبي (ص) : ما هو ذنبك ؟ قلت : يا رسول الله ، كنت امرأة متزوجة فزنيت وحَملْتُ ، وجاء الطفل إلى الدنيا فخنقته ، في زير الخل ، ثم بعت الخلِ النجس للناس ، معصية كبيرة جداً جداً ! من الواضح أن النبي (ص) تألم كثيراً لدى سماعهِ أقوال هذهِ المرأة ، وأصدر حكمه في هذا الأمر، الذي أقصده هو أنهُ قال : يا سيدة ، أتريدين أن أقول لك : لماذا وقعتِ في هذهِ البئر ؟ بمعنى لماذا يقع المرء أحياناً في البئر بحيث لا يمكنه الخروج منها ، ولو تظافرت جهود العالمين جميعاً لإنقاذه لا يمكنهم ذلك . قال : أتريدين أن أقول لكِ لماذا وقعتِ في البئر ؟ أعتقد أنك لا تصلين ، ولذلك قطعت علاقتكِ مع الله ، ولأنكِ فقدتِ يد الرعاية الإلٓهية ، لذلك وقعتِ في بئر التهلكة ! « **إنني ظننت أنك تركت صلاة العصر** »[1] .

---

(١) تفسير فخر الرازي ، المجلد ٣٢ ، ص ٨٥ .

ماذا تقول لنا هذهِ الرواية ؟ هذهِ الرواية فيها جانب إيجابي وآخر سلبي .
الجانب السلبي يقول لنا : إذا لم تهتم امرأة أو لم يهتم رجل بالصلاة ، يقع في البئر ، ويصبح بائساً وقد يراق ماء وجهه الذي حصل عليه طيلة خمسين عاماً ، وماء وجه أسرته قد يراق نهائياً ، هذا الجانب السلبي ، الإنسان الذي لا يصلّي ، الإنسان الذي لا يهتم بالصلاة ـ تقول لنا الرواية ـ سيواجه متاعب جمّة . هذا في الدنيا ، ناهيك عن الآخرة . تلك الدار التي ليس فيها مفرٌّ للمذنبين .

أما الجانب الإيجابي وهذا هو بحثنا ، هذهِ الرواية تقول لنا : إذا اهتم المرء بالصلاة ، فإن الصلاة ستبعث قوة خارجية بعقلهِ وروحه ، وسينتصر البعد المعنوي ، ويمكنه أن يسقط البعد المادي أرضاً والقرآن يشيرُ إلى هذهِ الحقيقة : ﴿ **استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ استعينوا ، بأي شيء ؟ بمعنىٰ أن في داخلك حرب ، تحتاج إلى عساكر ، عليك أن ترسل العسكر والسلاح ، السلاح الخارجي هو الاهتمام بالواجبات خاصةً بالصلاة .

لا أعلم هل تمعّنتم في هذهِ السورة القصيرة ، ذات المعنى الكبير والبليغ ؟ سورة الماعون قصيرة جداً ولكنها بليغة وكبيرة المعنى :

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ، أرأيتَ الذي يكذّب بالدينِ ، فذلك الذي يدعُ اليتيمَ ، ولا يحضُ على طعامِ المسكينِ** ﴾(١) .

بمعنى ، يا أيها النبي هل تريد أن أريك مسلماً ليس بمسلم ، بمعنى هل تريد أن أريك من يتظاهر بالإسلام ؟ ثم يُرينا أربعة أوجهٍ مختلفةٍ :

١ ـ ذلك الشعب الذي يوجد بينه طفل يتيم ، ولا يأبه ذلك إذا كان في قبيلة أو مدينة أو شعب ، طفل يتيم ، ينبغي أن يصبح جميع الآباء أباً له ، وجميع الأمهات أمّا له ، لكي لا تظهر عليهِ عقدةُ اليتم . لا سامح الله أن تكبر عقدة في شخصٍ ما ، لقد درست معظم هذهِ المدارس الشاذة ، وأدركت أنها تكون من مدرسة الصهيونية عادةً وأن أفرادها معقدين ، مدرسة فرويد ، ونيتشه

(١) سورة الماعون ، الآيات : ١ ـ ٣ .

وماركس ، ودوركهايم وغيرها، لقد قمت بدراسات موسعة حولها ورأيت أنها تَنبعُ من الصهيونية ، هذا من الناحية الجماعية ، ومن الناحية الفردية ، فإن ماركس إنسان مُعقَّدٌ بكل معنى الكلمة ، من هُنا ينبغي على المسلمين أن يَدعوا الأطفال اليتامى ، ويدركوا حقيقة دورهم في المجتمع ، كما ينبغي على الآباء والأمهات أن يقوموا بالمسؤوليات الملقاة على عواتقهم تجاه هؤلاء الأيتام .

٢ ـ ﴿ **ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ بمعنى يا أيها النبي إن الذين يتظاهرون بالإسلام هم الذين لا يعتنون بالفقراء في حين أنهم يستطيعون العناية بالفقراء والمساكين ، هل هؤلاء مسلمون ؟ .

٣ ـ ثم يقول حول الفرقة الثالثة : ﴿ **فويل للمصلّين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[1] بمعنى يا أيها النبي هل تريد أن أريك شخصاً يتظاهر بالإسلام ، ويلٌ لهذا المتظاهر بالإسلام ، والذي يَسهُو عن الصلاة ، إنه يُصلّي ولكنه يتماهل ، بمعنى أنه لا يقيم الصلاة في وقتها .

سئل الإمام الصادق (ع) ما معنى السهو في الصلاة ؟ قال : معناها أن يُقدِّمَ المرءُ عملَ دنياهُ على عملِ آخرته . يتغدى أو يتعشى أولاً ثم يقيم الصلاة ، الصلاة ثقيلة بالنسبة له ، حيث يقول القرآن : ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[2] بمعنى أننا أحياناً نكون مستعدين للوقوف ساعة أو ساعتين نتحدث مع بعضنا البعض ولا نشعر بالتعب ، بل نشعر بالبهجة ولكننا عندما يحين وقت الصلاة نشعر بالتعب والإرهاق ولا نطيق الصلاة ، الصلاة التي لو أقمناها بصورة لائقة فإنها لا تتجاوز الربع ساعة نريد إتمامها في خلال خمسة دقائق لذلك نرى البعض يجلس من أول المساء إلى ساعة متأخرة ولا يشعر بشيء ، ولكن عندما يصل إلى الصلاة ، يتقاعس ! هذا واضح ، لأن في الصلاة جانبٌ معنوي ، وذلك البعد البهيمي يتربص بنا لكي ينسينا الصلاة ، إذ عندما يحين وقت الصلاة نتمنى أن تغدو الربع ساعة خمس دقائق ، لماذا نحن هكذا ؟ .

---

(١) سورة الماعون ، الآيتان : ٤ و ٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

القرآن يقول : لست بمسلم ، لست بمسلم وويلٌ لك ! .

٤ ـ ويقول للنبي (ص) مرة أخرى : ويلٌ للمتظاهر بالإسلام ، والإنسان المنافق ذو وجهين : ﴿ الذينَ هم يراؤون ويمنعونَ الماعون ﴾[١] الفئة الخامسة من المتظاهرين بالإسلام (ويلٌ للمتظاهر بالإسلام) ذلك الشخص الذي يستطيع أن يقضي حاجة الناس ، لكنه لا يقضيها ، إنه يستطيع قضاء حاجة أحد الناس بقلمهِ أو بقدمهِ ، ولكنه يتغاضىٰ عن ذلك ، جارهُ يريد منه حاجةً يستطيع إعطاءها لهُ ولكنه لا يفعل .

الإسلام يقول : هذا ليس مسلم ، كلا ، ليس مسلم . وويل لهذا الشخص . إنها سورة بليغة حقاً ، مع أنها تبعث على الألم ولكنها قدوة وهي مفيدة لبحثنا أيضاً .

لدينا آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، ولكننا نكتفي بهذا القدر . رواية أخرى أقصّها عليكم وأختم بها بحثي :

جاء رجل عند الإمام الصادق (ع) واستخاره في أمرٍ ، فكانت الاستخارة سيئة . فلم يأخذ بالاستخارة ، وذهب للتجارة وقضىٰ أوقاتاً طيبة وبالإضافة إلى ذلك حصل على أرباح كبيرة ، فتعجّب كثيراً ، لقد استخرت عند الإمام ، وكانت الاستخارة سيئة ، وقضيت أوقات طيبة في السفر ، وحصلت على ربحٍ وفير ، فما معنىٰ هذا ؟ .

جاء عند الإمام الصادق (ع) وقال : يا ابن رسول الله ، هل تَتذكّرْ عندما جئت عندكمِ قبل فترة ، واستخرت ، وكانت سيئة ، كانت تلك الاستخارة للسفر ، وذهبت للتجارة ، وكانت سفرة مربحة قضيت خلالها أوقات طيبة .

فابتسم الإمام الصادق (ع) وقال : هل تتذكر في ذلك البيت كنت متعباً . فأقمت صلاة المغرب والعشاء ، وتعشيت ونمت . ثم نهضت من النوم في وقتٍ كانت الشمس قد أشرقت وأصبحت صلاتك قضاء ؟ (طبعاً لم يكن مذنباً لأنه لم يشأ أن تصبح صلاته قضاء ، ثم إنه صلىٰ قضاء) قال : هل تتذكر ؟ قال :

---

(١) سورة الماعون ، الأيتان : ٦ و ٧ .

بلى يا ابنَ رسول الله ، قال : لو كان الله قد أعطاك الدنيا وما فيها ما كنت لتعوض تلك الخسارة . لقد فقدت أشياء كثيرة ، إنك لا تعلم ماذا يجري . ما هي الصلاة ؟ إنها تصنع الإنسان ، كما تحتاج خلايا الجسم للغذاء وإذا لم تحصل على الغذاء تضعف ثم تموت ، وقد يكون الشخص شاباً ويستفيد من طاقتهِ الشابة ، ولكن الخسارة بالنسبة للجسم قائمة . عندما يحتاج جسمكم أي الجانب الناسوتي والبهيمي للغذاء ، وروحكم أيضاً تحتاج للغذاء ، فما هو غذاء روحكم ؟ الصلاة غذاء الروح . صلاة الفجر تحل مكان الفطور وصلاة الظهر تحل محل الغذاء ، وصلاة المغرب والعشاء تحل محل وجبة العشاء ، والصلاة في منتصف الليل في محل الفاكهة التي تتناولونها .

كلما أردنا أن نقوّي الروح ، بمعنى أن نسمو بإنسانيتنا ، علينا أن نهتم بجميع الواجبات وبالأخص الصلاة . لقد وُصّي بها كثيراً حتى أن بعض الروايات تذكر أن النبي قبل وفاته كان يكرر هذهِ الجملة ، ثم قضىٰ نحبه ، كان يكرر قول :

« **أمتي الصلاة وما ملكت أيمانكم** » بمعنى عليكم الاهتمام بشيئين :
الأول : الصلاة ثم ما ملكت أيمانكم هنالك رواية عن الإمام الصادق (ع) أنه جمع أهلَهُ ساعة الوفاة ، فظن أهلهُ أن لديه وصيةً جديدةً . قال جملة ، ثم فارق الحياة ، الجملة الأخيرة التي قالها الإمام الصادق (ع) : « **لا ينال شفاعتنا من استخفَ بالصلاة** »[1] .

أعزائي تعلمون أن الجميع يجب أن يذهبوا إلى الجنة بشفاعة أهل البيت ، حتى الأنبياء .

إذا لم تكن شفاعة أهل البيت (من الناحية العلمية أيضاً) فليس هنالك مكان في الجنة ، وهذهِ الرواية تقول إذا استخف أحدُ بالصلاة لا ينال شفاعتنا .

أرجو أن تكون هذهِ الإثارة مفيدة لي ولكم وأن تأخذوا بمفاهيمها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، بالأخص أن تطبقوا البحث الأخير للشباب

---

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ١٣٣ .

وللأطفال ، وأن تُحدِّثُوا الأطفـال كثيراً حـول الصلاة لأنكم تعلمـون أن دماغ الطفل يشبه كاميرة التصوير ، جملة واحدة من الممكن أن تؤثر على دماغه ، وأن يصبح مقيماً للصلاة طوال عمره فإن ذلك مفيد جداً بالنسبة لكم ، في كل صلاة يقيمها يكتب الله في ورقة أعمالكم ثواباً . اهتموا بهؤلاء الأطفال ما استطعتم فهؤلاء أمانة وعليكم حفظ الأمانة .

إلٓهي نقسم عليك بعزتك وجلالك ، أن تمنحنا جميعاً الصفات الإنسانية والشجاعة المعنوية والـروحانيـة والبصيرة والتـوفيق لعبادتـك وعبوديتـك وترك المعاصي والتوفيق للاهتمام بالصلاة .

إلٓهي نقسم عليـك بعزتك وجلالك أن تحفظ هذهِ الثورة ، وقائدها العظيم وحدود إيران في كنف إمام الزمان (عج) وصلّى الله على محمد وآلِ محمد .

البحث الخامس

النفس الأمارة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

إلحاقاً بموضوع السابق فقد بَيّنتُ أن في داخلنا حرباً تسمىٰ حرب الرواية الإسلامية الجهاد الأكبر ، بمعنى أن الجانب المعنوي لروحنا في صراع مستمر مع الجانب البهيمي وكما قال النبي (ص) : « **أعدىً عدوك نَفسُكَ التي بين جَنبيك** »(١) .

أي ليس لدينا أعدىٰ من النفس الأمارة .

المقصود بالنفس الأمارة هو البعد الحيواني للإنسان ، والذي يُسمّى أيضاً الرغبات والغرائز . الفلاسفة يسمونه الجسم ، والعرفاء يسمونه البعد البهيمي والناسوتي . هذا الصراع مستمر دائماً ، إذا استطاع الشخص أن ينتصر في هذا الصراع ، وأن يأسر العدو ، ويروّضه ويهذبه حينذاك بإمكانه أن يصل إلى أي مكان يشاء وسعادة الدنيا والآخرة مرهونة بمقدرته على ترويض غرائزه .

طبعاً يجب إشباع الغرائز ، لا يمكن قتل النفس ، قتل النفس والرهبنة والعزلة وما شابه حرامٌ في الإسلام ، بل ينبغي الاستفادة منها (كالحصان الجامح ، ينبغي لجمه وامتطاؤه . وهذا هو معنى الانتصار ، أي السيطرة على النفس الأمّارة والرغبات والغرائز) . وإذا حدث العكس ، بمعنى أن يُهزمَ في

---

(١) نهج الفصاحة ، ص ٦٦

هذهِ الحرب وتتغلب إحدى رغباتنا على بعدنـا المعنوي سيكـون شقاء الـدنيا والآخرة من نصيبنا ، وإذا تغلبت إحدى الغرائز علينا ، وأسرت عقلنا وسيطرت عليه ، فإن عقلنا شئنا أم أبينا ، سيتبع الجانب البهيمي فينا ، وإذا حدث ذلك وكما يقول القرآن الكريم سيكون الإنسان خطراً فتاكاً على نفسه ومجتمعه :

﴿ إنّ شرّ الدوابّ عندَ اللّهِ الصمُّ البكمُ الذينَ لا يعقلونَ ﴾[1] .

إذا أخذنا الجانب العام للآية الشريفة سيكون معناها كالآتي :

الإنسان أخطر من الميكروب للمجتمع ، وأخطر من السرطان عندما يُهزم عقله أو بعده المعنوي وتتغلب إحدى الغرائز أو البعد البهيمي . القرآن يقول : هذا الشخص أقذر من ميكروب السرطان بالنسبة لنفسهِ وأقـذر من ميكروب الجرب ، بالنسبة لمجتمعهِ .

كما أنكم ترون الأشخاص الذين يسودهم حب الجاه والذين ترسّخت في أنفسهم إحدى الصفات الدنيئة ، أولئك الذين تمكّن منهم حب المال ، وسيطر عليهم ، إلى أي مدى يصلون وأي جرائم يرتكبون وعَلاوة على كل ذلك يسمّيهم القرآن عبدة الأصنام :

﴿ أفرأيتَ منْ اتخذ إلّههُ هواهُ وأضلهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[2] .

القرآن يقول : إذا سيطرت الشهوات على الإنسان وتغلب البعد البهيمي عليه فسيصبح وثنياً .

الـوثن يكون أحيـاناً صخـرة أو خرافـة يعبدهـا الإنسان، وأحيـاناً مـاله يعبده ، وأحياناً امرأة يعبدها ، وأحياناً الشهوات . والقرآن يعتبرها أوثاناً كما نقرأ في سورة يسٓ :

﴿ ألمْ أعهـدْ إليكم يـا بني آدم أن لا تعبـدوا الشيـطانَ إنـهُ لكمْ عـدوٌّ مبينٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٦ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

(٣) سورة يسٓ ، الآية : ٦٠ .

بمعنى ألم أعهد إليكم من الأزل أن لا تعبد الأوثان والشيطان ؟ إن معنى عبادة الشيطان من وجهة نظر القرآن هو أن يتّبع الإنسان الشيطان ، بمعنى أن يتغلب ذلك البعد البهيمي على البعد المعنوي لذلك علينا دائماً أن لا نكون من عبدة الأوثان والخرافات وبالخصوص أنتم (المعلّمون) الذين تُعتَبرُون من الخواص. ومن وجهة نظر الإسلام لديكم ملف خاص . ليس لكم ملف مشترك مع عوام الناس كلا ، لديكم ملف خاص ، وبما أن ملفكم يختلف عن باقي الملفّات ، إذن عليكم دائماً أن تنتبهوا ، لكي لا تهزموا في هذهِ المعركة ، وفي هذا الجهاد الأكبر ، واعلموا أنكم لو هُزمتم ، علاوة على أن القرآن يسميكم عبدة الأوثان فسيلحق ضرر كبير بمجتمعكم وبأنفسكم .

البحث الذي يطرح نفسه هو : ماذا نفعل لكي نكون منتصرين دائماً • الإنسان لا يمكنه أن ينتصر بصورة اعتباطية ، بالأخص إن الغرائز لها صبغة عاطفية ، لها صبغة مشاعر وعادة تتقدم العواطف والمشاعر على العقل . إذا تركنا الجهاد الداخلي لحاله ، فكونوا على يقين بأننا سنكون مهزومين دائماً ، فمن جهة هنالك صراع العواطف والعقل ، ومن جهة أخرى عندما يبدأ الصراع تكون العاطفة عاصفة إلاّ أنَّ العقل لا يكون كذلك ، وأساساً ليس للعقل تمردٌ أو جُموع ، الغريزة الجنسية فيها جموع ، وإذا جمعت وتمردت يقول القرآن الكريم :

﴿ قل أعوذُ بربِّ الفلقِ مِنْ شرِّ ما خلقَ ومنْ شرِّ غاسقٍ إذا وقبَ ﴾[1] .

بمعنى إقرأ دائماً ، دائماً قل اللهم أعوذ بك ، عندما تجمح الغريزة الجنسية ، إذ عندما تجمح تكون كالسيل الهادر تجرف معها كل شيء ، العقل أيضاً تجرفهُ وتتغلب عليه . العقل ليس لديه جموع أو تمرد ، إذا أردنا أن يتغلب عقلنا ، ينبغي أن نضفي عليه صبغة الشعور بالعُلوّ عن الشهوات والكلام هنا ماذا نفعل لكي ننتصر في هذهِ المعركة ؟ .

من الواضح أن الجهاد الأكبر أصعب بكثير من الجهاد الأصغر وفي معركة النفس مع شهواتِها يجب الاستعانة بقوةٍ من الخارج ، والشيء الأول الذي يجب

(١) سورة الفلق ، الآيات : ١ ـ ٣ .

ان ننتبه له هو أن نكون دائماً محل رعاية وعناية الباري عزّ وجلّ ، وأن تكون يد الله فوق رؤوسنا دائماً ، وإذا تركنا رب الكون لحالنا لحظة واحدة ، سنصبح في وادٍ وعناية رَبّنا في وادٍ آخر . هناك دعاءٌ منقول عن النبي الأكرم (ص) ، يبدو أنه كان يردّده دائماً ، لأن عائشة وأم سلمة نقلتا هذا الدعاء . تقول عائشة : في منتصف الليل لم أجد النبي (ص) في فراشه ، لذلك نهضت ، وبحثت عنه ، فجأة شاهدت النبي الأكرم (ص) منكفأ على التراب ورأسهُ الشريف على التراب أيضاً ودموعهُ تنهمر كالمطر وهو يقول : « **اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين** »[1] .

إقرأوا هذا الدعاء دائماً، بالأخص حين تشعرون بالتعب ، وحين تشعرون بالارتياح ، بعد الصلاة ، في منتصف الليل ، قولوا دائماً : **اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين** . وهذا هو معنى الضلال في القرآن . إذ نقرأ في أكثر من عشرين آية في القرآن فيها عبارة : ﴿**يضلل الله**﴾ من الواضح أن الله لا يضل أحداً .

﴿ **مَنْ يضلّل اللّهُ فلا هاديَ له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهونَ** ﴾[1] .

هذا هو معنى الضلال في القرآن ، بمعنى أن الإنسان يقوم بعمل ما ويَفقد من جرائه يد العناية الإلّهية . مثلاً أنتم تمسكون بصخرة في منحدر جبل ، طالما أنتم تمسكون بها لا تسقط ، ولكن لو تركتموها (لا حاجة لدفعها) ما أن ترفعوا أيديكم عنها ، تسقط الصخرة ، تسقط من منحدر الجبل إلى الأسفل وتتهشم إلى قطعٍ صغيرة .

هذا هو معنى الضلال بمجرد أن يرفع خالق الكون عنايته عن أحدٍ ما ، فإذا به يسقط ويؤول إلى البؤس . قدرةُ الله تشبهُ الكهرباء في معمل متكامل ، ليس فيها أدنى نقص ، ولكن فجأة قد يحدث نقص أو خلل في هذا الميكرفون فيصبح مجرد قطعة حديدية لا تستطيع استلام الكهرباء . قد لا يستطيع هذا المصباح أن يستلم الكهرباء فيصبح مظلماً ، مظلم ، مظلم ، الحياة بدون الله

---

(١) من لا يحضره الفقيه ، المجلد ٤ ، ص ١٣٨ الحديث .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٦ .

مظلمة مظلمة وموحشة موحشة القرآن يقول :

﴿ أو كظلماتٍ في بحرٍ لُجيّ يغشاهُ موجٌ منْ فوقهِ موجٌ منْ فوقهِ سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يدهُ لمْ يكدْ يراها ومنْ لمْ يجعلِ اللّهُ لهُ نوراً فما لهُ منْ نورٍ ﴾[1] .

كم هي بليغة هذهِ الآية . وكما يقول طلبة العلوم الدينية تشبيه المعقول بالمحسوس بمعنى من أجل أن يوضح أمراً علمياً أو عقلياً يضعه في قالب حسي .

وقد استخدم القرآن هذا الفن في هذهِ الآية الشريفة . لا أعلم هل شاهدتم بحيرة خزر (بحر قزوين) أم لا ؟ البحر فيه أمواجٌ عادةً ، وهو مظلم بذاته . فإذا عمّت الغيوم هذا البحر يكون ظلام على ظلام ، ووحشة على وحشة . إذا كان الوقت ليلاً ، ظلام على ظلام ووحشة على وحشة . وإذا كان البحر هائجاً وعاصفاً فهي الوحشة الداكنة القرآن يقول : الحياة المليئة بالمعاصي ، الحياة التي قطعت فيها علاقة الإنسان بربّه ، كهذا المصباح الذي قطعت علاقتهُ مع محطة الكهرباء ، الحياة التي توجد فيها علاقة مع الشيطان ، هزيمة ، هزيمة عقلنا وروحنا ، حياة كهذه مظلمة مظلمة ، وموحشة موحشة .

عند المساء وسط البحر الهائج والغيوم المحيطة ، كم هو مظلم ؟ كم هو موحش ؟ يقول (القرآن) هكذا هي الحياة بدون الله .

القرآن لديه أمثلة عديدة من هذا النوع ، يقول في سورة التوبة :

﴿ أفمنْ أسسَ بنيانهُ على تقوىٰ منَ اللّهِ ورضوانٍ خيرٌ أمْ منْ أسسَ بنيانهُ على شفا جرفٍ هارٍ فانهار بهِ في نارِ جهنمَ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾[2] .

هذهِ الآية بليغة جداً .

حقاً ما مدىٰ بلاغة القرآن ، أرجوكم أن تتعاملوا مع القرآن . فبالإضافة إلى أنه يفيض بالنور فهو يمنح المتعة ، لأنَّ بلاغة القرآن هي إحدى معجزاتهِ الكبرى .

---

(١) سورة النور ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠٩ .

هنا أيضاً تشبيه المعقول بالمحسوس ، قد تبنون بيتاً ، وعادةً إذا أردتم أن يدوم عمر هذا البيت عليكم بتقوية أعمدتهِ ، فإذا كانت الأعمدة غير قوية فلن يدوم البيت ، ولكن قد يبني إنسان أبله أو أحمق بيتاً على حافة الهاوية المعرضة لخطر السيول ، حافة الهاوية ! .

من الواضح البيت الذي نبنيه على حافة الهاوية المعرّضة لخطر السيول قائم على ماء قليل ، عاصفة خفيفة تجرفهُ إلى قعر الهاوية .

القرآن يقول: الحياة بدون الله كبيتٍ في حافة الهاوية المعرضة لخطر السيول : ﴿ **فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ أي : أنَّ الذي في حياتهِ ذنوب يظلم نفسه ، يظلم ربه ويظلم مجتمعه ، ولن تكون يد العناية الإلّهية فوق رأس هذا الشخص ، حياته كبيت في حافة الهاوية ، لن يدوم طويلًا . الحياة بدون الله لن تدوم طويلاً . الحياة بدون الله ليس فيها سوى الرعب والقلق والحيرة والاضطراب ، هذه دنياه ، أما آخرتهُ فمعلومة ﴿ **فانهار به في نار جهنم** ﴾ لذلك علينا أن نعمل لكي تكون يد العناية الإلّهية فوق رؤوسنا وماذا نفعل لكي نحصل على هذا التوفيق ، بمعنى ماذا نفعل لكي تكون يد العناية الإلّهية فوق رؤوسنا ؟ ماذا نفعل لكي يغنينا الله في الأزمات ؟ ماذا نفعل لكي لا يكلنا خالق الكون إلى أنفسنا ، وبالأخص لكي لا نهزم في ذلك الجهاد الأكبر ؟ وماذا نفعل لكي ننتصر في تلك المعركة ؟ قلت بأن القرآن يقول : ﴿ **واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ** ﴾[1] اهتموا بأمرين واستعينوا بالصبر والصلاة أي إذا أردت أن تنتصر في تلك الساحة يجب أن تأتي قوة من الخارج . القرآن الكريم يقول في هذهِ الآية : أمران ، الأول الصبر ، والثاني الصلاة .

يجب أن نهتم بكافة الواجبات . كلما زاد اهتمامُنا بالواجبات ستكون علاقتنا بالله أمتن ، كسلك الكهرباء كلما كان اتصاله بالمحطةِ أقوى كلما قلَّ انقطاع التيار الكهربائي ، لذلك ، فإن الاهتمام بالواجبات يقوّي العلاقة مع الله . وهذا تسديدٌ لدنيا الإنسان وآخرتهِ أيضاً، وبالخصوص إقامة الصلاة في حينها ، جماعةً وفي المساجد ، يجب أن تملأ المساجد كما جاءَ في بعض

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

الروايات العميقةِ التأثير كتلك ، الرواية التي نقلها الشيعة والسنة ، بأن النبي (ص) قال :

« سلموا على اليهود والنصارى ولا تسلموا على يهود أمتي »[1] .

بمعنى اقطعوا علاقاتكم مع هؤلاء لكي يَعُودوا إلى رُشْدهم قيل : **يا رسول الله ومن يهود أمتك ؟ قال : « الذين يستمعون الأذان والإقامة ولا يحضروا الجماعة »** .

أولئك الذين يستمعون الأذان والإقامة ولكنهم لا يذهبون إلى المسجد لأداءِ صلاة الجماعة . قال : أولئك الذين يعرضون عن الجماعة والمسجد ، همُ يهودُ أمتي : لا ينبغي عدم الاكتراث بهذهِ الروايات ، لأنها بالإضافة إلى الجانب المعنوي كما قال قائد الثورة العظيم (ره) يوجد فيها جانب سياسي أيضاً .

المسجد متراس ، ينبغي ـ كما قال قائد الثورة ـ ملىء هذا المتراس . ليس هذا بحثنا الآن ، بحثنا الآن هو أن نهتم بالصلاة لأننا نقف بين يدي الله . عندما تكونون بين يدي قائد الثورة العظيم لمدة نصف ساعة . عادةً يكون اهتمامكم منصّباً على النظر إلى القائد ، لأنكم تستمعون باهتمام إلى أقواله ، مع الأخذ بالاعتبار ، بأننا نحب الإمام القائد ، لأنه عَبْدٌ ، عَبْدُ مَنْ ؟ عَبدُ ذلك الذي نقف بين يديه ونقيم الصلاة . مرات عديدة يسأل البعض ماذا أفعل لكي أتوجه في الصلاة إلى الله . يجبُ أن نسأل عكس هذا السؤال إذا أقام الإنسان الصلاة حقاً يجب أن يقول : ماذا أفعل لكي لا أتوجه إلى الله ؟ هكذا يجب أن يقول ، لأنه عبد واقف بين يدي الله . ينبغي أن تكون هذهِ أكبر لذاتنا ، خلوة العاشق بالمعشوق ، خلوة العبد بمولاه ، حديث المعشوق مع العاشق ، هكذا هي الصلاة . نصف الصلاة تقريباً حديث الله مع عبده ، والنصف الثاني حديث العبد مع مولاه . سورةُ الحمد وبقية السور القرآنية هي حديث المولى مع عبده ، وبقية الصلاة حديث العاشق مع معشوقه ، حديث العبد مع مولاه ،

---

(١) من لا يحضره الفقيه ، المجلد ٤ ، ص ١٣٨

ينبغي أن تكون هذهِ أكبر اللذات ، كل التعب يجب أن يزول بالصلاة .

مرحىٰ لأولئك الذين يزيلون التعب بالصلاة ، مرحىٰ لأولئك الذين يزيلون كافة الهموم والقلق والاضطراب والرعب بواسطة الصلاة . نحن يجب أن نكون هكذا في الصلاة ، وإذا تعودنا على ذلك ستمتّن علاقتنا بربنا ، وسنصل إلى هذهِ المرحلة تدريجياً . الصبر يستخدم بمعنى الاستقامة أمام الجزع والفزع . إذا كان الإنسان صابراً بمعنى إذا كانت لديه استقامة عادة لا يملك الاستقامة ، بل لديه الجزع والفزع ، كما يقول القرآن الكريم هذا الإنسان هلوع .

﴿ **إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً** ﴾ بمعنى إذا أخذنا البعد المادي والمعنوي ، فإن الإنسان هلوع ﴿ **إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً ، إذا مسَّهُ الشرَّ جزوعاً** ﴾[1] ، عندما يواجه المتاعب يرتفع صراخه ويبدأ بالتذمّر ، ويظهر الغضب وتبدأ الكلمات النابية وتطرأ التصرفات اللامعقولة .

نسأل الله أن يصبح الإنسان هلوعاً كالحجارة في الزقاق يركلها كل عابر ، إذا لم يتحلىٰ المرء بالوقار ، وعندما لا يكون لديه استقامة ، فهو هلوعٌ بتأكيد القرآن ﴿ **وإذا مسّه الخير منوعاً** ﴾[2] ليس فقط عندما يصيبهُ شرّ لا يمكنه المقاومة ، بل إذا مسّه الخير أيضاً ليس لديه القدرة على المقاومة ، ليصبح الإنسان هناك أيضاً ﴿ **منّاعٍ للخير** ﴾[3] ومتكبراً وأنانياً .

إذا لم يكن الإنسان مستقيماً ، ولم يكن لديه استقامة ، وليس عندهُ صبر ، فهو كالحجارة في وسط الزقاق ، وبتعبير القرآن الكريم كالزبد فوق الماء ، يتهاوىٰ لأقل ضغط أو قوةٍ . وكما يقول أمير المؤمنين (ع) إنه كالبعوض ، البعوض الذي يؤذي الناس في ليالي الصيف ، إذا هبّت ريح خفيفة من أي جهة ستجرفه في طريقها .

إذا مسّنا الإنسان في البعد المادي ، وإذا لم يكن لديه ذلك البعد المعنوي والصفات المعنوية ، ومن بينها الصبر والاستقامة ، فإنه مخلوق هلوع

---

(١) سورة المعارج ، الأيتان : ١٩ و ٢٠

(٢) سورة المعارج ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة قٓ ، الآية : ٢٥

من وجهة نظر القرآن ﴿ **إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً** ﴾ .

إذا مسهُ الخير منوعاً ، وإذا أصابته مصيبة أيضاً هلوعاً من هنا إذا أردنا أن نكون أناساً صالحين علينا بالصبر والاستقامة في كل الأمور .

الصبر على ثلاثة أنواع ، وكل هذهِ الأنواع الثلاثة مفيد لبحثنا :

١ ـ الصبر عند المصيبة والشدائد .

٢ ـ الصبر في العبادة .

٣ ـ الصبر في المعصية .

القرآن الكريم يقول : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ جاء بـالصبر في البداية ثم الصلاة (وهذا ذكر الخاص بعد العام) ، بمعنى بالصبر يدرك مفهوم الصلاة . يقول العارفون : « إن ذكر الخاص بعد العام من أجل أهمية الصلاة ، فالصبر يشمل الصلاة أيضاً . بمعنى أن الصلاة هي إحدى مصاديق الصبر في العبادة .

أنواع الصبر الثلاثة تجعل يد العناية الإلٓهية فوق رؤوسنا وبالتالي ننتصر في جميع المعارك الداخلية الثلاث ، كما أن هـذا الصبر ضروري في المعارك الخارجية أي الصبر عند المصيبة ، والصبر في العبادة والصبر في المعصية . من البديهي أن انتصارات شبابنا الأعزاء في جبهات الحق ضد الباطل رهينةٌ بهذا الأمر ، أي رهينةُ صبرهم وحول الصبر في المعصية يجب القول إن الدنيا دار المصائب ، فلا يعقل أن يعيش المرء في الدنيا ، ولا يحدث له ما يستوجب القلق . وكما يقول أمير المؤمنين (ع) : « **الدنيا بحر عميق يغرق فيه خلق كثير** »[1] . وفي حديثٍ آخر يقول : « **الدنيا محفوفة بالبلاء** » إذا كنتم في الماء ، كيف يسيطرُ عليكم تيّارهُ ويحيط بكم من كل جانب ، وهذهِ حال كل من يكون في الدنيا ، محفوف بالبلاء الذي يحيط الإنسان من كل جانب ، وإذا تمكن من توظيف هذا البلاء ، حينها يتجه نحو الكمال . الإنسان ذلك الذي يستفيد من البلاء إذ أن طريق الإنسان يمر عبر هذا الطريق ، وكم هو جميل قول

---

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٤٦٧ .

حافظ (ترجمة الشعر) :

المُدلّل المُتنعِّم لن يصل إلى المحبوب

العشق طريق الشجعان الصابرين على البلاء

إذا كان الإنسان يستطيع أن يصل إلى مكان لا يعلمه إلّا الله ، بواسطة هذهِ المصائب والبلايا الموجودة في الدنيا . فإن البلاء هو أحد نعم الله الكبرى ، بشرط توظيفها وتمثلها على طريق الكمالِ والارتفاع عن الذنوب والمهابط .

لقد جئنا إلى هذا البحر الواسع ، في هذهِ الدنيا المليئة بالمماحكات والهموم ، ليس فيها لذة ، وكلها أبعاد للألم ، لا يوجد في هذهِ الدنيا لذة أساساً ، مثلاً نتصور أن هنالك لذة في الأكل والشرب ، ليست كذلك ، أنتم عندما تجوعون تشعرون بالألم ، تأكلون ويزول ذلك الألم ، لذلك عندما تكونون في غنىً عن الأطعمة تصبح أحسن الأغذية أسوأ الأشياء لكم .

حين تشعرون بالظمأ تتألمون ، وعندما تشربون الماء يزول الألم ، لذلك يقول السالكون : الدنيا كلها إزالةٌ للألم أمّا اللذة فتختلف أنها إطفاء الشهوة وإزالة آلامها لذة الإنسان في البحث عن الحقيقة ، وطلبها ، والبحث عن العلم وطلبه ، لذة الإنسان التقرب إلى الله . اللذة ، للعاشق ، الخلوة مع المعشوق ، ليست اللذة الأكل والشرب ، لأنها جميعها إزالةٌ للألم . هذهِ الدنيا تعني النزاع والمُصيبَةُ تعني البلاء ، فينبغي توظيفها والاستفادة منها القرآن يقول في أماكن عديدة : إننا نمتحن البشر ، الكثير من المفسّرين ظنوا أن الامتحان الإلّهي يشبهُ امتحان طلاب المدارس ، لذلك ترون أنه لا يصحّ أن يمتحن الله البشر بهذهِ الطريقة ، لذلك الكثير من المفسرين يقولون : إن معناها امتحان البشر لكي يدرك ماهيّة ذاته .

ولكن يبدو أن الامتحان في القرآن الكريم يشبه ما ورد في بداية سورة العنكبوت حيث يقول : ﴿ **أحسبَ النـاسُ أنْ يتركـوا أنْ يقولـوا آمنّا وهمْ لا يُفتنونَ ، ولقدْ فتنّا الذينَ منْ قبلهم** ﴾[1] أي هل يكفي أن يقول الإنسان آمنت

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان : ٢ و ٣ .

وأنه لن يُمتحن . في آية أخرى يقول : ﴿ ولنبلونكم ﴾ أي أننا سنمتحنكم لا محالة . هذا الامتحان لا يشبه امتحان المُعَلّمين للطلاب ، بل هو امتحان المهندس للصخرة المعدنية ، في داخل الصخرة يوجد ذهب ، ومن أجل أخذ الذهب الموجود داخل الصخر ، يجب أن يُصهر بقدرةٍ حرارية قياسها (١٨٠) درجة لتطهيرهِ من الشوائب ليصبحَ ذهباً خالصاً .

هذا هو الإنسان ، لماذا جاء الإنسان إلى الدنيا ؟ جاء من أجل الامتحان . ما معنى الامتحان ؟ إنهُ امتحان المُهندِس للصخور المعدنية ، أن يُسبرَ غَورهُ ، أن تنزل عليه المصائبُ الواحدة تلو الأخرى ، وهو يقاوم ليصبح إنساناً بكل معنى الكلمة ، ليتجه نحو الكمال ، لكي يصل عبر هذهِ المصائب إلى مكانٍ لا يعلمه إلا الله ، هذا هو الامتحان الذي يتحدث عنه القرآن . إذن ، الصبر في المصيبة يعني الاستفادة من البلاء . عندما يكون الإنسان فقيراً يجزع ويفزع ، ويتعالىٰ صراخه ، وأحياناً يستفيد من هذا الفقر ، يصبر ويتحمّل ، لا يفقد عزة نفسه ، ولا يصبح هلوعاً ، لا يمكن للفقر أن يحطمه، ما أن يصبر على الفقر يتجه بصورة لا إرادية نحو الكمال ، بصورة لا إرادية كتلك الصخرة المعدنية ، تزول شوائبه في بوتقة (١٨٠) درجة ، وتنزل عليه المصائب الواحدة تلو الأخرى ، ولكن بشرط أن يستفيد من المصيبة .

هنا نورد مثالاً، وهو مفيد جداً من الناحية النفسية ، وخاصة للاقتصاد المنزلي (بالأخص النساء) ، وهذا هو معنى الاستفادة من المصيبة .

في زمن النبي الأكرم (ص) كانت امرأة لديها طفل ، وكانت مسلمة ، ومن الأنصار لا تجيد القراءة والكتابة ، ولكن مؤمنة ، كان الإيمان قد ترسخ في نفسها ، لم يكن لديها إيمان عقلي بمعنى إذا قالوا لها تعالي بدليل يثبت وجود الله ، لا تعرف برهان النظم ولكنها كانت على يقين وقد رسخ الإيمان في قلبها ، وكانت تستطيع أن تستفيد من البلاء . كان طفلها مريضاً . وكان زوجها عاملاً ، ذهب إلى محل عمله وقد مات الطفل ، جلست المرأة إلى جوار طفلها وبكت قليلاً ، فجأة أحسّت بأن زوجها قادم ، فقالت تخاطب نفسها : إذا بكيت بجوار الطفل ، لن تعود إليه الحياة ، فلماذا أجرح مشاعر زوجي وأؤذيه وهو متعب . فمرحىٰ لمثلِ هذهِ العوائل كم أنهم نموذج من نماذج الصبر والتحمل

وأسوةً لمجتمعِهم . نهضت من مكانهاوضعت الطفل في مكان ما وأخفته . وجاء زَوجُها (في ٱلإسلام توجد آداب على الزوجة مراعاتها حين يأتي زوجها إلى البيت ، كما ذكروا آداباً للمرأةِ قبل مجي زوجها) عندما يريد الزوج أن يدخل البيت ، عليه أن لا يُبرز همومه وقلقه ، وكما قال أحد علماء النفس ، فإن الهموم والقلق والوجوم والغضب وأمثال هذهِ الأمور تعتبر بالنسبة للرجل كالطين في كعب الحذاء ، عندما تريدون دخول البيت تنظفون الطين من كعب الحذاء ، وتزيلون الغبار العالق بملابسكم ، ثم تدخلون البيت ، إنه يقول عندما يريد الرجل أن يدخل البيت يجب أن يكون هكذا ، بشوشاً مرِحاً وأن يدع جميع الهموم جانباً ، ويلقي إلى الخارج القلق والمشاكل ، وشدّ الأعصاب إذ ليس مكانها في البيت ، ثم يدخل البيت وقد أمرت المرأة عندما يدخل الزوج البيت بأن تفتح الباب بنفسها ، وأن تبتسم بوجه الزوج ، وكما يقول ذلك العالم النفساني للزوجات ، فإن القلق والرعب والتشويش والكسل ، وأمثال ذلك يعتبر بالنسبة للمرأة كالقاذورات في المنزل ، أين مكان القاذورات ؟ يجب إخراجها من البيت ويقول أيضاً : قبل مجيء الزوج للبيت يجب إزالة القلق والرعب والتشويش والكسل ، إنها قاذورات يجب إزالتها ، على الزوجة أن تستعد لاستقبال زوجها ، وأن تحاكيه وتبتسم له ، إن الأحاديث التي تبعث على القلق والهم ليست من نصيب الزوج ، ينبغي الاهتمام بالزوج كما على الزوج أن يهتم بزوجته ، إن هذهِ المرأة أنجزت ما أراده الإسلام ، مات طفلها لكنها استقامت وصبرت لأنها تعلم : ﴿ **ولنبلونكم بشيءٍ منَ الخوفِ والجوعِ ونقصٍ منَ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبشّرِ الصابرين** ﴾[1] .

إنها تعلم أن نفس طفلها الميت يمكن أن يكون سبباً لكمالها ، جاءت أمام زوجها وفتح الزوج الباب وسلّم عليها . ابتسمت الزوجة ، سأل الزوج عن الطفل فأجابت : الحمد لله تحسّنت صحته ، نعم إنها لم تكذب ، تحسّن وذهب إلى شجرة طوبىٰ ، يشرب الحليب هناك ، جلسا معاً وتحادثا مع بعضهما البعض وضحكا ، أزالت التعب من قلب الزوج ، ناما ، وعرضت نفسها على

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥

زوجها ، استيقظا قبل أذان الفجر ، واغتسلا وصلّيا صلاة الليل أراد الزوج أن يذهب إلى صلاة الجماعة ، فقالت الزوجة : لديّ قضية ، قال : ما هي ؟ قالت : إذا وضع شخص عندكم أمانة ثم يأتي ويقول أعطوني الأمانة وأنتم تمانعون ولا تعطوه إياها ، ما رأيكم ؟ قال : سأكون إنساناً سيئاً جداً ، الخيانة في الأمانة عمل سيء جداً ، يجب ردّ الأمانات إلى أهلها ، قالت الزوجة : أصحيح هذا ؟ قال : نعم . قالت : قبل ثلاث سنوات أعطانا الله أمانة ، حتى يوم أمس كانت مشيئته أن تبقى هذهِ الأمانة عندنا ، وكانت فعلاً ، بالأمس استردّ أمانتهُ ، طفلك ميت وموجود في تلك الغرفة ، اذهب وأقم الصلاة .

ثم تعالى بنفر من الأشخاص وخذ طفلك وادفنه .

قال الرجل : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ذهب للصلاة وكأن النبي (ص) كان مستعداً للقاءه فما أن دخل حتى بادره النبي (ص) بالقول : مبروك عليكم ليلتكم الماضية ، القرآن أيضاً يبارك لكما . إذ يقول : ﴿ **فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ ، وأصحابُ المشئمةِ ما أصحابُ المشئمةِ ، والسابقونَ السابقونَ أولئكَ المقربونَ** ﴾[1] .

بمعنى أن هذهِ المرأةِ ، وهذا الرجل سعيدان ، أيّما سعادة . ولكن الذين ليس لديهم علاقة بالله مشؤومون ، تعساء ، القرآن يقول أيما شؤم وتعاسة ومصيبة يذوقون ، وليس لهم أجر ولا يتجهون نحو الكمال ، لأنهم كما يقول القرآن الكريم : أنانيون ومغرورون ، وكأن النبي (ص) كان مستعداً حيث قال : مبروك عليكم ليلتكم الماضية . في تلك الليلة حملت المرأة ثم ولدت طفلاً ، تحدث العلماء كثيراً حول هذا الولد ، بعضهم يقول : إن هذا الولد صلى صلاة الليل بوضوء المغرب والعشاء طوال ٣٢ عاماً ، والبعض الآخر يقول : إنه أُستشهد في حرب صفين، وهو يقاتل بين يدي علي (ع) ، وبعضهم يقول : إنه كان من مريدي علي (ع) وكان أمير المؤمنين يودّه كثيراً . في الختام أنصحكم جميعاً بعبارةٍ وهي :

أعزائي ، كونوا على يقين إذا كان عملكم في سبيل الله . فالله يجزيكم ،

---

(١) سورة الواقعة ، الآيات : ٨ ـ ١١ .

وتعمر دنياكم كما تعمر آخرتكم ، إعلموا بشكلٍ تأخذ فيه أعمالكم صبغة إلّهية لأن القرآن الكريم يقول : ﴿ صِبغَةَ اللَّهِ ومَنْ أحسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبغَةً ﴾[1] ، ينبغي على الإنسان أن تكون أعمالهُ ذات صبغة إلّهية ، أن يتحدث في الصف للّه ، حتى درس الرياضيات يدرسهُ للّه ، العلوم أيضاً يدرسها للّه وكذلك العلوم الدينية كذلك ينبغي أن يكون أكلكم وشربكم لِلّه .

ليست الرجولة بأن تكون طيباً رؤوفاً وحنوناً أمام الزوجة ، بل الرجولة أن تواجه سوء أخلاق الزوجة بالسماح ، فلو كان للرجل زوجة تنطبق أخلاقها مئة بالمئة مع أخلاقه ، لا تظهر الرجولة هنا ، بل إن الرجولة هي مجابهة المشاكل ، الرجل هو الذي لا يثير المشاكل في البيت ولا يؤزّم الأوضاع ، الرجل هو من يواجه سوء أخلاق زوجته بسعةِ الصدر . الزوجة ليست تلك التي لديها زوج مسلم وأوضاعه المادية جيدة ، ويبقيها مرفّهة ، ولديه بيت ، وحياة طبيعية وأخلاق طيبة ، في هذهِ الظروف تريد الزوجة أن تكون طيبة جداً مع زوجها ، ليست هذهِ امرأة استثنائية ، بل عادية جداً . من هي التي تُسمى السيدة ؟ .

السيدة هي التي التي توائِمُ نفسها مع سوء أخلاق زوجها تلك هي المرأة الحقيقية . المرأة المسلمة هي التي تعيش إلى جانب زوجها راضية بفقره وسوء أخلاقه وأعصابه المشدودة والقلق الذي يجلبه معه إلى البيت . عليكم بالصبر ولا تفرغوا البيت من أجواء الدفء والحنان ، لأن ذلك مضرّ جداً بالأخص لأطفالكم ويؤدي إلى تعقيد الأطفال ـ لا سامح الله ـ فلا تقدموا أطفالاً معقدين للمجتمع ، عليكم أن تتحلّوا بالرجولة وأن تتحملوا مشاكل البيت وتكونوا متسامحين .

عليكِ يا سيدتي أن تتحلّي بالصبر على المشاكل وسوء المعاملة لكي يجزيك خالق الكون ، وكوني على ثقة بأن الله يجزيك خيراً ، لا يجزيك في الدنيا بل يجزيكِ في الآخرة ، والقضية التي ذكرناها خير مثال لذلك والقضايا من هذا النوع كثيرة .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٣٨ .

إلهي نقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنحنا جميعاً الخصال الإنسانية واليقظة ونور القلب والموفقية في أداء الفرائض والعبودية وترك المعاصي .

البحث السادس

« الصبر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

قلنا الإنسان يتشكل من بعدين : بعد ملكوتي ومعنوي يُسمىٰ الروح ، وبعد ناسوتي وبهيمي يدعىٰ الجسم ويسمونه الرغبات والغرائز أيضاً ، وقد استفدنا من الأبحاث السابقة أن حقيقة الإنسان تكمن في الجانب المعنوي والروحي .

كان البحث يدور فيما لو تغلب البعد المعنوي على البعد البهيمي ، واستطاع أن يروّضه ويستفيد منه فإنه يستطيع في هذهِ الحالة أن يصل إلى مكان لا يعلمُه سوى الله ، ولكن إذا هزم البعد الماديِ والبهيمي البعد الروحي ، هذا البعد أيضاً فيه أدنى من الحيوان حسب رؤية القرآن . ماذا نفعل لكي ننتصر في هذهِ الحرب الداخلية التي سماها النبي الأكرم (ص) الجهاد الأكبر ؟ ماذا نفعل لكيِ يروض البعد المعنوي البعد البهيمي ، ويستفيد منه ؟ حول هذا الموضوع ذكرتُ أنه ينبغي أن تأتي قوة من الخارج وليس من الداخل ، لقد عيّن القرآن الكريم قوى لهذا الأمر ولو استطاع الإنسان الاستفادة منها فستقوىٰ إرادته وروحه وسينتصر أخيراً في هذهِ الحرب .

كذلك قلت إن القرآن الكريم يقول حول ذلك : **﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾** وتحدثت لكم بصورة إجمالية حول الصلاة ، البحث الذي ذكرناه

سابقاً كان بحث الصبر وقسّمنا الصبر إلى ثلاث أنواع : الصبر على المصائب والمشاكل ، الصبر في العبادة والصبر في المعصية ، ويختلف جزاء كل منها ، الصبر على المشاكل لهُ جزاء وجزاؤهُ كبير ، ومن وجهة نظر القرآن جزاؤه لا يعد ولا يحصى : ﴿ **إنّما يوفّى الصابرونَ أجرهم بغيرِ حسابٍ** ﴾[1] .

الصبر في العبادة جزاؤه أكبر وجزاء الصبر في المعصية أكبر من جزاء الصبر في العبادة . تحدثنا فيما مضى باختصار حول الصبر في المشاكل والمصائب . إنه بحث مفيد للجميع ، فمثلاً تصوروا صفاً فيه (٦٠) طفلاً وأخلاقهم مختلفة ، إن إدارة صف كهذا أمر صعب جداً ، وإذا لم يكن هنالك صبر واستقامة فسيبدو عليكم الإعياء ، وفي تلك الحالة لن تتمكنوا من أداء الواجب . لذلك سنتحدث حول الصبر في المشاكل .

القرآن الكريم يجزي الصبر في المشاكل أولاً . إذا استطاع المرءِ الاستقامة أمام المشاكل التي تواجهه ، ولم يفقد توازنه ، وإذا وقعت مصيبة لا يجزع ولا ينزع ولا يفقد توازنه في مواجهة المشاكل ، بالإضافة إلى تقوية الإرادة والروح سيتمكن لا محالة من التغلب على المشاكل الداخلية ، ويوظف هذهِ القوة للتغلب على الغرائز والرغبات ، علاوةً على ذلك سيكون له ثواب كبير حسب الرؤية القرآنية .

علماء الأخلاق يقولون : إن كل فضيلة لها جزاء ومكانة خاصة ، ولكن حسب الرؤية القرآنية الصبر له جزاء غير محدود ، لأن القرآن يقول : ﴿ **إنما يوفّي الصابرونَ أجرهم بغيرِ حسابٍ** ﴾[2] بمعنى أن الإنسان الصابر ، والمقاوم للمشاكل الذي لا يفقد توازنه في مواجهتها ، الذي لا يغضب في المتاعب (طبعاً من الواضح أن عمله هذا في سبيل الله) فإن جزاءه لا يعد ولا يحصى ، بمعنى أن هذا الشخص ينال جزاءً كبيراً لا يعلم مقدارهُ سوى الله : ﴿ **إنّما يوفّى الصابرونَ أجرهم بغيرِ حسابٍ** ﴾ إذا كان لديكم في الصف طالبٌ معقد وسيء الأخلاق ومن أجل أن تؤدبوه تغضون الطرف عن أخلاقهِ السيئة ، ولا تغضبون ،

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ١٠ .

ولا تضربونه وبدلاً عن ذلك (من وجهة نظر الإسلام وعلماء النفس) تعالجون العقدة التي يعاني منها ، القرآن يقول : إن جزاءكم ليس إحياء شخص واحد فحسب ، كلا : ﴿ **إنّما يوفّى الصابرونَ أجرهم بغيرِ حسابٍ** ﴾ بل إن جزاءك لا يعد ولا يحصىٰ ، ولا يعلم مقدار جزائك سوىٰ الله القرآن الكريم يقول :

﴿ **ولنبلونكم بشيءٍ منَ الخوفِ والجوعِ ونقصٍ منَ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبشّر الصابرينَ ، الذينَ إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا للّه وإنا إليهِ راجعونَ ، أولئكَ عليهم صلوات من ربّهم ورحمةٌ وأولئكَ همُ المهتدونَ** ﴾(١) . هذهِ الآية الكريمة حول الصبر في المصيبة والمشاكل يُدرك منها أن الإنسان عندما يأتي إلى الدنيا لديهِ مشاكل . كل من تلقاه يشكو دهره ، واحد لديه مشكلة عائلية ، وآخر لديه مشكلة الفقر ، وآخر لديه مشكلة رفيق السوء ، وآخر لديه مشكلة الاجتماع ، وآخر لديه مشكلة المرض وأخيراً هذهِ الدنيا « **دار بالبلاء محفوفة** » رحم الله مؤذن مسجد سيد أصفهان الذي كان يذهب قبل أذان الفجر إلى المأذنة يناجي ربّه إلى أن يحين موعد أذان الفجر ، هذا الشخص قال لي : في يوم ذهبت إلى هناك ، وكنت أشاهد (أن المأذنة كانت مشرفة على البيوت) فرأيت أن أحداً قد مات وأهله يبكون عليه . وفي مكان آخر حفل زواج ، والناس مبتهجون ، وفي جانب آخر امرأة ولدت . هذا هو حال الدنيا ، لا يمكن أن يكون الإنسان في الدنيا ويجري كل شيء حسب ما يشتهي ، لا معنى لذلك ، بل إن المصيبة والقلق وفير كالسيل ، إذا تمكن الإنسان من مواجهة هذهِ المشاكل بإمكانه أن يستفيد من تلك المصائب ، في هذهِ الحالة نفس هذهِ المشاكل تصبح أكبر النعم بالنسبة له ، لأن هذهِ المشاكل تؤدي إلى تقوية إرادتهِ وروحه ، والتوجه نحو الكمال ، والهدف من خلق الناس هو التوجه نحو الكمال ، ولكن إذا لم يتمكن من التغلب على المشاكل ، ستجرفه كالسيل ، يجزع ويفزع إلى أن يصل تدريجياً إلى حافة الكفر ، يصل إلى مرحلة يدب الوهن في أعصابه ، أولاً تحدث له مشاكل عائلية ، ثانياً يفقد أصدقاءه ، ثالثاً والأسوء من كل ذلك ، كفران النعمة ، هذهِ الآية الكريمة تصف الدنيا هكذا .

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

تقبل المصائب على الإنسان ، أحياناً مصيبة الأولاد ، وتارةً مصيبة الأب والأم ، مصيبة الفقر والغلاء وانعدام الأمن ، وأحياناً مصيبة الثورة ، وتارةً مصيبة انعكاسات الثورة ، وأمثال ذلك : ﴿ وبشّر الصابرين ﴾ يا أيها النبي ، بشّر الصابرين ، بشّر أولئك الذين يستطيعون الاستقامة وقل لهم : إن هذهِ المصاعب نعمة لكم ، إذا صبرتم حقاً في زمن المصيبة سأعطيكم ثلاث نعم ، إذا أعطيت إحداها للعالمين لكفتهم .

١ ـ **﴿ أولئكَ عليهمْ صلواتٌ منْ ربهم ﴾** في القرآن صُلّي على النبي (ص) **﴿ إنَّ اللّهَ وملائكتهُ يصلونَ على النبيِّ ، يا أيّها الذينَ آمنوا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً ﴾** (١) **(اللهم صلّ على محمد وآل محمد)** .

هنا أيضاً صُلّي على الإنسان الصابر ، على من ؟ على تلك الزوجة التي تستقيم مقابل سوء معاملة الزوج ، على ذلك الزوج الذي لا يفقد توازنه في تعامله مع المتاعب في خارج البيت ، لا تسوء أخلاقه ولا يصرخ . على من صُلّي ؟ على تلك السيدة ، وعلى ذلك السيد اللذين يذهبان إلى الصف ويشاهدان الطالب المعقد ، وهو يشاغب ، مع أنه يلقى معاملةً حسنة إلا أنه يستمر في المشاغبة ، ومن أجل أن تصلح أخلاقه ، يستقيم المعلم ويصبر ولا يغضب ، ويدير الصف بأخلاقهِ الحسنة ، يقال لهذا المعلم : سلامٌ من الله عليك وكما قال الإمام الصادق (ع) إذا كان واحد من هذا الجزاء لكل العالمين لكفاهم جميعاً ، حقاً إنه كذلك ، عندما تريدون احترام قائد الثورة العظيم وتجليله ، تقولون تحيةً لقائد الثورة العظيم . والآن يقول الله : تحيةً لك إذا كنت صابراً .

٢ ـ النعمة الأخرى هي الرحمة : **﴿ أولئكَ عليهم صلواتٌ منْ ربهم ورحمة ﴾**(٢) بمعنى إذا كان صابراً ستشمله الرحمة الإلٓهية وكما يقول الطلبة الرحمة هنا مطلقة ، تشمل الدنيا والآخرة ، كشخصٍ غطس في الماء وأحاطه من كل جانب ، هذهِ الآية تقول : إن رحمة الله تغطية من كل جانب ، في الدنيا لديهِ رحمة ، وفي الآخرة لديهِ رحمة ، ومن ناحية الأولاد لديه رحمة ، ومن

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧ .

وجهة حسن العاقبة لديه رحمة ، وضمان المستقبل لديه رحمة وسلامة النفس لديه رحمة ، وسلامة الجسم لديه رحمة . وإذا لم يكن للإنسان الصابر فائدة سوى أنه إذا صبر لن يصاب بضعف الأعصاب ، رحمة الله هذهِ لوحدها تكفي ، لماذا نصاب نحن بضعف الأعصاب ، ومن الذي لا يصاب ؟ الدكتور تشهرازي لديه عبارة جميلة إذ يقول : عالم اليوم عالم المعتوهين أي دار المجانين ، إن (٩٥) بالمئة من الناس مجانين (طبعاً في ذلك اليوم كان قد قال (٩٥) بالمئة وقد يكونون الآن أكثر) (٩٥) بالمئة من الناس عندهم ضعف في الأعصاب ، وهذا في حد ذاته مرحلة من مراحل الجنون (في هذا الجمع من الذي ليس لديه ضعف في الأعصاب ، بالأخص النساء اللواتي من المفروض أن لا يكون لديهن ضعف في الأعصاب) .

من أين يأتي ضعف الأعصاب ؟ من القلق والهموم التي ليست في محلها ، من أين تأتي الهموم ؟ لأنه ليس لديه صبر وفكر ولا يملك الاستقامة على المشاكل وإذا كان صابراً عليه أن يقول عند المصيبة : ﴿ **إنا للّه وإنا إليه راجعون** ﴾ يقال : عندما سمع قائد الثورة العظيم بنبأ وفاة المرحوم الحاج مصطفى الخميني قال : ﴿ **إنّا للّه وإنا إليهِ راجعون** ﴾ ثم أضاف : إن لخالقِ الكون ألطاف خفيّة ووفاة مصطفى أحد ألطاف الله الخفية . إنه لم يكتفِ بقول : ﴿ **إنا للّه وإنا إليه راجعون** ﴾ بل اعتبر ذلك من ألطاف الله الخفية وعلينا أن نعتقد أن كل ما يحدث للإنسان هو من ألطاف الله الخفية .

أحياناً الإنسان يجلب لنفسهِ المتاعب ، وهذا موضوع آخر ، أحياناً يغدو الذنب مصيبة ، إذا استطاع الإنسان أن يفهم هذا الأمر يُسمى صابراً .

٣ ـ ﴿ **وأولئكَ همُ المهتدونَ** ﴾[١] بمعنى أن يد العناية الإلّهية فوق رأسه تنجده دائماً في الأزمات وتقيه من السقوط ، وتأخذ بيده نحو دنياه وآخرته مُصانة ، ومن الطبيعي عندما تكون يد العناية الإلّهية فوق رأس الفرد يستطيع أن يتغلب على رغباتهِ وغرائزهِ ، وهذا ما يقوله القرآن : ﴿ **وإلاّ تصرفْ عنّي كيدهنّ أصبُ إليهنَّ وأكنْ منَ الجاهلينَ** ﴾[٢] . قال : إلّهي ، يجب أن تكون يد عنايتكَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٣٣ .

فوق رأسي ، وإذا لم تكن يد عنايتك قد أرغب أنا أيضاً . إذا أراد الإنسان أن يتغلب على هواه بمعنى أن ينتصر في جهاده الأكبر ، وفي تلك الحرب الداخلية ، يجب أن تكون يد العناية الإلّهية فوق رأسه ، وهذهِ الآية الكريمة تقول : إن يد العناية الإلّهية فوق رأسه . إذا لم تكونوا صابرين ليس فقط تُصابون بضعف الأعصاب في الدنيا وتضعف إرادتكم وروحكم ، وتهين عليكم الشهوات والغرائز ، وذلك البعد الحيواني ، بل إن ذلك هو نوعٌ من كفران النعمة ، عندما لا نشكر النعمة ستكون دنيانا عذابٌ أليم ، وآخرتنا فيها عذابٌ أليم ، وإيماننا ناقص ، لأننا نقرأ في الروايات : « **الصبر من الإيمان** » ثم يُشبّهُهُ ويقول : « **كالرأس من الجسد** » إذا لم يكن للإنسان رأس فإنه ميت ، هذهِ الرواية الموجودة أيضاً في « نهج البلاغة » ، تقول : إذا لم يكن للإنسان صبر فليس له إيمان .

الأصمعي ، وزير هارون الرشيد كان ذاهباً للصيد فتاه عن القافلة عند مطاردتهِ للصيد ، يقول : في هذهِ الحال شاهدت خيمةً وسط الصحراء ، وكنت ظمآناً ، وكان الجو حاراً جداً ، فقلت : دعني أذهب إلى هذهِ الخيمة لكي أستريح ثم ألتحق بالقافلة .

الأصمعي الذي كان وزيراً لنصف العالم في ذلك اليوم يقول : عندما خطوت نحو الخيمة شاهدت امرأة شابة وجميلة في داخل الخيمة . وهي وحيدة ـ العرب ـ يحبون الضيف كثيراً ، ما أن رأتني تلك المرأة حتى حيّتني قالت : تفضل . فولجت الخيمة . فأجلستني في مكان ، وجلست في مكان آخر في الخيمة . قلت لها : ناوليني شيئاً من الماء لكي أشرب . فتغير لَونُها ، قالت : ماذا أفعل إن زوجي لم يأذن لي بأن أعطيك ماءً ، ولكن عندي قدراً من الحليب ، وهذا الحليب لغذائي ، لن آكل الغذاء ، واشرب أنت الحليب .

يقول الأصمعي : شربت الحليب ، ولم تكلمني تلك المرأة ، فجأة شاهدتها وقد تبدل حالها ، نظرت فرأيت سواداً قادماً من بعيد . قالت : جاء زوجي ، أخَذَت الماء الذي لم تعطني إياه لكي أشربه وخرجت من الخيمة ، كنت أشاهدهما عن كثب . كان عجوزاً أسود ، قبيح المنظر ، ساعَدَتهُ على النزول من الجمل وغسلت يديه ورجليه وأدخلته الخيمة باحترام . فوجَدتَهُ

عجوزاً سيء الخلق ، لم يأبه بي كثيراً ، بل كان يعامل تلك المرأة بخشونة . يقول الأصمعي : استأت من خلق الرجل إلى الحد الذي نهضت من مكاني وفضّلت البقاء تحت الشمس على البقاء داخل الخيمة . لذلك خرجت من تلك الخيمة ، لم يأبه بي ذلك الرجل ولكن السيدة رافقتني عند الخروج . قلت لها : سيدتي ، إني أأسف لك ، أنت بهذا الجمال والشباب وتتعلقين بهذا العجوز ، بأي شيء تعلّقت ؟ بمالهِ وهذا وضعه المأساوي وسط الصحراء أم بأخلاقه وتلك أطوارهُ الغريبة ؟ أم بجماله ! وهو مجرد عجوز دميم المنظر ، بماذا ؟ يقول : فجأة شاهدت السيدة وقد شحب لون وجهها ، قالت : يا أصمعي ، إني آسفة عليك لم أكن أظن أنك وزير هارون الرشيد تريد أن تمحي محبة زوجي من قلبي عن طريق النميمة . يا أصمعي ، هل تدري لماذا أفعل هكذا ؟ لأني سمعت حديث النبي الأكرم (ص) : « **الإيمان نصفه الصبر ونصفه الشكر** » بمعنى أن الإيمان له جناحان : صفة الصبر ، وصفة الشكر . ويجب أن أشكر الله لأنه منحني الجمال والشباب والخلق الحسن ، وشكري لله هو انسجامي مع زوجي ، وحتى يكتمل إيماني ويتم ، سأصبر على سوء معاملتهِ ، الدنيا تمضي وأنا أريد أن أكمّل إيماني وأن أرحل عن الدنيا بإيمان كامل .

حقاً كم هو جميل أن تراعي هذهِ الأخلاق في البيت ، بمعنى أن يقول الرجل إذا رأيت ما لا يروقني من زوجتي سأصبر ، ستصلح الأمور ، لكي يكون لديهم انسجام في الأخلاق مئة بالمئة ، طبعاً أولئك الذين هم نورٌ واحد كالمعصومين الأربعة عشر بما أنهم خطٌ واحد فلديهم انسجام كامل أيضاً ما عدا الأنبياء (الناس العارقيين) لا يمكنهم الوصول إلى انسجام مئة بالمئة . عندما لا يمكن ذلك ماذا يجب أن نفعل ؟ إذا أردنا أن تكون الأجواء دافئة في البيت هل يجب أن يسود التسامح وحده أو الصبر ، أمْ تسود الاستقامة . إذا ساد الصبر والاستقامة والتسامح والحنان في البيت ، فإن أجواء البيت ستكون دافئة ، وإذا لم يكن هنالك صبر وتسامح فلا يوجد انسجام مئة بالمئة ، عندما يحدث الصدام ومن هنا تَنْبَعُ جميع الخلافات العائلية . قوموا بدراسة بين أولئك الذين لهم خلافات عائلية ، وسترون من أين وجدت تلك الخلافات ؟ حول أولئك الذين

لديهم علاقات عائلية حميمة أيضاً ، ابحثوا عن ماهية الأسباب الكامنة وراء ذلك ؟ إذا كان قد ورد في القرآن أكثر من سبعين آية حول الصبر ، وفضيلته ، فإن السبب في ذلك أن هذهِ الفضيلة تتبخر أعمالاً كبيرة ، وإن فضيلة الصبر مفيدة جداً في بحثنا هذا ، إنها مفيدة لتمتين الإرادة ، وللمعلمين في الصف (من أن ألا يصابوا بضعف الأعصاب) مفيدة جداً ، وهي مفيدة للبيت والانسجام ، وبالأخص لأطفالكم .

ليس منطقياً أن يتربى طفل في بيت لا يوجد فيه انسجام بين الوالدين . وليس صحيحاً أبداً أن تجمعوا المال لضمان مستقبل أولادكم ، إنه خطأ ، بل إن ضمان مستقبلهِ أن تنشأوا منه إنساناً ، ألا تربوه معقداً ، وأن تكونوا صابرين في البيت ولا تهابوا المشاكل . من الطبيعي إذا جاء الصبر ، وأصبح الإنسان لا يهاب شيئاً (كما قال القرآن) ستصلح جميع الأمور . إن القرآن الكريم يَمُنّ على النبي الأكرم (ص) في سورة ألم نشرح وهذهِ هي أول منّة يَمِنّ بها على النبي الأكرم (ص) :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ألمْ نشرحْ لكَ صدركَ ووضعنا عنكَ وزركَ الذي أنقضَ ظهركَ ورفعنا لكَ ذكركَ ، فإنّ معَ العسرِ يُسراً ، إنَّ معَ العسرِ يسراً ، فإذا فرغتَ فانصَبْ وإلى ربِّكَ فارغب ﴾[1] .

أيها النبي ، ألم نشرح لك صدرك لكي تستطيع مواجهة المشاكل ؟ ثم تأتي المنّة الثانية : **﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾** ، والثالثة : **﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾** الذي أنقض ظهرك ، ثم يقول : إذا كان الإنسان منشرح الصدر صابراً ومقاوماً وكما يقول القرآن : أن لا يكون هلوعاً، وأن لا يهرب من الساحة لمجرد حدوث قضايا بسيطة . الناس المصابون بضعف الأعصاب يفرّون من مواجهة الصعاب ، ويرتفع صراخهم ، وإذا كانوا لا سامح الله ـ سيئي اللسان فوامصيبتاه ـ وكما يقول القرآن : **﴿ فإن معَ العسر يسراً ، إنّ مع العسر يسراً ﴾** عندما تحدث لكم مصيبة ، إذا صبرتم على المشاكل فستسهل عليكم الأمور .

---

(١) سورة الانشراح ، الآيات : ١ ـ ٧ .

إنكم تستطيعون حل المشكلة وستحل المشكلة ، الله يحل المشاكل ، كل شيء بيد الله :

﴿ قل اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ منْ تشاءُ وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذلُّ منْ تشاءُ بيدك الخيرُ إنّك على كلِّ شيءٍ قديرٍ ﴾[1] .

العزة والمذلة بيد الله . ومن أجل أن تُحل المشاكل فإنَّ الأرضية مُمهَّدة لنا ، ولكن يد الله ينبغي أن تحل المشكلة . إذا كانت لديكم مشكلة حاولوا أن يكون الله محامياً عنكم ، الآية الكريمة تؤكد كثيراً على أن المشكلة ستُحل : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ فيها خمس أو ستة تأكيدات ، معنى ذلك أن تكون صابراً ، إعلم وكن واثقاً ، ولا شبهه في ذلك : أن الله سيحل مشكلتك ، وإذا لم يحصل ذلك ، فإن الجزع والفزع من الانعكاسات الأولية لذلك .

ينقلون جملة حول مجنون ليلى (خرافة كانت أم حقيقة إلا أنها حقيقةً هكذا) بأنه أخيراً تم الاتفاق على تزويج ليلى بمجنون ، ذهبوا إلى الخطوبة ، ولكن عندما ذهبوا ظهرت تجاعيد على جبين مجنون من أثر الحزن ، أخذوا مجنوناً إلى هناك ، فلم يوافقوا على زواجه بليلى بسبب تجاعيد وجهه .

أحد العلماء النفسانيين لديه جملة رائعة ، يقول : تجاعيد وجه مجنون ، أحدثت تجاعيد في قضية زواجه ، كم هي رائعة ، عدم الصبر يجلب التجاعيد ، الجزع والفزع يجلب التجاعيد ، كفران النعمة ، والصراخ والضجيج عند الله يجلب التجاعيد ، إن هذا لا يحل المشكلة ، وأن معظم الأدعية التي لا تستجاب تنبع من هنا ، كأنه أقرض الله قرضاً :

﴿ إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً ، إذا مسّهُ الشرُّ جزوعاً ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٢٦ .

(٢) سورة المعارج ، الآيتان : ١٩ و ٢٠ .

البحث السابع

« ملكة الصبر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول الحرب التي تدور رحاها دائماً في داخلنا باسم الجهاد الأكبر ، وهي الصراع الدائر بين بعدنا المعنوي الذي يُسمىٰ الروح ، وبعدنا المادي الذي يُسمىٰ الجسم ، وهذا الصراع مستمر يقول أحد الشعراء الترجمة :

النفس غول لا يموت إن النفس مغمومة إذ لا أداة لها

حتى عندما يبلغ الإنسان من العُمر عتيّاً ، فإن الكثير من الغرائز تكتسب حيوية وشباباً أكثر . النبي الأكرم (ص) يقول :

« **يشيب ابن آدم وتشب فيه الخصلتان الحرص وطول الأمل** »[1] .

بمعنى أنه قد يشيب المرء ، إلا أنه لم يهذب نفسه تشب وتحيا فيه خصلتان الحرص وطول الأمل .

هذهِ الحرب الدائرة في داخلنا ليست حرب سنة واحدة أو عشر سنوات ، إنها حرب مستمرة دائماً ، وانتصار الإنسان في هذهِ الحرب أمر صعب للغاية ،

---

(١) الخصال ، المجلد الأول ، ص ٨٤ .

كيوسف الصديق يعوذ بالرب ليتمكن من الظفر في هذهِ الحرب وأخيراً إذا لم تأتِ قوة من الخارج فنحن مهزومين لا محالة وإذا انتصرنا في هذهِ الحرب سنكون مرفوعي الرأس ، إن معنى الإنسانية هو الانتصار في هذهِ الحرب وكما يقول القرآن الكريم سنكون فائزين في الدنيا والآخرة ، وإذا هُزمنا في هذهِ الحرب سنكون مطأطئي الرأس إلى الحد الذي يموت فيه عقلنا وضميرنا الأخلاقي ، نصل إلى الحد الذي نصبح فيه أدنى من الحيوان ، وأشد فتكاً ، لا سامح الله ، أن يهزم أحدُنا في هذهِ الحرب .

من أجل الانتصار في هذهِ المعركة عرّف لنا القرآن الكريم بعض القوى وإذا تعرفنا على هذهِ القوى استخدمناها فنحن منتصرون لا محالة . أولىٰ القوى التي تحدثنا عنها ، الاهتمام بواجبات الإسلام وبالأخص الصلاة ، إذا حدث للمرء تفاعل ذاتي عندما يحين وقت الصلاة ، فإن ذلك مفيد جداً لتقوية إرادته وروحه . القرآن الكريم يقول : إن ذلك التفاعل له تأثير ، وقد أثبتت التجارب صدق هذهِ المقولة ، ويؤكد علماء الأخلاق والتربية هذهِ المقولة أيضاً . من الطبيعي أن ظهور هذا التفاعل الذاتي يحتاج إلى تواصل وديمومة ، لكي يصل المرء إلى مرحلة يشعر فيها بتفاعل في ذاته وكأنه أضاع شيئاً ما لدينا روايات من جميع الأئمة الطاهرين (ع) حول هذا الموضوع .

عندما كان يحين موعد الصلاة ، كان أمير المؤمنين (ع) يشعر باضطراب في ذاته ، كان لون وجهه يتبدل ، عائشة تقول عندما كان المؤذن يقول : الله أكبر كان لون وجه النبي (ص) يتغير ، ولم نكن لنتعرف عليه وكان يقول : « حان وقت الصلاة » ، إنّ هذا الأمر يحتاج إلى ممارسة ، على كل حال القرآن الكريم يقول : الاهتمام بالواجبات يوجد قوة لتهذيب النفس ، والنصر في هذهِ المعركة الداخلية « **واستعينوا بالصبر والصلاة** » .

هذهِ القضية أهميتها كبيرة جداً لدى القرآن الكريم ، وروايات أهل البيت (ع) وعلماء التربية والتعليم .

أنتم من خواص الناس الذين تصنعون المجتمع ، وسعادة الجيل القادم

رهينةٌ بجهودكم ، عليكم الاستعانةِ بأداء كافة الواجبات من أجل النصر ، عليكم الاستعانة بالصلاة .

الموضوع الثاني : الصبر ؛ الذي يُقسم إلى ثلاثة أجزاء :
الصبر في المشاكل .
والصبر في العبادة ،
والصبر عند المعصية .

وفضيلة الصبر حسب الترتيب المذكور بمعنى أن الصبر في المشاكل ـ من وجهة نظر القرآن ـ له فضيلة كبيرة ، الصبر في العبادة فضيلة أكبر ، والصبر عند المعصية فضيلة أكثر من الصبرين المذكورين ، إن الصبر هو مصدر الإعمار ، بمعنى يمكن أن نسلك طريق المئة عام في لحظة واحدة ، كما سلك الكثير من العرفاء طريق المئة عام خلال لحظة واحدة ، وذلك من خلال الصبر عند المعصية .

الصبر في المشاكل موضوع مهمٌ جداً والقرآن الكريم يوصيكم بالصبر في المشاكل ، في نهاية سورة الفرقان حين يتحدث عن صفات المؤمن يقول :

﴿ وعبادُ الرحمٰنِ الذينَ يمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطبهمُ الجاهلونَ قالوا سلاماً ﴾(1) .

بمعنى أن الرجل المسلم الذي يمكن أن نطلق عليه اسم عبد الله من أولىٰ صفاته أنه ليس أنانياً ، إن الأنانية لا تتفق والإيمان . صفة الإنسان هي أن يكون صابراً ، إذا تعرض له شخصاً جاهل لا يواجههُ بالمِثْلِ فحسب ، بل يخاطبهُ بلغة مرنة **﴿ وإذا خاطبهُم الجاهلونَ قالوا سلاماً ﴾** وعندما يلتقي بإنسانٍ جاهل وعنيد يبادرهُ بالسلام ويتحدث إليه بليونة ويفحمهُ بمرونة .

هنالك إشارة إلى بحثنا هذا في بداية سورة المزمل ، وهي مفيدة جداً لكم أيها المعلمون الذين تتعاملون مع الولد والشاب الذي لم يختمر فكرهُ بعْد . وهذهِ قوى يجب أن نأخذها من الخارج ، في هذهِ السورة يخاطب القرآن الكريمُ

---

(1) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .

النبي (ص) ، يا أيها النبي إن على عاتقك عبئاً ثقيلاً وعليك أن تأخذ قوة من الخارج ، يحدد بعض القوىٰ ثم يحدد في نهاية المطاف قوة أخيرة ، ألا وهي قضية الصبر . ﴿ **واصبرْ على ما يقولونَ واهجرهمْ هجراً جميلاً** ﴾(١) .

وبكلمةٍ أُخرى يا أيها النبي ، عليك بالصبر في مواجهة الناس الذين لم يُختَمروا بعد ، ليس عن طريق الغضب والتجهم . ﴿ **واهجرهمْ هجراً جميلاً** ﴾ .

ومن خلال هذهِ الخصوصية أعرض عنهم ، وعندما تعرض عنهم سيَفيقونَ إلى حالهم ويتربّون ثم إنك تستطيع أن تستعين بقوىٰ أخرىٰ ، لتقوية الإرادة ، وتهذيب النفس وتفوز في الصراع الداخلي الذي أسماهُ النبي الأكرم (ص) الجهاد الأكبر أرجو منكم جميعاً، أنتم المعلمون يجب أن تَهتمّوا بالصبر في المشاكل ، لأن الشباب والأولاد في هذهِ السن في حالة من التمرد العاطفي وطول اللسان ، لأن الشاب عادةً لم تختمر أفكارهُ بسبب عدم نضجهِ وقلةِ تجربتهِ .

الموضوع الآخر ، أن التلاميذ أمانة في أيديكم وعليكم أن تصونوا الأمانة . فأفضل السبل لصيانةِ الأمانة ، ولكي لا تفقدوا حيويتكم ونشاطكم المعنوي والمادي عليكم بالصبر في مواجهة هؤلاء الأولاد والشباب ماذا نفعل لكي نمتلك ملكة الصبر ، يعني أن الرجل السريع الغضب ولا يملك أعصاباً قوية . . . ماذا ينبغي عليهِ أن يفعل ؟ .

هنالك طرق عديدة يستطيع الإنسان من خلالها ترسيخ صفات الفضيلة ، وإحدى هذهِ الطرق هي الممارسة ، إذا لم تستخدموا عينكم اليمنىٰ لمدة شهر واحد ستصابون بالعمىٰ ، إن يدكم اليمنىٰ أقوى من يدكم اليسرى لماذا ؟ لأنكم تستخدمون يدكم اليمنى أكثر من اليد اليسرى لذلك تكون أقوى من اليد اليسرى ، هكذا هي أعضاؤنا وجوارحنا ، كلمة استخدمناها أكثر تستقوىٰ أكثر ، لذلك يقول الفلاسفة وعلماء الأخلاق ، والغرماء وهكذا يستفاد من روايات أهل البيت (ع) : إن الأفعالَ تصنعُ لنا ملكة ، بمعنى أن أعمالنا هي التي توفّر لنا

---

(١) سورة المزمل ، الآية : ١٠

ملكة جيدة أو سيئة . مثلاً إذا لم تستطيعوا الصبر في البيت، يشعرون بالغضب أمام الطفل ، أمام التلاميذ بشكلٍ خاص فإن جميع هذهِ التصرفات تصنع لكم ملكة ، إلى أن تصبحوا تدريجياً غير قادرين على تحمل المسؤولية ، ناهيك عن تأثيرات ذلك على الحالةِ البدنية ولكن لو حدث العكس ، إذا واجهتم المتاعب في البيت بالصبر والحلم من الحلم يأتي الصبر ، من التحلم أي الاعتماد على الذات يأتي الحلم ، يجب أولاً التحلّم ، عندما تصبرون على المتاعب ، تصبرون في اليوم الأول إلى الربع ، يزول عندها ضعف الأعصاب تدريجياً هذا الموضوع مهم جداً ، لأن بحثنا ليس بحثاً بدنياً . إن أكبر الفضائل في الإسلام أن يكون الإنسان صابراً ، وأن يتحلّى بالصبر في المشاكل ، وأنجح السبل للصبر في المشاكل هو التحلّم ، الممارسة تثمر الملكة ، الممارسة أي العمل من وجهة العيون والأذن واللسان والأعصاب إذا تحلّيتم بالحلم في اليوم الأول في اليوم الثاني سيزول عنكم ضعف الأعصاب في غضون ستة أشهر وهكذا توجدون ملكة الصبر في أنفسكم ولكن من الواضح أن الصبر في العبادة أمرٌ صعب للغاية ، لدينا رواية عن الإمام الباقر (ع) يقول : احتضنني والدي الإمام السجاد (ع) وهو يحتضر وقال : إن الإمام الحسين (ع) احتضنني في يوم عاشوراء ، وقال لي هذهِ الجملة ـ يتّضح أنها حساسة جداً ـ أمير المؤمنين (ع) احتضن الإمام الحسين (ع) وقال : « **يا بني إصبر على الحق وإن كان مرّاً** » .

عندما يريد المرء عدم التفريط بالحق فإنه عمل شاق حقاً ، ولكن إذا استطاع أن يصبر في هذا الحق سيصل إلى ما ينبغي سريعاً ، ليس فقط ينتصر في تلك المعركة بل إن القرآن يقول :

﴿ إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا اللّهُ ثمَّ استقاموا تتنزَّلُ عليهمُ الملائكةُ أنْ لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنةِ التي كنتمْ توعدونَ ، نحنُ أولياؤكُم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ﴾(١) الآية بليغة جداً ، المؤمن يقول : يا إلّهي ، أن يكون مسلماً ثابتاً في إسلامه ، قد يقول إني مسلم ، ولكنه يتظاهر بالإسلام ، وقد يقول : إني مسلم ويطبّق الإسلام عملياً ، وهذا أمرٌ صعب يُدعى بالصبر في العبادة .

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان ٣٠ و ٣١

القرآن يقول : إذا أصبح المرء هكذا : **﴿ تتنزّل عليهمُ الملائكةُ ﴾** يشاهد الملائكة ، تتنزل عليه الملائكة ، يقولون له نحن نُعنيك ، ينصحونه ، يقول له لا تقلق من المستقبل ، ولا تحزن على ما مضىٰ **﴿ ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا ﴾** الملائكة يبشرونه بالجنة : **﴿ وأبشروا بالجنةِ التي كنتمْ توعدونَ ﴾** ثم يقول له : **﴿ نحنُ أولياؤكم ﴾** نحن أصدقاءك نحن نسندك في الدنيا والآخرة وقد وصَلَ بعض العارفين وأصحابِ السلوك إلى هذا المستوى وأنا أعرفهم .

كان المرحوم آخوند كاشي أحد علماء أصفهان رجلاً عجيباً ويقول : هذهِ الآية الشريفة التي تقول : **﴿ أولي أجنحةٍ مثنى وثلاثَ ورباع ﴾**(١) أن الملائكة لديهم أجنحة ، لا يمكن للمرء أن يفهم ما معنى أن للملائكة أجنحة ؟ كما أنَّ الشهيد الثاني ـ عليه الرحمة ـ يذكر في كتاب « منية المريد » أن الملائكة يحضرون في جلسة العلم ، ويفرشون أجنحتهم لكي يجلس الحاضرون في الجلسة على أجنحتهم ، ثم يفتخرون بأن أجنحتنا سجادة طلاب العلم ، ولا يمكن استيعاب هذهِ الحقيقة .

آخوند كاشي ، قال : إنهُ اطلعَ على حقائق القرآن بشكلٍ كشفي ورأى الملائكة . إن الصبر في العبادة لا يصل بالمرء إلى مرتبة يرفع هامتهُ فيها أمام كافة الغرائز فحسب ، بل يمكنه أن يوصل الإنسان إلى عالم الملكوت ، وكما يقول المعري يمكنه أن يصل إلى مكان لا يعلمهُ سوى الله .

« **شعر فارسي وترجمته** » :

هل شاهدت تحليق الطير ، أخرج لترىٰ كيف يطير الإنسان ، بعيداً عن طوق الشهوات .

الإنسان يستطيع التحليق ، كما يستطيع تسخير الفضاء ، وعالم الملكوت والجبروت وأن يصل إلى مكان يقول عنهُ جبرائيل : « **لو دنوت أنملة لاحترقت** » اذهب ، اذهب ، فليس هذا مكاني إنه مكانك . أنت تستطيع التحليق والوصول

(١) سورة فاطر ، الآية : ١

إلى مكان لا يعلمهُ سوى الله .

إذا قام الإنسان بممارسة الصبر في العبادة ، سيشعر بلذة عجيبة تدريجياً ، يصبح فيها كملائكة الرحمن ، يعمل أتوماتيكياً . إذا أردتم الاقتداء بشخص ما وتقليد أحد المراجع ، وإذا أراد القاضي أن يقوم بعمله وإذا أراد الشاهد أن يشهد ، فيجب أن يكون عادلاً ، لا يمكن الاقتداء بالصلاة بأيٍّ كان ولا يمكن لأي شخص أن يكون قاضياً أو قائداً أو مرجعاً بل يجب أن يكون عادلاً .

من هو العادل ؟ العادل هو الذي تكون واجباته منتظمة ولا يرتكِب المعاصي ، لذلك إذا كذب (العياذ بالله) أحد مراجع التقليد ـ أدام الله ظلهُ تسقط عنه القيادة والمرجعية تلقائياً ، وإذا استغاب أحد المراجع أحداً يسقط من المرجعية تلقائياً ، لا حاجة إلى تنحيتهِ عن منصبه ، إنه يتنحىٰ تلقائياً ، إذا نظر إمام الجماعة إلى امرأة نظرة شهوانية ، فهو يسقط من العدالة تلقائياً .

الفقهاء يقولون : ليس فقط لا يجب أن يرتكب الذنوب ، بل عليهِ أن يؤدي واجباته بانتظام وعن ملكةٍ ، بمعنى أن تكون ملكة العدالة شرطاً وملكة العدالة هي أن تعملَ أتوماتيكياً وأن يصبح عدم ارتكاب الذنوب أمراً عادياً بالنسبة له ، ثم يرتقي مكاناً أعلى من ملكة العدالة ، بحيث تصبح المناجاة أرقى لذة ، في منتصف الليل ، لذة العاشق بمعشوقه ، وأرقى لذة للعاشق هي أن يختلي بمعشوقهِ ، شيئاً فشيئاً يصل الإنسان إلى هذهِ المرحلة .

يؤكد مؤرخو التأريخ حول مريم العذراء : إنها نُفيت إلى الصحراء ، وعيسىٰ ﴿ خائِفاً يترقب ﴾ يتجهُ مع والدته ، أرادوا أن يقبضوا عليهما ويقتلوهما ، كانا صائمين ، ذهب عيسى (ع) وأحضر مقداراً من الكلأ للإفطار ، ولكن والدته كانت قد ماتت ، حَفَرَ قبراً لوالدتهِ ودفنها فيه . من الواضح عندما توفيت مريم العذراء ذهبت عند الرب في الجنة ، غطى أعلى مكان في القبر ، ثم ناداها يقول : يا أمي هل تريدين العودة إلى الدنيا ؟ قالت : أريد أن أعود ! سألها : لماذا ؟ حقاً إننا نعجب أيضاً لماذا تريد مريم أن تعود إلى الدنيا ؟ ليس لديها بيت أو زوج أو طعام لذيذ ولم تستفد من مواهب الطبيعة ، ولكنها تقول :

أريد أن أعود إلى الدنيا ، قال : أمّاه لماذا تريدين أن تعودي إلى الدنيا ؟ أجابت : لأني أريد أن أصوم في الأيام الحارة جداً ، وأن أتوضأ في الليالي الباردة جداً .

لا تتصوروا أن هذهِ الأمور فرضت عليها ، كلا ، فقد غدت أكبر لذة لمريم العذراء، وهي أن تنهض في منتصف الليل ، وتتوضأ وتناجي الرب : ﴿ **أَمَّنْ هُو قَانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّهِ** ﴾[1] .

كيف حال أولئك الذين يتعاملون مع الله ، اللذين صبروا في العبادة فغدا الصبر في العبادة شيئاً فشيئاً ملكه فيهم ، انتهت حرب الداخل ، لجموا الغرائز ، وهَذّبوا البُعْدَ المادي ووصلوا إلى المنزل الثالث . المنزل غدا لذته الوحيدة ، منزل القلب ، قلب الليل ومناجاتهِ لربه إنها أكبر لذة بالنسبة له .

الصلاة بالأخص صلاة النافلة ، القرآن والتوسل بأهل البيت (ع) وبالخصوص إذا استطاع إطعام مسكين وأن يُفرِّح أحداً ما حتى الكلب أو القطة . أرجوكم أن تفرّحوا قلوب الأطفال الذين تحت أيديكم ، أن تسخّروا قلوبهم ، وفي هذهِ الحالة تستطيعون بلوغ الرُقي سريعاً . إن هؤلاء الأطفال لا ذنب لهم ، ولا يرتكبون المعاصي ، لذلك تُؤخذ ابتسامتهم مأخذ الجد كما تؤخذ الآه التي يطلقونها مأخذ الجد ، إذا تأوهوا من جرّاء تصرفكم فالأمر صعب مثلاً أنت عصبي أو كنت عصبياً في البيت ، وجئت إلى المدرسة ، ثم تطاولت على طفل أو شاب لم يكن مذنباً ، إذا تأوه هذا الطفل أو الشاب من الممكن أن تجتث هذهِ الآه جذورك ، كلا ، قد لا تجتث جذورك فحسب ، بل من الممكن - لا سامح الله - أن تفوز بحسنِ العاقبة وقد تؤدي إلى بؤس وشقاء أطفالك ، قد تؤدي إلى التقاعس في تأدية الصلاة بحيث تنكر الصلاة تدريجياً وذلك بدلاً من أن تناجي ربك في أطراف الليل وآناء النهار .

المرحوم الكليني - رحمة الله عليه - ينقل رواية في كتاب الكافي إذ يخاطب العبد المؤمن : أيها العبد المؤمن ، لا تستخف بالذنوب ، من الممكن

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٩ .

أن ترتكب ذنباً صغيراً ، إني أخاطبك بأني لن أصفح عنك ، وأنك لن تستطيع التوبة . ثم قال : لا تستخف بالثواب ، لأنه من الممكن أن يكون عملٌ ما في نظرك صغيراً ، ولكنه من منظاري كبير جداً ، ويؤدي ذلك أن يصلك خطاب : يا عبدي ، لقد فزت وسعدت ، سعدت أنت كما سعد أولادك .

كان المرحوم السيد الرشتي أحد المراجع الكبار ، وذي منزلةٍ عاليةٍ في أصفهان وكان حين يُجنّ الليل ، تنتابهُ حالة من الخوف والرجاء ، وكان يضع الطوق في رقبته ويضجّ بالعويل والصراخ ، حيث باتت قدرته تضاهي قدرة ظل السلطان ابن ناصر الدين شاه ، الذي كان يريد ذمة الأمور ، فجاء شحاذ إلى السلطان ، فقال له السلطان : لماذا جئت عندي ، إذا أردت العلم اذهب إلى مسجد السيد ، إذا أردت القدرة والمال اذهب إلى مسجد السيد ، وحقاً إنه كان هكذا ، لقد أصاب ظل السلطان ، والأدهىٰ من ذلك أنه بنىٰ مسجداً في أصفهان باسم مسجد السيد ، وهو راقٍ جداً وفيه روحٌ ومعنوية عجيبة (جربتها شخصياً) مع الأخذ بعين الاعتبار أن هنالك مساجد راقية جداً في أصفهان كمسجد الإمام (مسجد الشاه سابقاً) والنشاط والخدمة التي تقدم في مسجد السيد لا يُضاهيها أي نشاط أو خدمة في المساجد الأخرى .

كيف وصل السيد إلى هذهِ المرتبة ؟ هو شخصياً قال : إن كلباً أوصلهُ إلى هذهِ المرتبة . وروىٰ قائلاً : كنت طالباً في النجف ، ومرّت عدة أيام لم يصلني خلالها مالٌ من إيران ، صَبرتُ عدة أيام ، ولم أُخبر أحداً عن ذلك عزة النفس - أمرٌ هام - ولكن حدثت لي شبهة الوجوب ، فاستقرضت من رفيقي قدراً من المال ، استقرضت المال ليلاً ، وقررت أن آكل خبز وپاچة (رأس خروف) لذلك اشتريت خبزاً وپاچة في الصباح ، وعندما كنت عائداً إلى المنزل شاهدت كلبةً وقعت في مجاري المياه ، (جو النجف في الصباح يكون بارداً أحياناً) تتضور جوعاً ومعها ثلاثة كلاب من صغارها ، وقعوا على ثدي الكلبة في حين كان ثديها قد نضب من الحليب ، فشعرت بالأسى لحال تلك الكلبة ، فقلت أخاطب نفسي : لقد تحمّلنا الجوع فلنتحملهُ هذا الصباح أيضاً . إنه أثر وضحىٰ ، يقول : غمست الخبز في ماء الباچه ووضعت الصحن أمام الكلبة .

فأكلتهُ الكلبة ، ثم نهضت ، وعفّرت الصحن ـ وهذه إحدى الأوامر الإسلامية المهمة ، إذا أكل أو شرب الكلب من صحن ، يجب أن يمرّغ بالتراب اليابس ، ثم يُغسل بالماء ليطهر ، وإذا لم يمرّغ بالتراب اليابس فلو غسلوه ألف مرة في البحار أو إذا وقع سنة واحدة في المحيط لن يطهر ، ويسمى هذا العمل « التعفير » ويقال إنه ثبت أخيراً أن ميكروب فم الكلب لا يُقتل إلا بواسطة الكلب ، وهذهِ إحدى معجزات النبي الأكرم (ص) طبعاً إن انتساب هذه الأمور لا تليق بشأن النبي (ص) ، إن النبي (ص) أسمىٰ من أن يكون التعفير معجزة لنا لكي يزداد إيماننا به .

يقول : ذهبت وأعدت الصحن ، وبعدها رزقني الله مالاً من حيث لا أحتسب ، إذ لم تمضِ فترة حيث جاءَ شخصٌ من شفت ـ كان من أهالي شفت ، وشفت هي إحدى مدن محافظة جيلان، وقال : الحاج الفلاني توفىٰ وأوصى بثلث ماله لك وهو مزرعة . يقول : راجعت نفسي ، فوجدت أنه في ذلك الوقت الذي كنت أطعم فيه الكلبة الخبز والباچة ، عصر نفس ذلك اليوم جرت هذهِ الوصية لي ومنذ ذلك الوقت أحرزت في أصفهان تلك المكانة والمرجعية .

أجل إنه كان يردد : إذا استطعت أن أخدم الإسلام فإن ذلك رهنيٌّ بأني تمكنت أن أكسب ودّ الكلبة ، ولا تتعجبوا لأن التمتع بالرحمة الإلٰهية يحتاج إلى أرضية ، والأرضيات تختلف عن بعضها البعض ، أحياناً يستطيع الإنسان أن يمشي طريق المئة عام خلال لحظة واحدة . كان فضيل بنِ أياز ، رجلاً سيء الخلق جداً وشقياً ، في أحد الأيام مرّ من مكانٍ فشاهد فتاةً كانت جالسة على حافة المياه تغسل الصحون ، فوقع نظرهُ عليها فتعلّق بها وجاء إلى الفتاة وقال : اذهبي إلى أمك وأبيك وقولي لها : أن يزوّقوكِ ويضعوك في غرفة لكي آتي أنا عند المساء ، ثم ذهب . جاءت الفتاة وأبلغت أمها الرسالة .

فساد القرية الوجوم ، الجميع كانوا يقولون : ماذا نفعل ؟ هل نضحّي بهذهِ الفتاة من أجل القرية أم نقاوم ، إذا ضحّينا بهذهِ الفتاة من أجل القرية وزوّقناها ووضعناها في غرفة ثم يأتي فضيل ويذهب ، فنأمن شره ، وإذا لم نفعل

ذلك سينهب القرية ، ويرتكب المجازر ، ويهلك الجميع في هذهِ الليلة . أخيراً قبِل الجميع حتى الأب والأم بأن يضحّوا بالفتاة من أجل القرية ، وقد وافقت الفتاة على ذلك . زوّقوا الفتاة ، ووضعوها في غرفة ، ولكن القرية في مأتم ، الجميع يبكي ، الفتاة تبكي ، الأب يبكي ، والأم تبكي .

جاء فضيل بن إياز ، كان شريراً إلى درجة ، يقول التأريخ : إنه لم يدخل من الباب بل جاء من فوق سطح المنازل . في ذلك الوقت كان رجلاً عجوزاً يتلو ما يتيسر من القرآن الكريم . الجميع بانتظار وصول فضيل بن أياز وهذا العجوز الذي كان يتلوا القرآن بصوتٍ عالٍ هو أحد جيرانهم عندما وصل إلى هذهِ الآية ، كان فضيل فوق السطح : ﴿ **ألم يأنِ للذينَ آمنوا أنْ تخشعَ قلوبهم لذكرِ اللّهِ** ﴾[1] ، قال : يا منْ ثقلت قلوبهم ، يا أيها الذين تكاثرت الذنوب تلو الذنوب في قلوبهم ، ألم يأتِ وقتٌ تلين فيه قلوبكم للقرآن ؟ ألم يحن الوقت لكي تنفضوا ، هذهِ القلوب المفعمة بالظلام بواسطة القرآن ؟ هذهِ الآية أثّرت على فكر فضيل ، وقلبتهُ رأساً على عقب ، قال : إلّهي نعم حان وقت ذلك ، ثم أجهش بالبكاء . ومن هنا صاح : يا أهالي القرية ، يا أيها الأب ، ويا أيتها الأم ، ويا أيتها الفتاة اصفحوا عني ، لقد تبت ، لقد أخطأت ، نزل من فوق السطح وذهب حيث يقال : إنه وصل إلى المقامات الراقية وبدأ يتعامل مع الملائكة ، استجيب دعاؤه وأخيراً وصل إلى مرحلة أن يقتدي به العرفاء والصالحين ويقال أيضاً : إن فضيل أحد المعلمين والمرشدين والأكابر وحقاً إنه رجل كبير .

أجل ، يستطيع المرء أن يمشي طريق المائة عام خلال لحظة واحدة ، أنتم أيها الأعزاء ، هؤلاء الأولاد أمانة بأيديكم ، وأنتم يمكنكم أن تصلوا إلى ما تريدون عن طريق إيجاد جو البهجة والفرح للأولاد (في سبيل الله) وتذكروا أن تكون أعمالكم ذات صبغة إلّهية ، إذ يصل الإنسان إلى ما يريد من خلال ذلك :

﴿ **صبغةَ اللّهِ ومنْ أحسنُ منَ اللّهِ صبغةً** ﴾[2] .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٦

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٣٨

سخّروا قلوبَ الأولاد ، وذلك في سبيل الله ، ليس من أجل أبيه ، أو من أجله هو ، ليس فقط لكي تصبر وتكون معلماً جيداً ، بل في سبيل الله فحسب ، واعلموا أن ذلك سيؤثر على دنياكم وأولادكم وآخرتكم .

البحث الثامن

« إنعكاس الصبر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان البحث السابق حول جهاد النفس وقلنا إذا انتصر المرء في هذهِ المعركة يعتبر من أشجع الناس من وجهة نظر الإسلام . لذلك يَقول : « **أشجع الناس من غلب هواه** » هذه الحرب الداخلية ، أي المعركة بين البعد المعنوي للإنسان والبعد المادي مستمرة ، ونحن إذا أردنا النصر ، يجب علينا دائماً أن نتوخى الحذر وأن نستعينَ بقوةٍ من الخارج .

لقد حدد القرآن الكريم قوىً من الخارج إذا استقدنا منها فنحن منتصرون كان أحد هَذهِ القوىٰ ، الاهتمام بالواجبات وبالأخص « **الصلاة** » .

﴿ **واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ** ﴾[1] لقد قسمنا الصبر إلى ثلاثة أقسام :

١ ــ الصبر في مواجهة المشاكل .

٢ ــ الصبر في العبادة .

٣ ــ الصبر أمام المعصية .

وتحدثت بصورة إجمالية حول الصبر في مواجهة المشاكل ، والصبر في

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٥

العبادة ، أما البحث هنا فهو الصبر أمام المعصية . وهو أمرٌ صعب جداً ، ولكن إذا استطاع المرء أن يصبر ، يستطيع أن يقطع طريق المئة عام خلال لحظة واحدة . يذكرون قضية حول ابن سيرين :

كان ابن سيرين بزازاً ولعله كان أمياً ، ولكن مقامه العلمي وصل إلى مدى يستفاد من علمه حالياً ، هذا العامل البزاز (الأمي حسب الظاهر) أذهل الجميع في تعبير الرؤيا . هنالك سبعون نظرية مقدمة في العالم حول المنام الأحلام ولكن الاعتقاد السائد هو أننا لا نعرف حقيقة الأحلام تفسيره، وماهيتِهِ .

لقد منحِ الله ابن سيرين كرامة تفسير الأحلام لأنه تجنّب ارتكاب معصيته ، وتجنبه عن المعصية كان شبيهاً بيوسف. أحد معجزات وكرامات يوسف كانت تفاسيره للأحلام التي ورد ذكرها في سورة يوسف : جاءت امرأة عند ذلك البزاز ، واشترت قدراً من البضاعة . عندما أخذ ابن سيرين قماش تلك المرأة إلى بيتها واجه موقفاً حرجاً مفعماً بالمعصية ، ومن أجل أن لا يهوي إلى قعر هاوية المذلة تحجج بالذهاب إلى الطرق المائية ، ذهب ولوث نفسُه ، وعندما خرج من هناك كان ملوثاً من رأسِهِ إلى أخمص قدميه ، لذلك اضطرت تلك المرأة إلى إخراجهِ من البيت . كان ظاهره نجساً ، ولكن لم يتنجس ، بل تنوّر بنور الله ، عندما طهر نفسه وذهب إلى المحل ، شعر بنورٍ يَغمرُ وجوده إذ قطع طريق المائة عام في لحظة واحدة . قلت : أن الأخصائيين بعلم النفس مذهولين من علم وكرامات وتفسير أحلام ابن سيرين ، لذلك ومن أجل الاجتناب من الذنوب يمكن قطع طريق المائة عام في لحظة واحدة . إذ أردتم تقوية الإرادة عليكم باجتناب الذنوب مرات عديدة يسألونني ماذا نفعل لتقوية الإرادة ، لقد كتب الأطباء النفسانيين الكتب حول هذا الموضوع ، ولكن كما يقول طلبة العلوم الدينية : ﴿ لا يُسمنُ ولا يغني منْ جوعٍ ﴾[1] لا فائدة من ذلك . الإسلام لديه نظرية ، يقول اعمل لتفهم ما معنى تَقوية الإرادة ، ماذا تعني ، ومن أين جاءت ، الإسلام يقول : اجتناب الذنوب تمنح تقوية الإرادة ، وتقوّي الجانب المعنوي للإنسان ، في تلك الحالة يستطيع الإنسان أن يرفع

---

(١) سورة الغاشية ، الآية : ٧

هامَتهُ عالياً أمام الشهوات والغرائز ، والانتصار في صراع الداخل الـذي يعتبر أكبـر معركـة يواجههـا الإنسان ، في تلك الحـرب ، التي يقول عنهـا الإمـام الحسين (ع) : في هذهِ الحرب ، لا ينتصر إلا الرجـل والشاب المسلم « إلا الفتى » . حقاً إنه كذلك النصر في هذهِ المعركة صعبٌ جداً ويحتاج إلى رجولة ومن أجل الحصول على النصر ينبغي التوجه نحو الإسلام ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ هي الاجتناب عن المعاصي ، ليس فقط تعطي ملكة العدالة ، بل تنصر المرء في هذهِ المعركة المصيرية معركة الداخل . إذا كانت القضية العدالة فحسب ، علينا أن نكون جميعاً منتهجين للعدالة يذكر أحد العلماء المبرزين في تاريخ التشيع إذا حصل لدينا شك في أن الشخص عادل أم لا ؟ علينا أن نقول إنه عادل . هذهِ الجملة تعني أن المسلم الشيعي يجب أن يكون عادلاً .

وضّحت لكم معنى العدالة ، وقلت بأن الإسلام يقول : يجب أن تكون في الشؤون الاجتماعية ، وإذا التزم الشخص بقضايا الزواج أو إمامة الجماعة أو القضاء أو الشهادة أو مرجعية التقليد يجب عليه أن يكون عادلاً . إن كافة الفقهاء ومن بينهم الإمام الخميني (رض) يقولون ليست العدالة أن لا يذنب فحسب بل من المفروض أن يمتلك المرء ملكة العدالة ، بمعنى أن يكون تلقائياً في تركه للذنوب وإنجاز كافة الواجبات .

إذن اجتناب الذنوب لا يوجد ملكة العدالة في الشخص فحسب ، بـل ينصرنا أيضاً في هذهِ المعركة الهامة أي معركة الـداخل . إذن إذا كنـا نريـد السعادة وتقوية الإرادة ، والانتصار في هذهِ المعركة علينا أن نجتنب الذنوب .

إن القرآن الكريم يتحدث حول الإنسان المذنب وأول ما يبدأ بهِ القرآن هو أنه يعتبر السير في التأريخ أمراً ضرورياً ، قد تكون في القرآن ما يقرب أكثر من عشـرة آيات تحث الإنسـان على التعمق في التـأريـخ إذ يقـول : سيـروا في الأرض ، اعتبـروا يا أولى الأبصـار ، انـظروا لمـاذا وصـل بعض النـاس إلى السعادة ، لتقتدوا بهم وكذلك انظروا إلى الأسباب الكامنة وراء شقـاء وبؤس أفراد آخرين في الدنيا ، ولماذا سقطوا في هاوية المذلة والمسكنـة . تحدث القرآن مراراً حول المذنبين :

﴿ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذبينَ ﴾[1] ، ﴿ فانظر كيفَ كانَ عاقبةُ المجرمين ﴾[2] .

ونظير هاتين الآيتين كثير في القرآن يا أيها الإنسان سر في التأريخ وانظر عاقبة المذنبين ، انظر ما هي المحصلة النهائية للظالمين والمعاندين والمكذبين للحق ، ثم اعتبِرْ وتعَلَّمْ الأدبَ ممن ليسَ لَديهُم أدب ، إن القرآن ينذرنا في هذهِ الآيات ، فالذنب ولو كان صغيراً فهو ذنب ، بمعنى أن الكذب ذنبٌ كبير من وجهة نظرنا ، كبير إلى درجة أنه نقل عن موسى بن جعفر (ع) أنه في يوم القيامة يأتون بالشخص الكذّاب إلى المحشر فيعاقب بقضيب من نار قضيب مُحمرٍ من نار جهنم يأتون به ، ويولجونه في صدرهِ ويخرجونَهُ من ظهرهِ ، يُولجَونـهُ من جانبٍ ويخرجونَهُ من الجانب الآخر ويقولون : هذا جزاء الإنسان الكذّاب .

ويُعتبر القرآن الكريم الكذب في عدادِ الوثنيةِ ويَقول :

﴿ فاجتنبوا الرجسَ منَ الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزورِ ﴾[3] .

اتقِ شيئين ، الأول عبادة الأصنام ، والثاني الكذب .

إن للكذب ذنباً كبيراً ، ولكن بما أن الناس قد اعتادوا على الكذب لذلك أخذَتْ مهابتهُ من قلوبهم ، كذبةٌ واحدة تضرنا كثيراً ، وهكذا الغيبة ومعنى الغيبة أنكم لا تستطيعون أن تقولوا ذلك بحق إنسانٍ أمامَهُ . فإذا قلتم بحضورهِ فسينزعج وقد عرف قائد الثورة العظيم ـ رضوان الله عليه ـ في ذلك الكتاب الذي حَرَّرهُ حَول الاستغابة ، عرّف الاستغابة بما يلي : « ذكرك أخاك بما يكره » وهو الأمر الذي يكرههُ الناسُ إذا تحدثت بحضورهم في غيابهم فهذهِ غيبة ، إذا كان لدى الشخص صفةٌ سيئة ، وتحدث عنها في غيابه فهذهِ غيبةٌ أيضاً وإذا لم تكن لديه تلك الصفة السيئة فهذهِ تهمة (قذف) وامصيبتاه إن ذنبها أكبر من قتل النفس .

لقد غابت عن قلوبنا مهابةُ الغيبة ، إن ذنبها كبيرٌ لدرجة أن القرآن يعتبرُها

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٧ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٨٤ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٣٠ .

مساويةً لأكل لحم الميت :

﴿ **ولا يغتبْ بعضكمْ بعضاً أيُحِبُّ أحدكمُ أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ ميتاً فكرهتموه** ﴾[1] .

بمعنىٰ هل تريد أن تأكلُ مَيتاً عَفِناً بعد إخراجهِ من القبر ثم يثبّت ذلك في ورقة أعمالكم ؟ كم هو قطيع ، القرآن يقول : هٰذهِ هي الغيبة بأجلىٰ مصاديقها ، بمعنىٰ ، لا تريدون أن تأكلوا لحم الميتِ ، إذن لا تستغيبوا مُسلِماً .

من الممكن أن تؤدي استغابةُ (بمعنى توجيه إهانة إلى شخصية المسلم) إلى أن يخاطبك الرب : « يا عبدي لن أغفرَ لك بعد الآن » .

« **من أهان ولياً ، فقد بارزني بالمحاربة** »[2] إذا أهان أحدٌ شخصية المسلم فإن ذنبَ ذلك يساوي محاربة الله ، حرب صدام ضد الشيعة كم ذنبها كبير ؟ أما النبي (ص) فيقول : « **من أهان ولياً فقد بارزني بالمحاربة** » إذا أهنت شخصية المسلم ، أو إذا جرحت شعوره بكلمة نابية ، كأنك حاربت الله ، لذلك من الممكن أن تزول مهابة الذنب من قلوبنا ، ولكن ذلك يوجه ضربة عنيفة لروحنا ، لأنه يُضعف إرادتنا وتزول العناية الإلٓهية من فوق رؤوسنا :

﴿ **واللّهَ لا يهدي القومَ الفاسقينَ** ﴾[3] .

﴿ **إنَّ اللّهَ لا يهدي القومَ الظالمينَ** ﴾[4] .

﴿ **إنَّ اللّهَ لا يهدي القومَ الكافرينَ** ﴾[5] .

لعلها تكررت أكثرَ من خمسين مرة إن يَد العنايةِ الإلٓهية لن تكونَ فوق رأس الإنسان المذنب فويلٌ لمن لا تكون فوق رأسه يَدُ العناية الإلٓهية .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٢

(٢) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٤١ .

(٣) سورة الصف ، الآية : ٥

(٤) سورة القصص ، الآية : ٥٠ .

(٥) سورة المائدة ، الآية : ٦٧

أعزائي ، إقرأوا دائماً هذا الدعاء المنقول عن النبي (ص) ، النبي (ص) كان يقول مراراً : **«اللهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً»** .

إذا أوكل الله الإنسان إلى نفسهِ لحظة واحدة ، فهو تَعيسٌ وشقيٌّ ، لن يكون مهزوماً في هذهِ الحرب فحسب ، بل قد يهوي من قمة العزة (كما يقول القرآن الكريم) إلى أسفل السافلين .

لدينا في جهنم أسفل السافلين ، وكل هذهِ الأمور نشاهدها في هذهِ الدنيا والعذاب الموجود هناك موجود هنا أيضاً .

الشيء الثاني الذي نستنتجه من القرآن هو **﴿ واللّهِ لا يهدي القوم الفاسقين ﴾** إن يد العناية الإلٓهية ليست فوق رأس الإنسان المذنب .

إن الله يكل الإنسان المذنب إلى نفسهِ ، ومن البديهي أن تكون حياتهُ مظلمة ، القرآن الكريم لديه تمثيل حول الإنسان المذنب إذ يقول :

﴿ ومنْ يشركْ باللّهِ فكأنّما خرّ منَ السماءِ فتخطفهُ الطيرُ أو تهوي بهِ الريح في مكانٍ سحيقٍ ﴾[1] .

إذا سقط شخص من السماء السابعة كيف يتمزق ؟ وعندما يسقط على الأرض وتحيط به الكواسر وتنهش لحمه كم سيكون مصيره تعيساً ؟ إذاً ـ والعياذ بالله ـ سقط من الطائرة وسقط في مكانٍ لا يراه فيه أحد ، كم سيكون ذلك مرعباً بالنسبة له ؟ وكم سيكون الموقف صَعباً ؟ القرآن يقول : هذا هو الإنسان المذنب ، يقول : الذنب يهوي بك إلى الأسفل ويمزقك إرباً إرباً ، حيث تحيط بك الكواسر وتُترك ممزقاً . **﴿ ومنْ يشركْ باللّهِ فكأنّما خرّ منَ السماءِ ﴾** هنا الشرك ليس شرك عبادة الأوثان ، بل شرك الذنب واتّباع الشيطان والشهوات . القرآن يخاطب الأشخاص الذين اتّبعوا الشهوات بأنهم مشركون : **﴿ أفرأيتَ منْ اتّخذ إلٓههُ هواهُ وأضلّهُ على علمٍ ﴾**[2] وهذا يعني أن الذي يتّبع الشهوات يُعتبَرْ من عبدة الأصنامِ وشهواتُه هي صنمة .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٣١ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣

في سورة يسٓ نقرأ : ﴿ ألم أعهدْ إليكمْ يا بني آدمَ أنْ لا تعبدوا الشيطانَ إنهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ ﴾[1] .

بمعنى يا ابن آدم ، ألم أقل لك أن الشيطان عدوك ؟ ألم أقل لك في الأزل إن من يتّبع الشيطان يعبد الأصنام وأن صنمه شيطانه ؟ لذلك فإن المذنب من وجهة نظر القرآن يعتبر عابداً للأصنام .

القرآن يقول : إن ارتكاب الذنوب في الحياة يمزق الإنسان إرباً إرباً ويوصله إلى مدى تكون حياته فيه موحشة ومليئة بالرعب والاضطرابات وضعف الأعصاب والقلق ، القرآن يقول : هل تريد أن لا تخشى المستقبل وأن لا تحزن لما فاتك ؟ هل تريد أن تبرأ من التشويش وأن تسيطر على أعصابك ؟ ﴿ لا ترتكب الذنوب ﴾ لأنها تجلب لك الرعب وشدّ الأعصاب والمذنب يحزن لما فات أحياناً ، ويخشى من المستقبل أحياناً أخرى .

القرآن الكريم يقول : ﴿ مثلُ الذينَ كفروا بربّهمْ أعمالهم كرمادٍ اشتدّتْ بهِ الريحُ في يومٍ عاصفٍ ﴾[2] إن هذهِ حياة الإنسان المذنب ، كما يقول الطلبة هذا تشبيه المعقول بالمحسوس ، بمعنى عندما يريد القرآن إيضاح أمر معنوي يضعهُ في قالب الحسيات .

إذا كنتم وسط الصحراء وهناك جَمعْتم قدراً من الأعشاب لكي تقربوا ناراً ثم هبّت ريح عاصفة من البديهي أن تذهب الأعشاب في مهب الريح .

يقول : حياة الإنسان المذنب تصبح عرضةً للرياح ، ليس لديه حياة مستقرة وسعيدة ، البيت يصبح سجناً ، والمجتمع مصدراً للقلق ، وأخيراً يمتلكه ضعف الأعصاب ، ويبتلى ببلاء ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ويئن حتى الموت ؟ .

القرآن يقول : ﴿ ولا يزالُ الذينَ كفروا تصيبهمْ بما صنعوا قارعةٌ ﴾[3]

---

(١) سورة يسٓ ، الآية : ٦٠

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٨

(٣) سورة الرعد ، آية : ٣١ .

كم هي بليغة هذه الآية ، وهي تدق ناقوس الخطر ، يقول : الإنسان المذنب تعيس في حياتهِ ، ينجو من ألم لا نجاة منه ، ليقع في ورطة أخرى وينجو منها ليبتلي بداء آخر ، وهكذا دواليك . . .

القرآن يشبِّه الذنوب بالمشاكل وبالمصائب وبالآلام ، وهذا ما يسمى بتجسّم العمل ، ذنبنا يتجسّم .

القرآن يقول : ليست قارعة فحسب بل لا تزال تنهمل عليه المتاعب ومطرقة الذنوب تنزل على رأسهِ دائماً ، تارةً على رأسه وأخرى على رأس أقاربه ﴿ أو تحلُّ قريباً منْ دارهم ﴾[1] .

هذا هو معنى تجسم العمل وتجسم الذنب في هذهِ الدنيا :

﴿ ولا يزالُ بنيانهمُ الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلاّ أنْ تقطّعَ قلوبهم ﴾[2] .

إن الذنب يأتي بالرعب للإنسان ، يأتي بالتشويش الذي لا نهاية له ، إلى أن يتمزّق قلبه إرباً إرباً جميع هذهِ الآيات التي قرأتها ورد فيها :

﴿ بما صنعوا ﴾ ، ﴿ بنيانهم الذي بنوا ريبةً ﴾ بمعنى أن الإنسان هو الذي يسبب المتاعب لنفسه ﴿ بما صنعوا ﴾ ، ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ ، ﴿ بنيانهم الذي بنوا ريبة ﴾ أنت الذي بنيت هذا البيت الجهنمي والسجن ، إذا كانت الحياة مظلمة ومرعبة فأنت الذي سببت هذا لنفسك . ﴿ أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍّ يغشاهُ موجٌ منْ فوقه موجٌ منْ فوقهِ سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يدهُ لمْ يكدْ يراها ، ومنْ لمْ يجعلِ اللّهُ لهُ نوراً فما لهُ منْ نورٍ ﴾[3] .

فإذا لم تكن يد العناية الإلهية فوق رأسك ، وإذا أصبحت حياتك خالية من النور ، وإذا هوت بك الذنوب وأوصلتك إلى مكان لا تكون فيه يد العناية الإلّهية فوق رأسك ، إعلم بأن حياتك مظلمة وموحشة ، ثم يقول القرآن في نفس الآية :

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣١ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٠ .
(٣) سورة النور ، الآية : ٤٠ .

إن لديه حياة عبثية بحيث أضاع نفسه في خضم تياراتها ، وأضحى لا يرى نفسه وأولاده ، ولا يعرفهم ولا يمكنه أن يفكر ببيته وتمشية أموره . ﴿ **إذا أخرجَ يدهُ لمْ يكدْ يراها** ﴾ .

هذهِ الآية الشريفة أيضاً تشبيه المعقول بالمحسوس ، إنها تضرب مثلاً شخص في خضم البحر ، والبحر مائج وعاصف والغيوم تحيط بالبحر ظلام الأمواج من جهة ، والعاصفة والغيوم التي تحيط بالبحر من جهة ، كم هي موحشة ! .

القرآن يقول : الحياة بدون الله ، الحياة بدون علاقة مع الله ، الحياة المحفوفة بالذنوب موحشة ، وموحشة ، ومظلمة ومظلمة .

﴿ **أفمنْ أسسَ بنيانهُ على تقوىٰ منَ اللّهِ ورضوانٍ خيرٌ أمْ منْ أسسَ بنيانهُ على شفا جرفٍ هارٍ فانهار بهِ في نارِ جهنَّمُ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ** ﴾[1] .

الله لا يهدي الظالم ، هذهِ الهداية هنا هي التي أوضحت معناها سلفاً بمعنىٰ ، لا تكون يد العناية الإلٓهية فوق رأس الظالم ، إنه هوىٰ بنفسهِ ، إنه قام بأعمال مشينة إلى الحد الذي فقد الأرضية اللازمة لكي تكون يد العناية الإلٓهية فوق رأسه ، إن ذنوبه جعلته مُبتذلاً مُنحَطاً ثم يقول : كأنه بنىٰ بيتاً على شفا جرفٍ هار ، فماذا سيكون مصيره : القرآن يَقولُ هذهِ هي الحياة المحفوفةُ بالذنوب ، هنالك الكثير من الآيات نظير الآيات التي قرأتها في القرآن الكريم .

القرآن الكريم ينظِّر ، القرآن كتاب علمي ، ولكن مع أنه كتاب علمي ، فهو كتاب اختياري يحثُّ على العمل ، وانظر هل تصل إلى ذلك أم لا . وإذا وصلت فاعلم أنه حق .

لذلك إذا قرأتم القرآن من أولهِ إلى نهايته ترون الكثير من النظريات مهيئة للاختبار . القرآن يقول :

أيها المسلم ، هل تريد أن تكون لديك حياة رغيدة ، حياة بعيدة عن

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٩

الرعب والقلق والخوف من المستقبل ، هل تريد حياةً كهذهِ ؟ .

﴿ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتمْ تعلمونَ ﴾[1] .

بمعنى لِمَن الأمن ؟ هنا الأمن روحيّ كأن تكون حياةً خاليةً مِن الرعب والاضطراب والقلق . القرآن الكريم يقول :

﴿ الذينَ آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ ﴾ كم هي بليغة ، يقول : إذا أردت حياة رغيدة ، عليك أن تؤمن بالله ، وأن لا يكون إيمانك ممزوجاً بالذنوب ، وأن تكون حياتك خالية من الذنوب ثم يؤكد **﴿ أولئكَ لهمُ الأمنُ ﴾** الأمن لك لا محالة وكما يقول القرآن : لن تكون هنالك متاعب ، ضعف الأعصاب لذلك الذي لا يؤمن بالله وكما يقول القرآن الكريم :

﴿ ولمْ يلبسوا إيمانهم بظلمٍ ﴾ تعالوا لكي ننفض شائبة الذنوب من الحياة لترون كيف تزول جميع هذهِ المتاعب ؟ كلنا لدينا ضعف أعصاب قد تكونوا راجعتم الأطباء والتقتيم بعلماء النفس ، ولكن هل لذلك تأثير ؟ كلا ، أبداً وبالمرة الأطباء النفسانيون والأخصائيون في الأعصاب يقولون : لنفترض أننا نعطي أدوية إن ما نعطيه ليس سوى أقراص منوّمة وحَسْبُ ، ويقولون أيضاً : لأن البلاء الذي تُبتلىٰ به يولد بلاء آخر ، لأن توتر الأعصاب ينجم من الرعب والاضطراب والقلق والهموم . ويقولون : والآن إذا كتبنا لك وصفة مطوّلة سَيُبطَلُ مَفعولُها . القرآن يقول في مواجهة الأطباء النفسانيين الذين يقولون ليس عندنا دواء يقول لدي الدواء : **﴿ الذينَ آمنوا ولمْ يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئكَ لهمُ الأمنُ ﴾** . أنه يؤكد، لديّ دواء لتوتر الأعصاب ، جرّب وسترىٰ . **﴿ أولئكَ لهمُ الأمنُ ﴾** .

أيها الإنسان هل تريد الأمن ؟ اجتنب الذنوب ، اجتنب الذنوب . . تعالوا وكوّنوا علاقة مع الله ، بدل أن نكون قلقين لمتاعِبنا بدل أن نُصاب بالأرقِ وماذا سيحدث غداً ، وماذا حدث بالأمس ؟ انهض وتوضأ وناجي ربك ، وتُب عن الذنوب وسَتزول جميع آلامك ، الصلاة يمكنها أن تُزيل ضعف الأعصاب ،

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٨١ .

وقيام الليل يقوي الإرادة .

﴿ يا أيها المزمّل ، قم ِ الليلَ إلا قليلاً ، نصفهُ أو انقصْ منهُ قليلاً ، أو زدْ عليهِ ورتّل ِ القرآنَ ترتيلاً ، إنا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً ، إنَّ ناشئةَ الليل ِ هي أشدُّ وطأً وأقومُ قيلاً ﴾ قم في منتصف الليل ولتكن لك علاقة بالله .

الجملة الأخرى التي نستفيدها من القرآن هي أن الذنوب لا يحيق ضررها بالإنسان فحسب ، بل إن الذنوب نار ، وحين تضرم النار تحرقك كما تحرق الآخرين ، لا تتساءلوا ـ مثلاً ـ إذا استغاب الأب أو ظَلَم ، فلماذا يجب أن يتحمل عبء ذنبه الولد ؟ إذا كان طفلك في الغرفة وانتابك ـ والعياذ بالله ـ توتّر في الأعصاب ، بأن تضرم النار في الغرفة من الواضح ماذا سيحدث ، أنت تحترق كما يحترق الطفل في المهد ، والآن نقول : إن السبب في ذلك الله والطبيعة ، كلا نحن السبب في ذلك ، هذا من الناحية الظاهرية ، القرآن يقول : إن تأثير الذنوب لا ينعكس في تدمير حياتك فحسب ، بل له تأثير في مصير أطفالك وبالعكس ، العلاقة مع الله ، وبالأخص خدمة الآخرين ليست مفيدة لك فحسب ، بل إن أطفالك سيحضون بحسن العاقبة .

﴿ وليخشَ الذينَ لو تركوا منْ خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا اللّهَ وليقولون قولاً سديداً ﴾[2] إذا كنت تريد ضمان مستقبل أولادك ، وإذا كنت تريد حياةً سعيدةً لهم ، لا تقذف ولا تظلم ولا تشهد زوراً ، ولا تستغب .

﴿ وليقولوا قولاً سديداً ﴾ ماذا نستنتج من هذهِ الآية ؟ إن الآية بنت طرفي القضية ، إذا أردت أن تُسعِدَ أنت وأولادك ، ليكن حديثك مهذباً ، ولتكن أعمالك مطابقة للعقل والشرع . . وبالعكس ، القرآن يقول : إذا كانت الذنوب في حياتك **﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾** إذا كان إيمانك مقروناً بالذنوب ، إعلم أن ليس لديك حياة سعيدة ، لقد اثبتت التجربةُ أن الأشخاص المرابين المعتدين ليسوا وحدهم تعساء بل أولاَدُهم أيضاً تعساء .

كان هنالك شخص معتدي في أصفهان ، ورغم شدة الغلاء كان يتعاطى

---

(١) سورة المزمل ، الآيات : ١ ـ ٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩ .

الربا ويحتكر ، وكان يمتص دماء الناس ، إن أولادهُ يعانون الآن من المصائب والمتاعِب ، القضيةُ التي ينقلُونها عنه هـو أن القحط أصاب أصفهـان ، وكان القمح قد شَح وغَلي ثمنه ، فعلم خبازيّ أصفهان أن لديه قمحاً فجاءوا إليـه وقـالـوا لـه : اعطِ قمحك للنـاس ، قـال : بِكَم تشتـرون المَنّ (ثـلاثـة كيلوغرامات) ؟ مثلاً ، قالـوا : سعرهُ تُـومانَـان ، قال : أرفـع السعر ، (٢٢) ريالاً ، فقالوا: كلا ، كان يرفع السعر وفي النهاية لم يتفقوا على السعر ، لذلك قال : إصبروا إلى يوم غد لكي أفكر . ولم يعطِ القمح للناس في اليوم التالي ، وأخيراً مرّت الأزمة ، أولئك الذين يجب أن يموتوا من جرّاء ظلم الآخرين ماتوا وآخرون بقوا أحياء وانتهى القحط ، لم يمر وقت طويل إذا ابتلى ذلك الشخص بألم في ساقه ، جاءوا بالأطباء إلا أنه لم تتحسن صحته ، وأخيراً قررت اللجنة الطبية قطع ساقه فوضع يده على إصبع الساق ، قال : من هنا ؟ قال الطبيب : كلا ، ارتفع إلى الأعلى ، لم يطاوعه قلبه ، مثل ذلك القمح الذي كان يقول ارفع السعر ، والآن يتجسم ذلك العمل ويقول إلى الأعلى ، الخلاصة دفع كل المال وقطعوا ساقه . القرآن يقول : ﴿ وليخشَ الذينَ . . . ﴾ إذا كنت لا ترحم نفسك فرفقاً بأولادك ومجتمعك ، الذنوب تضر المجتمع ، الآيات التي قرأتها حول الأقارب والأولاد إلا أن آيات أخرى تقول إن الذنوب نار تحرق المجتمع : ﴿ واتقوا فتنةً لا تصيبنّ الذينَ ظلموا منكمْ خاصةً ﴾[1] .

أيها الإنسان ، اتقِ الذنوب ، لأن الـذنوب لا تحيق بـك فحسب ، بل تستشري في مجتمعك أيضاً . أتعلمون متى يفنى الشعب ؟ ليس فناء الشعب بأن يجيء زلزال ويُدمِّر بل إن أكثر ما يدمر الشعب أن يسود توتر الأعصاب بين فئات الشعب حيث يرحل الإيمان وتنفسخ الأخلاق والأفظع من ذلك أن يظهر الهواء الفكري ، وأيةُ مصيبة أكبر من أن يستعبدهُ المستغلون وهو يفتخر بذلك . القرآن الكريم يقول : من أين تأتي هذهِ الأمور ، وكيف تصل الأمور بالشعب بأن يمنح نقطة للمستكبرين ، ثم يقول : يا أميركا أنا خادمك المطيع ، وافتخر بأني خادمك ، أية مصيبة أكبر من هذه ؟ القرآن يقول : ﴿ وإذا أردنا أنْ نهلكَ قريةً

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٥ .

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً ﴾[1] .

وخلاصة الأمر أن الصبر عند الذنوب مفيد جداً ، وإذا أردتم الانتصار في هذهِ المعركة الداخلية يجب أن تصبروا عند مواجهة الذنوب والنتيجة الأخرى التي حصلنا عليها هي أن الذنوب مضرّة كثيراً لنا ولحياتنا ولأولادنا ومجتمعنا . وعلى عكس ذلك ، العلاقة مع الله تقوي الإرادة ، وتجلب لنا الحياة السعيدة وحسن العاقبة ، العلاقة مع الله لها تأثير في حياتنا وحياة أولادنا ومجتمعنا . إلٓهي نقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنّ علينا بالبصيرة والصفات الفضيلة وأن توفقنا لطاعتك وترك معصيتك .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١٦

البحث التاسع

« التوبة (١) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

قبل أن أدخل في البحث ، أود أن أنوّه عن موضوع ، وأرجو أن يكون ذلك مفيداً . لقد تعرض النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرون ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ للأذى كثيراً ، وبالأخص النبي الأكرم (ص) لدرجة أنه قال :

« ما أوذي نبي مثل ما أوذيت » .

نقرأ في التأريخ أن حضرة زكريا قطعوه إلى نصفين بالمنشار ، ومع ذلك يقول النبي الأكرم (ص) : **« ما أوذي نبي مثل ما أوذيت »** .

المصائب التي حلّت بالإمام الثاني (ع) أكبر من المصائب التي حلّت بالإمام الحسين (ع) والمصائب التي جرت على الإمام الرضا (ع) كبيرة جداً بحيث أن الراوي يقول : « كلما كان الإمام الرضا (ع) يرجع من الصلاة (صلاة الجماعة) كان يطلب من الله الموت وبدورهم تَعرّضَ سائر الأئمة الطاهرين ـ سلام الله عليهم ـ للظلم وقد أوذيت الزهراء ـ عليها السلام ـ كما أوذي النبي الأكرم (ص) مراراً .

جميع هذه المصائب حدثت من أجل أمر واحد ، هو أن يصل الإسلام الحقيقي إلينا . إذا أردنا أن يرضى عنا المعصومون الأربعة عشر

ـ عليهم السّلام ـ أولاً يجب أن نتحلى بالتدين والتقوى . وثانياً إنكم أيها المعلمون الأعزاء وأنتم صفوة المجتمع والجيل الشاب رهين جهودكم ، يجب أن تجاهدوا لإحياء الدين . إن إبقاء الدين حيّاً لكافة الناس أمرٌ يختلف عن إحياء الدين بيد علماء الدين بواسطة الثقافة . فيجب أن نتوخى الحذر حد الإمكان ، أولاً يجب أن نكون متدينين ، وثانياً وببركة المعصومين الأربعة عشر ـ عليهم السّلام ـ أن نحيي الدين في الصف ، وباسم النبي الأكرم (ص) نحيي القرآن ، وأحكام الإسلام وهذا واجب عظيم علينا أن ننهض به جميعنا .

كان لقائد الثورة العظيم جملة ينصحنا بها مراراً ، الجملة التي كان النبي (ص) يقولها هي : « لقد ثبت لدي عن طريق التجربة إذا كان في مدينةٍ ما أناس طيبون ومتدينون ، نفهم أن فيها عالماً ملتزماً ومتديناً وفي المقابل إذا كان في مدينةٍ ما أناس غير طيبين ، ندرك إما أنه لم يكن هناك عالم أو إذا كان هناك عالم لم يكن ملتزماً » ، حقاً إنه كذلك . نفس هذهِ الوصية أوصيكم بها أنتم يا أيها المعلمون الأعزاء إذا كنتم أيها المعلمون المحترمون متدينين ، وإذا كنتم تفكرون بإحياء الدين ، كونوا على ثقة : إن جيلنا القادم سيكون جيلاً طيباً ، وسيكون لدينا شباب متدينون وملتزمون في المستقبل .

إذن ، يجب أن أقول لكم : إن جيلنا القادم رهين نشاطاتِكم أيها الأعزاء إذا أردتم أن يكون الجيل القادم ملتزماً ومتديناً ، عليكم أن تكونوا متدينين وملتزمين .يجب أن تكونوا مهتمين بالدين والأخلاق والثقافة الإسلامية وعليكم أن تقوموا بنشاطات واسعة . ولا بد أن يكون الجيل القادم عالماً ، فإذا لم يتسلح الجيل القادم بالعلم سيقع في شرك الاستعمار والاستغلال .

وقد أثبتت التجربة أن الدول التي وقعت في شرك الاستعمار ، أفرغت في البداية من محتواها الثقافي ، ووقعت تلقائياً في أحضان الاستعمار . إذا لم يكن لدينا في المستقبل علماء وأخصائيون سنقع في أحضان الاستعمار لا محالة . إنهم لا يأتون ليأخذوننا ، بل إن البرنامج الاستعماري قد نظم بطريقة نذهب نحن إليهم . إذن يجب أن يتسلح الجيل القادم بالعلم والخبرة ، وهذه مهمتكم أيها المعلمون الأعزاء . وكذلك العلم بدون التزام إلٓهي لا ينفع ، يجب أن

يقترن العلم بالتدين والالتزام . العلم بدون دين والدين بدون علم كلٌّ على حدة لا ينفعان أبداً ، إذا كان الدين موجود ، ولكن العلم والوعي غير موجودين ، فلا فائدة من ذلك العلم بل إنه مضر .

إذن جيلنا القادم يجب أن يكون متديناً وملتزماً ، وعالماً ، ومتخصصاً أيضاً . وهذا رهين بجهودكم أيها المعلمون الأعزاء . يجب أن تتوخوا الحذر . أرجو أن تفوزوا بلطف خالق الكون ، وأن تكون يد العناية الإلهية فوق رؤوسكم دائماً ، لكي تنجحوا في إحياء الجيل القادم ، ولكي تتمكنوا من تقديم شبابٍ ملتزمين ومتدينين وواعين ومتخصصين للمجتمع .

إنَّ إحدى الأشياء التي تنفع كثيراً في تقوية الروح ، وفي حرب الداخل (الجهاد الأكبر) هي التوبة عن الذنوب .

التوبة عن الذنوب لها تأثير كبير في تقوية الروح ، وتقوية الإرادة والسير إلى الله ، والانتصار في الجهاد الأكبر . وحتى العرفاء[1] يقولون : « إذا أراد شخص أن يكون لديه سير ملكوتي ، المنزل الأول في هذهِ الطريق هو التخلية ، ومن أجل أن يصل إلى أول محطة للعرفان عليه أن يتوب عن الذنوب .

إحدى ميّزات الإسلام هي أنه لا يصل إلى طريق مسدودة أبداً ، بمعنى أنه لا يقول أبداً (لا أعلم) أنتم لا يمكنكم أن تجدوا مكاناً يقول فيه الإسلام لا أعلم . يقول الإمام الصادق (ع) حول القيادة : « بالإضافة إلى أن القائد يجب أن يملك أعلى حد من العدالة ، يجب أن يكون خبيراً في العلوم الإسلامية أيضاً ، وقادراً على إجابة المجتمع البشري . إذن إذا قال شخص عن قضيةٍ ما في الإسلام لا أعلم ، فهو ليس جديراً بالقيادة ، ولا يمكنه أن يكون مرجع تقليد للمسلمين » .

من الناحية العملية أيضاً لا يصل الإسلام إلى طريق مسدودة أبداً ، بمعنى أن الإسلام لا يقول لتابعيه أبداً إني لن أقبلك بعد الآن . ليس هنالك طردٌ للأفراد في الإسلام ، مهما كان الذنب كبيراً ، إذا حصل تفاعل داخلي ، وإذا

(١) الأشخاص الذين عملوا في مجال السير والسلوك .

ندم الشخص على ما فعله في الماضي ، وتاب وقرّر أن لا يرتكب ذلك الذنب مرةً أخرى ، فإن الباري عزّ وجلّ يعفو عنه . لا يمكن أن نعثر في الإسلام على ذنب لا تُقبل التوبة عنه . إذن الإسلام يقبل دائماً توبة المذنبين . كما أشرنا سابقاً ، جوهر التوبة هو التفاعل الداخلي والندم على ارتكاب الذنب ، وعلى المذنب أن يقرّر عدم ارتكاب ذلك الذنب ، وقد لا يلتزم الشخص بذلك ، ولكن الله يتوب عليه ، فالله يقبل توبة ناقضي التوبة . إذا ارتكب الشخص ذنباً (مهما كان) وحصل لديه تفاعل داخلي بعد ارتكاب الذنب ، وشعر بالأذى والندم لارتكابهِ الذنب ويقرر عدم تكرار ذلك الذنب ، فإن الباري عزّ وجلّ يغفر له ذلك الذنب . إن ما يستشف من القرآن وروايات أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ هو أن الله لا يغفر الذنوب فحسب ، بل إنه يغفر سريعاً .

نقرأ في دعاء كميل إن الله « سريع الرضا » ، كما نستشف أيضاً من القرآن وروايات أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ إن الله لا يغفر سريعاً فحسب ، بل إن الذي يتوب يتلقى توفيقاً من خالق الكون ، الذي يتوب يغفر له الله ، ويمنحهُ حسنة أيضاً ، يُمحي ذنوبه وبدل تلك الذنوب يكتب له حسنة ، وبواسطة التوبة يفيضُ خالق الكون على التائب حياة مرفهة . فكما أن الذنب له تأثير وضيعي ويجلب التعاسة والبلاء فإن التوبة والتوجه نحو الله يتبعهما النجاح والحياة الرغيدة .

هنالك بحث بين العرفاء والعلماء يتلخص في مآلِ ذنوب الذي يتوب عن الذنوب ، والتي تجسدت عملياً ، هل تزول نهائياً ؟ أو تظهر بصورةٍ « لعان » ؟ هنالك اختلاف في وجهات نظر العلماء . البعض ومن بينهم قائد الثورة العظيم ، يقول : إذا تاب شخص عن الذنب ، فإن خالق الكون يُمحي ذنوبه ، وبالتالي فإن المصائب الناجمة عن الذنوب تزول أيضاً .

كما يؤيد القرآن الكريم هذهِ الرواية . أما البعض الآخر ومن بينهم المرحوم كمباني ـ عليه الرحمة ـ وهو أحد العرفاء والفلاسفة ، ومن علماء الإسلام الكبار يقول : إن الذي يتوب عن الذنب نحن نبدل حياته التعيسة التي أوجدها الذنب ، نبدلها إلى حياة رغيدة . قبل أن أقرأ الآيات الكريمة حول هذا

البحث أود أن أنوّه حول صفة « سريع الرضا » الإلّهية وسيكون ذلك مفيداً جداً للآباء والأمهات والمعلمين الكرام ، إحدى الأساليب التي وردت في علم النفس حول تأديب الطفل هي مخاصمة الطفل ، ولكن يُوصى أن تكون مدة الخصام قصيرة ، وأن يكون المربّي « سريع الرضا » ، بعد مُضي فترة من المخاصمة يجب أن يجد المربي حجة لمصالحة الطفل .

كما أن روايات أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ تؤيد هذه الطريقة . هـذهِ الطريقة مؤثرة جداً في تربية الأطفال شريطة أن تكون المصالحة سريعة .

ونرىٰ أن كثيراً ما يستفاد من طريقة « سـريع الـرضا » حيث كـانت هذهِ الطريقة ذات تـأثير كبيـر في التربيـة . بناءً على ذلـك ، أرجوكم إذا واجهتم أشخـاصاً عنيـدين وأردتم تربيتهم ، لا تستخـدموا كلمـات نابيـة ، ولا تهينـوا شخصيتهم لأن هذهِ التصرفات غير ناجحة في التربية ، وتؤدي بكم إلى الفشل ، كما أن الضرب له تأثير سلبي في تربية الأطفال .

لا يمكن تربية الطفل عن طريق الإهانة والضرب ، يجب أن نكـون ، « سريعي الرضـا » مع الأطفـال ، وأن لا نستخدم كلمـات الإهانـة في البيت والمدرسة والمعهد ، لأن ذلك مضر جداً ويأتي بنتائج عكسية .

إن استخدام الكلمات النابية مـذموم جـداً في الإسلام وقـد نهىٰ الإسلام عن ذلك . وكنموذج نورد لكم مثالين من تعامل قادة الإسلام إزاء هذا التصرف . تآمر عدة يهود على الاستهزاء والسخرية بالنبي الأكرم (ص) جاء أحدهم ومر من جانب النبي (ص) وبدل أن يقول : « سلام عليكم » قـال : « سام[1] عليكم » ، فـأجابـه النبي الأكرم (ص) : « عليكم » ، فجـاء الثاني ، وقـال للنبي (ص) أيضاً : « سام عليكم » ، فأجابه النبي الأكرم (ص) : « عليكم » أي ليكن ما قلته عليك . فجاء يهودي ثالث وقال كما قال اليهـوديان : « سـام عليكم » ، فأجابه النبي (ص) : « عليكم » .

كانت عائشة جالسة عند النبي الأكرم (ص) ، فتألمت كثيراً لدى مشاهدة

(١) سام ، بمعنى السيف وسامٌ عليكم تعني الموت لك .

هذا الوضع وقالت لهم : « **يا أبناء القردة والخنازير** » لماذا تتحدثون هكذا مع النبي (ص) ؟ .

إن ما نسبته عائشة لهؤلاء صحيح ، من رؤية الإسلام[1] ولكن عائشة تقول : شحب لون النبي الأكرم (ص) والتفت قائلاً : « يا عائشة ، لماذا بدأتِ بالسبّ ؟» ، تقول عائشة قلت: يا رسول الله لقد تآمروا، يأتون واحداً بعد آخر ويقولون لك : « سامٌ عليكم » .

قال النبي (ص) : « لقد أجبتهم على ما قالوه لي وقلت : « عليكم » ، ثم قال : يا عائشة ، ألا تعلمين أن كلامنا وعملنا يتجسم ، هذا السباب يتجسم بصورة قبيحة ، ويحشر مع الإنسان في يوم القيامة ، السُّبَّة ، وإن كانت لفظ « يا ابن . . . » .

وأمثالها تتحول يوم القيامة على شكلِ كلب وخنزير وحيوانات موحشة ، وتحيط بالإنسان من كل جانب . تقول الروايات : إن الإمام الصادق (ع) كان لديه صديقٌ مُلازِمٌ له دائماً ، وكان الإمام الصادق (ع) يحبهُ أيضاً ، ويرافقهُ في غُدوّه وترحاله . عندما كان يمشي بجوار الإمام في أحد الأيام ، وكان غلامه ملازماً لهما ، تخلّف الغلام صدفةً ولسببٍ ما عنهما . فنادىٰ هذا الشخص الغلام ، ولكنه لم يسمع رداً منه ، فكرر مناداته مرةً ثانية ، ولكنه لم يسمع رداً . فغضب الرجل ، وقال للغلام : « **يا بن الفاعلة** » أي يا ابن الزنا ما أن فاه الرجل بهذهِ الجملة حتى وقف الإمام الصادق (ع) وتألّم كثيراً بحيث وضع يده على ظهرهِ ، وكأن ظهره الشريف قد انتابهُ ألم . قال : ماذا قلت ؟ فعلم ذلك الرجل أنه قد ألمّ الأمام ، قال : يا ابن رسول الله ، هذا الغلام من الهند ، ولا يُعرف له أب أو أم ، والنسبة التي نسبتها إليه كانت بسبب أنه لا يُعرف من هو أبوه وأمه . قال الإمام الصادق (ع) ما معناهُ : إني لا أريد أن أُناقِش قولك هذا من الناحية الشرعية ، بل أريد أن أقول : لماذا فقدت عفة اللسان ، ولماذا لوثت لسانك بالسُباب ؟ .

الرواية تقول : إن الإمام الصادق رفض صداقته ، وأبعده فجاكسته . نظراً

---

(١) ﴿ وجعل منهم القردةَ والخنازيرَ ﴾ سورة المائدة ، الآية : ٦٠ .

لهذين النموذجين يتضح أن المسلم ينبغي أن يكون مؤدباً جداً وأن تكون لديه عفة اللسان ، والذي يكون لسانه ملوثاً بالكلمات النابية لا يمكن أن يعتبر مربياً جيداً ، وبالأخص السيدات الفاضلات عليهن الأشباه إلى أن السباب والصراخ والغضب وتوتر الأعصاب لا يُمكّنها أن تربي الطفل ، ولن تؤدي إلى نتيجة سوى التعاسة للشخص وأطفاله .

إحدى أساليب التربية هي أن نخاصم الطفل لدى ارتكابهِ مخالفة على أن نصالحه سريعاً ، بمعنى أن نكون « سريعي الرضا » .

إن عمل المربي شاق جداً ، ولكن عندما يكون العمل لله تهون الصعوبات . فالإمام الحسين (ع) قدم كل ما يملك في يوم عاشوراء وذلك ابتغاء لمرضاة الله ، وضحّى بماله وأولاده ليبقى دين الله حياً . إن جميع الصعوبات تهون في سبيل الله ، المعلم الذي يخاصم الطفل لله ومن أجل تربية الطفل عليه أن يصالحه أيضاً بسرعة من أجل الله .

أحد أصدقائي يقول : عندما سافرت إلى القرية للدعوة والتبليغ لم يراجعني أحد من أهل القرية ، ذهبت إلى المسجد ، وعملت شاياً ، ودعوتهم ، ولكن لم يأتِ أحد إلى المسجد ، فما كان مني إلا أن أخاصمهم وأترك القرية ، لم يقل لي أحد إلى أين أنت ذهبت ؟ عندما ابتعدت خطواتٍ عن القرية ، قلت أكلم نفسي : ما هذا الذي أصنعه ، فندمت لمخاصمتهم . قلت مع نفسي بأي حجة أعود إلى أن وقعت عيناي على طفلة جاءت لأخذ الماء من القناة . فقررت أن أعود إلى القرية مع الطفلة ، عندما عدت إلى القرية رأيت الناس واقفين في جانب ، ما أن شاهدوني حتى راحوا يقولون بصوتٍ عالٍ : (الشيخ ذهب وعاد بقدميه) الشيخ ذهب وعاد بقدمية فصبرت إلى أن هدأوا ، وبدأت دعوتي من هناك . إن صفة « سريع الرضا » الإلٓهية ساعدتني وقد نجحت في دعوتي . علينا أن نكون هكذا في دعوتنا لدين الله . وهكذا هي طريقة القرآن الكريم في الدعوة حيث يقول الباري عزّ وجلّ في سورة الأنعام. الآية (٥٤) :

﴿ وإذا جاءكَ الذينَ يؤمنونَ بآياتنا فقلْ سلامٌ عليكمْ كتبَ ربُكم على نفسهِ

الرحمةَ أنهُ منْ عملَ منكمْ سوءً بجهالةٍ ثمَّ تابَ منْ بعـدهِ وأصلحَ فإنـهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾[1] .

يقـول الله للنبي الأكرم (ص) : أيهـا النبي ، إذا جاءك المـذنب أبلغـهُ سلامي أولاً ، أرجو أن تنتبهوا إلى هذهِ النقطة، انظروا إلى الله أرحم الراحمين حتى لا يصاب أحدكم باليأس من رحمة الله فاليأس بمستوى الكفر ، واسعوا إلى تهذيب أنفسكم بالاستفادة من هذهِ الآيات ، وكونوا رحماء ورؤوفين و « سريعي الرضا » .

الآية تقول : عندما يجيء العبد المذنب ، سلّم عليه أولاً ، وقبل أن تقبل توبته قل له : إن الله كتب على نفسهِ أن يغفر للمذنب ، وأن يجعل رحمته من نصيب المذنب . ثم يقول : قل له : إن من يرتكب ذنباً بجهالة ، ثم يتـوب ويصلح نفسه فليعلم أن الله يغفر له ذنوبه لأن الله غفور رحيم . إن رؤيةَ هذهِ الآية تتركز في صفة « سريع الرضا » كما جاء في دعاء كميل : **« يا سريع الرضا إغفر لمن لا يملك إلا الدعاء »** .

ولكن هذهِ الآية تقول : إذا ذهبت إلى بيت الله ، فإن الله يبدأك بالسلام ثم يقول : عليَّ أن أغفر لك ، ويغفر لك .

ويصرّح الله في آيةٍ أخرى بصورة أوضح عن هذا الموضوع حين يقول : **﴿ إلا منْ تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً فأولئك يبدِّلُ اللّهُ سيئاتهمْ حسناتٍ وكانَ اللّهُ غفوراً رحيماً ﴾**[2] هذهِ الآية تدور حول الزاني والزانية وحتى لو كان زنى المحصنة[3] ، وما قبلِ هذه الآية تقول : المؤمن لا يزني ، وإذا زنىٰ الشخص ، فإنه يدخل جهنم ذليلاً . نقرأ في الروايات : إن المرأة التي تزني ، والـرجل الذي يزني ، إذا مات من غير توبة سيلقىٰ في جهنم عذاباً أليماً ، ويتكدّر خاطر أهل جهنم من رائحة تعفن عـورتيهما . الـذنب كبير جـداً ، ولكن نفس هذا الذنب الكبير ، حتى إذا كان زنى المحصنة ، الله يقول :

﴿ إلا منْ تابَ وآمنَ وعملَ عمـلاً صالحـاً . . ﴾ وإذا تاب لا يغفـر له

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ .

(٣) زنا المرأة المتزوجة أو زنا الرجل المتزوج .

فحسب بل ﴿ يبدِّلُ اللّهُ سيئاتِهمْ حسناتٍ ﴾ ويمحي الذنوب من أعماله ويكتب بدلها الثواب . العطف الإلّهي في هذهِ الآية أكثر من الآية الأولى ، يقول في الآية الأولى : سلّم على المذنب ، وقل له إن الله كتب على نفسه أن يغفر له . لكنه في الآية الثانية يقول : ﴿ ... يبدِّلُ اللّهُ سيئاتِهمْ حسناتٍ ﴾ ويمحي الذنوب من أعماله ويكتب بدلها الثواب . حقاً إن الله رؤوف رحيم . يقول الشاعر :

تعال تعال أيّما تكون تعال

إذا كنت كافراً وملحداً وعابداً للأوثان تعال

إن عتبتنا ليست عتبة اليأس

إذا لم تلتزم بالتوبة مئة مرة تعال

هذا الشاعر ، لم يعطِ القرآن حقه . الآية تقول: تعالى أيها المذنب، إني أحب توبتك كما أحب أنينك وحياءك ، لن أغفر ذنوبك فحسب ، بل سأمحي الذنوب من ورقة أعمالك واكتب مكانها حسنة[1] . إن هذهِ الآية تَبعث على الأمل والبناء ، كما يقول في سورة البقرة الآية(٢٢٢) : ﴿ إنَّ اللّهَ يحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهرين ﴾[2] وهذهِ الآية بنّاءة ، وتبعث على الأمل أكثر من الآيتين السابقتين .

تعلمون أن « التوّاب » صيغة المبالغة كـ « علام » وهو الذي يملك الكثير من العلم ، التواب هو الذي يتوب كثيراً . يبدو أن تفسيرها يصبح إذا لم تلتزم بالتوبة مئة مرة تعالى .

﴿ إنَّ اللّهَ يحبكَ ﴾ و﴿ يحبُّ المتطهرين ﴾ فاليد الملطخة بالدم إذا طهرتها بالماء تطهر ، وتصبح كاليد التي لم يمسسها الدم إطلاقاً . كذلك الذي يتوب يُطهر من الذنب . النبي الأكرم (ص) يقول : « **التائب من الذنب كَمَنْ لا ذنبَ له** »[3] لذلك تقول الآية : لست فقط أحب المذنب التائب ، بل أحب

(١) يبدو أن الحسنة هنا هي ثواب التوبة ، مثلاً الذي استغاب وقذف ولم يقم الصلاة عندما يتوب تمحىٰ ذنوبه . وبما أن ثواب التوبة في الإسلام أكبر من ثواب سائر العبادات لذلك يكتب في ورقة أعمال المذنب الثواب .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٣) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ١٢٦

أيضاً ذلك الذي تلوّث مراراً وتاب . لأن التوبة تُطهر الإنسان رالله يحب المتطهرين .

الآية الرابعة التي اخترتها لعلاقتها بهذا البحث ، الآية (٥٢) من سورة هود . هذهِ الآية أبلغ من الآيات الثلاث الأخرى فهي تقول : ﴿ ويا قومِ استغفروا ربكم ثمَّ توبوا إليهِ يرسلْ السماءَ عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوتكم ﴾[1] يا أيها المذنب، تعالى وتُب إن الله يغفر لك ، وعلاوة على ذلك : ﴿ . . . يرسلْ السماءُ عليكم مدراراً ﴾ النعمة والسعادة تهطل عليك كهطول المطر في هذهِ الدنيا .

قلت سابقاً : إن الذنب ينهمر بالمصائب فوق رأس الإنسان . والآن إذا أردت أن تزول تلك المصائب ، ويزول التأثير الوضعي للذنب ، أو كما قال المرحوم كمباني ـ رحمة الله عليه ـ يصبح « لعان » يجب أن تتوب من الذنب لأن الله يقول : نحن لا نمحي الذنوب فحسب ، بل نجعل بدلها السماء تمطر فوق رأس التائب. إذن: تعالى . . تعالى أيما تكون تعالى . كما أن الآية الثالثة من سورة هود تؤيد هذا المعنى . يقول : ﴿ وأنْ استغفروا ربكمْ ثمَّ توبوا إليه يمتعكمْ متاعاً حسناً ﴾[2] .

فيا أيها المذنب ، إذا تبت يبعد الله تلك المصائب التي ابتليت بها من جراء الذنوب عنك ويوفر لك حياة رغيدة وسعيدة :

﴿ يمتّعكمْ متاعاً حسناً ﴾ وحول الذنوب ، يقولُ القرآن : ﴿ ومنْ أعرضَ عنْ ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً ونحشرهُ يومَ القيامةِ أعمىٰ ﴾[3] أي : إن الذي تكون حياتهُ بدون الله ، والذي يعيش مع الذنوب ، يصاب بمصيبتين : الأولى أن معيشته تصبح ضنكاً ويحشر يوم القيامة أعمى ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمىٰ ﴾ .

القرآن يقول : إنسان كهذا يحاور ربه يوم القيامة قائلاً : ﴿ قالَ ربِّ لمَ

(١) سورة هود ، الآية : ٥٢ .

(٢) سورة هود ، الآية : ٣ .

(٣) سورة طه ، الآية : ١٢٤

حشرتني أعمىٰ وقدْ كنتُ بصيراً ﴾[1] فيقول الله : ﴿ قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسيتها وكذلك اليومَ تُنسى ﴾[2] إن سبب عماك هو أنك نسيتنا في الدنيا ، ونحن ها هنا نسيناك أيضاً . (من الواضح ، الإنسان الذي ينساه الله ، لا يمكنه البصر) قلت : إن إحدى انعكاسات الذنوب هي أن حياة الإنسان تصبح تعيسة . القرآن يقول : إذا أردت أن تتبدل حياتك التعيسة إلى حياة سعيدة ، عليك أن تتوب عن الذنوب .

أستاذنا الكبير المرحوم العلامة الطباطبائي ـ رحمة الله عليه ـ كانت لديه جملة يرددها في أبحاثه عند الضرورة ، ويبدو أن هذهِ الجملة كانت محطّ عناية ، وقد استخدم هذهِ الجملة مراراً في تفسير الميزان ، وهي جملة تبعث على الأمل حقاً كأن يقول : « **توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله** » ما يستشف من القرآن هو أن الله لديه توبتان لعبدهِ المذنب فهو يتوب مرة واحدة ، بينما يتوب الله عليه مرتين[3] . واحدة من هاتين التوبتين، توفيق يمنّ الله به على عبده ليعود ويتوب .

إذا لم تكن هنالك جاذبية من المعشوقة
فسوف تذهب جهود العاشق المسكين سدًى

إذا لم يكن هنالك توفيق وهداية من جانب الله ، لن يستطيع العبد المذنب أن يصل إلى هدفِ الوصولِ إلى الله . التوبة الثانية لله ، قبول العبد المذنب . انظروا كم الله رحيماً وغفوراً ورؤوفاً . حقاً إنه لمن المؤسف أن لا يطيع العبد ربه . يقول الباري عزّ وجلّ في سورة التوبة الآية (١١٧) :

﴿ وعلى الثلاثة الذينَ خلِّفوا حتى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بما رحبتْ وضاقتْ عليهمْ أنفسهمْ وظنّوا أنْ لا ملجأ منَ اللّهِ إلاّ إليهِ ثمَّ تابَ عليهمْ ليتوبوا إنَّ اللّهَ هوَ التوابُ الرحيمُ ﴾[4] هناك قصِة تقتني موضوع هذهِ الآية وهي : أن ثلاثة من أصحاب الرسول الأكرم (ص) تخلّفوا عن الذهاب إلى جبهة الحرب

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٥

(٢) سورة طه ، الآية : ١٢٦

(٣) التوبة في اللغة تعني العودة ، إذا خرج أحد من الغرفة ثم عاد ، والعرب تقول تاب بمعنى عاد

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١٨

(غزوة تبوك)[1] ، فأنهى النبي الأكرم (ص) الحرب مع أصحابه ، وعادوا جميعاً . فخرج الناس لاستقبالهم ، ومن بينهم الثلاثة الذين تخلّفوا حيث كانوا من بين المستقبلين ، قال النبي الأكرم (ص) : « لا يكلم أحد أحداً من هؤلاء الثلاثة » الحكم حكم النبي (ص) ، تقول الرواية : وصلت الأمور بهؤلاء الثلاثة أن امتنع أزواجهم وأولادهم عن الكلام معهم ، وابتعدوا عنهم . القرآن يقول : بعد مضي ثلاثة أيام ضاقت بهم المدينة وشعروا أنهم لا يمكنهم أن يستمروا على هذهِ الحال : ﴿ ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحبتْ ﴾ إنهم شعروا أنْ لا حيلة بيدهم سوى التوبة . فاتجهوا نحو الصحراء وبكوا ، وانتحبوا ، وتابوا ، وقبل الله توبتهم ، نحن أيضاً نستطيع أن نستفيد من هذهِ الأساليب في مكافحة المذنبين . النقطة التي أردت أن أشير إليها هي أن الآية تقول : ﴿ ثمَّ تابَ عليهمْ ليتوبوا ﴾ لقد جاءت التوبة الإلّهية بعد توبتهم .

(إذا لم يشفق خالق الكون . . . من أين للعبد أن يقوم بعمل ؟) وخلاصة البحث هي أننا نستشف من القرآن الكريم أن التوبة مفيدة جداً ، وهي بنّاءة جداً ، لتقوية الروح وجهاد النفس . ومهما كان الذنب كبيراً ، إذا تاب الإنسان بصدق عن ذلك الذنب فإن الله يغفر له . إلّهي بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا جميعاً بالخصال الإنسانية ونور القلب والتوبة والتوفيق في عبادتك وعبوديتك وترك المعصية .

---

(١) كان وضع الذهاب إلى الجبهة في صدر الإسلام كحربنا اليوم مع الكفر الصدامي ، بمعنى كانت تعلن التعبئة العامة ، ولم يكونوا يأخذوا أحداً إلى الحرب قسراً ، وما أن تنشب الحرب ويعلن النبي الحرب يتجه كل من يقدر على حمل السلاح إلى الجبهة ، وحتى العريس يترك فراش الزوجية ويتجه نحو الجبهة .

البحث العاشر

« التوبة (٢) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

بحثنا يهتمُّ حول الصراع المستمر بين الجانب الملكوتي ، والجانب البهيمي في داخلنا والذي سمّاه النبي الأكرم (ص) بالجهاد الأكبر . وقلنا من أجل أن نتغلب على الجانب البهيمي في داخلنا ، يجب أن نستفيد من القوىٰ الخارجية وإلا سنكون مغلوبين . وقد تعرفنا من خلال القرآن الكريم وروايات أهل البيت (ع) على قوىً من بينها الاهتمام بالواجبات ، والصلاة ، واجتناب الذنوب ، وبحثنا حول الصبر وأنواعه الثلاثة . القوة الثالثة التي تحدثنا حولها تكمن في التوبة . وقلنا إنه عن طريق التوبة نستطيع تقوية إرادتنا وروحنا وبعبارة أخرى يمكننا أن ننتصر في هذهِ المعركة .

والقرآن الكريم مشحون بالحديث حول التوبة ، ويقول : ليس خالق العالم « سريع الرضا » فحسب ، بل إنه يُسلم أولاً على المذنبين ، ثم يقول : إني أقبل توبتك كما يستشف من القرآن الكريم أنه إذا حصل تفاعل داخلي عند الشخص ، ثم تاب فإن خالق الكون يغفر له ، وكما قال النبي الأكرم (ص) : « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له** » إذا تاب المرء من ذنب فهو كمن لم يذنب أبداً .

حول هذا الموضوع يقول القرآن الكريم :

﴿ **قلْ يا عباديَ الذينَ أسرفوا على أنفسهمْ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً** ﴾(١) .

من الناحية اللغوية هنالك ثمة نقاط في هذهِ الآية ، جملة : ﴿ **يا عبادي** ﴾ وكلمة « عباد » رقيقة وإضافة هذهِ الكلمة إلى « ياء المتكلم » أضفت عليها جمالاً خاصاً . الله يقول : يا عبدي المذنب الذي اعتبرك جزءً مني تعالى، تعالى ،أينما كنت تعالى ﴿ **لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ** ﴾ لا تقنط مهما كنت ، ومهما كان ذنبك كبيراً ، وبأي مقدار كان ﴿ **لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ** ﴾ لا تيأس ﴿ **إنَّ اللّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً** ﴾ كن واثقاً أن خالق الكون سيغفر جميع ذنوبك . وآية أخرى في سورة يوسف تقول : ﴿ **لا تيأسوا من روح الله إنهُ لا ييأسُ منْ روحِ اللّهِ إلاّ القومُ الكافرونَ** ﴾(٢) يا عبدي المذنب لا تيأس من رحمة الله إن اليأس من رحمة الله كالكفر . إذ قال المرء : (ولو أنه كان مذنباً طوال سبعين عاماً) .

إن الله لن يرحمني ، فإن ذنب هذا الكلام وهذهِ الفكرة في اليأس من رحمة الله أكبر من ذنوب سبعين سنة ، لأن سبعين سنة من الذنوب ليست كفراً ، إذ يقول القرآن الكريم : إذا قنطت من رحمة الله فإن ذلك يضاهي الكفر : ﴿ **لا تيأسوا منْ روحِ اللّهِ إنهُ لا ييأسَ منْ روحِ اللّهِ إلا القومُ الكافرونَ** ﴾ . وينقل بعض المفسرين قصة حول هذهِ الآية الكريمة .

حميد بن قحطبة ضابط في جيش هارون الرشيد . قال الراوي للإمام الصادق (ع) : ذهبت في شهر رمضان عند حميد بن محطبة وشاهدته مُفطراً : قلت له : هل أنت مريض ؟ قال : كلا ، قلت : إنك لست مسافر ، فلماذا لا تصم الشهر المبارك ؟ قال : لأني أعلم أن الله لن يغفر لي . ثم حكى لي القضية ، وقال : طلبني هارون الرشيد في إحدى الليالي وقال : إلى أي مدى أنت معي ؟ قلت : إني مستعد لأن أفديك بمالي وعرضي ونفسي ، قال : كلا ، يقول كنت في طريقي عائداً إلى المنزل فطلبني مرةً أخرى . فذهبت ، قال : إلى أي مدى أنتَ معي ؟ قلت : لأني مستعد لأن أفديك بديني ، وقال : هذا

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٨٧ .

ما أريد ، ثم أعطاني سيفاً ، وقال : نفّذ كل ما يقوله هذا الغلام ، يقول : أخذني الغلام إلى باب أحد البيوت ، ففتح باب إحدى الغرف ، كان في تلك الغرفة عشرون شاباً من سلالة النبي الأكرم (ص) مكبّلين بالأصفاد ، فجاء بهم إلى وسط الدار ، كان فيها بئراً ، قال الغلام : اضرب أعناقهم وارمِ بها في هذا البئر . فضربت أعناقهم ورميت بها في البئر . فتح الباب الثاني ، كان فيها عدد من السادات من سلالة الزهراء (ع) محبوسين ، وكانوا مُسنين ، فضربت أعناقهم ورميت بها في البئر . فجاء بعشرين من السادات الطاعنين في السن والمكبلين بالأصفاد فضربت أعناقهم أيضاً ورميتها في البئر . كان آخرُهم شيخاً أبيض البشرة فالتفت إليّ وقال : إذا سألتكَ أمي الزهراء في يوم القيامة عن سبب قتلي بماذا تجيب ؟ فارتجفت أوصالي . قال الغلام : لقد أتممت مهمتك ، انجز ما تبقىٰ . ضربت عنقه ورميتها في البئر . من الواضح أن الله لن يغفر لي بعد ذلك ، فلماذا أصوم ؟ يقول الراوي نقلت هذهِ القصة للإمام الصادق (ع) . تألم الإمام (ع) كثيراً لدى سماعهِ تلك القصة ، ثم قال : يا فلان ، إن هذا الذي قنط من رحمة الله لأنَّ ذنبه أكبر من قتل (٦٠) نفراً من سلالة النبي ، ومن الطبيعي لنماذج من هذهِ النوعية لا يوفقون إلى التوبة ، ولكن اليأس من رحمة الله ذنب كبير ، القرآن الكريم والآية التي ذكرناها من سورة يوسف تقول : إن القنوط من رحمة الله كالكفر . المحصلة التي خرجنا بها من بحث التوبة هي أنه إذا حصل تفاعل داخلي في الشخص من جراء الذنوب التي ارتكبها طوال سنة أو سنتين أو عشر سنوات ، ومع أن ذنبه كان كبير جداً ، ولكن بما أنه ندم على ما فعله نتيجة الاستغفار والمناجاة والبكاء ، والندم والتفاعل الداخلي يلزمه أن يقرر المرء أن لا يذنب بعد الآن . فإن الله سيغفر له لا محالة ، كأنه لم يرتكب ذنباً أبداً . وهذهِ الحالة تعوّض ما حلّ به من موبقاتٍ بالإضافة إلى أنه يستطيع أن يقطع مسيرة المائة عام خلال لحظة واحدة ، وأن يسطع نور الحق في قلبه وستقوىٰ إرادته وروحه ، والأعظم من ذلك يستطيع أن ينتصر في تلك المعركة الداخلية . وعلى العكس يعتبر اليأس من رحمة الله من أحابيل الشيطان . القرآن الكريم يقول :

لا تيأس من رحمة الله إذ أن ذلك يساوي الكفر ، ولهذا السبب إذا أفسد

الشيطان شخصاً يصبح من خلال ذلك كحميد بن قحطبة لا يصوم ولا يصلي ويرتكب أي جريمة تسنح له الفرصة للقيام بها .

اليأس من رحمة الله يؤدي إلى أن يصبح الإنسان مجرماً ومذنباً ، ولكن الأمل برحمة الله ، واليقين من أن الله سيغفر له ، سيجعلهُ يسيطر على غرائزه ، شاء أم أبىٰ ، وبعبارة أخرى يتمكن من السيطرة على الجانب البهيمي وينتصر في معركة الداخل .

ويستشف من القرآن الكريم وروايات أهل البيت (ع) : أن أربعة أنواع من التوبة لا تُقبل .

قلنا سابقاً إنه ليست في الإسلام طريق مسدودة وأنه لا معنى أن يقول المرء إن الله لن يغفر لي ، وقد يبدو ذلك مبايناً لقولنا إنه لا تقبل التوبة من أربع مجموعات ، ولكن في الحقيقة ليس هنالك تباين بين القولين . جميع الآيات التي تتحدث عن عدم قبول التوبة موجودة في الآيتين (١٧) و(١٨) من سورة النساء حيث يقول : ﴿ **إنما التوبةُ على اللّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ فأولئكَ يتوبُ اللّهُ عليهِمْ وكانَ اللّهُ عليماً حكيماً وليستْ التوبة للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدهمْ الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهمْ كفارٌ** ﴾[١] . يقول : التوبة تُقبل من الذي يعمل السوء بجهالة ، والجهالة هنا بمعنىٰ عدم الفهم ، وللجهالة عدة معاني ، منها تغلب الجانب البهيمي على الجانب المعنوي ، كأن تتغلب الغريزة الجنسية على الشخص وينظر للمرأة بنظرة شهوانية ، يقولون : إنه ارتكب ذنباً بجهالة ، إنه يعلم أن إلقاء النظرة الشهوانية حرام ، ولكنه يُغلب من قبل الشهوة ، وينظر بمعنى أنه يخالف الله ، هذا يسمونه ﴿ **يعملونَ السوءَ بجهالةٍ** ﴾ يقولون : إن توبة هذا الشخص لا تقبل ، ولكن إذا ارتكب المرء ذنباً بدون أن يكون هنالك غلبة للشهوة وعاند وارتكب الذنب ، هذهِ الآية الكريمة تقول : إنه لا تقبل توبة هذا الشخص .

---

(١) سورة النساء ، الآيتان : ١٧ و ١٨

وحول الذين تقبل توبتهم تقول الآية الكريمة : **﴿ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾** فيجب أن يتوبوا فوراً . وفي نفس هذا المثال عندما ينظر إلى امرأة بشهوة ، عندما تمرّ المرأة ، ويندم ، عليه أن يتوب فوراً ، وستقبل توبتهُ ، ولكن إذا سوّف وماطَل في التوبة ، تقول الآية : لن تُقبل توبتهُ ، بل التوبةُ للّذين **﴿ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾** .

وكما يقول القرآن الكريم في هذهِ الآية : **﴿ وليستْ التوبةُ للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدهم الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ ﴾** التوبة هي للذي يتوب ، وهو في أتم الصحة ، لا أن يكون في وقت الاحتضار ، ثم يطلب التوبة حينذاك ، وهذا هو الشائع عند العوام بأن التوبة عند الاحتضار لا تقبل . وقد أخذوا هذا المعنى من الآية التي تقول : إذا تاب قبل الموت ، عندما لا يكون بين يدي عزرائيل ، تقبل توبتهُ ، ولكن التوبة عند الموت لا تقبل ، وقد يبدو ذلك مبايناً لما قلناهُ بأن التوبة في الإسلام مقبولة ، ولكن هذهِ الآية تقول : إن التوبة عند الممات لا تقبل . الحالة الأخرى التي لا تقبل فيها التوبة ، عندما يموت الكافر والمشرك ويريدون التوبة في يوم القيامة عندما يذهبون إلى القبر يريدون التوبة كما يقول في آية أخرى : **﴿ إنَّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يشركَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ﴾**(1) إن الله لا يغفر للمشرك ، والمقصود هنا أن يموت الشخص مشركاً . وقد فسر البعض هذهِ الآية ، بأن الله لا يقبل توبة المشرك ، وهذا الكلام غير صحيح :

﴿ إنَّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يشركَ بهِ ﴾ بمعنى أن يموت مشركاً ، يذهب إلى القبر وهو مشرك ، أو يهودي ، أو كافر فلن تغفر توبته ، كما يقول في آيةٍ أخرى : بعض الناس عندما يذهبون إلى القبر ، ويرون الأوضاع سيئة يقولون : **﴿ قالَ ربِّ إرجعونِ لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومنْ ورائهمْ برزخٌ إلى يومِ يبعثونَ ﴾**(2) .

خلاصة القول : إن باقي الآيات تعود إلى نفس الآية (١٧) من سورة.

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٩٩ و ١٠٠

النساء وقد جمعت هذهِ الآية كافة الآيات ، وجميع الروايات الموجودة عن النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين (ع) تعود إلى نفس الآية ، إذ لا تعتبر هذهِ الآية الكريمة توبة أربعة مجموعات مقبولة : هذهِ الآية الكريمة من ألطاف الله الكبيرة ، لأن هنالك أربعة صفارات إنذار في هذهِ الآية وصفارة الإنذار من ألطاف الله ، مثلاً عندما تحدث حادثة خطيرة تدوي صفارات الإنذار من الإذاعة والتلفزيون ، وهذهِ من مواهب الإذاعة والتلفزيون . لأنه عندما يهاجم العدو لن تصابون بمكروه ، هذهِ الآية الكريمة صفارة الإنذار تنوّه للمسلمين عن أربع نقاط رئيسية كالتالي :

١ ـ إذا استولت إحدى الصفات الدنيئة كالعناد على قلب الإنسان لن تدعهُ يقوم بعمل خيرٍ ، ولن يوفق بعد ذلك في أن يتوب ـ أحياناً يستغيب الشخص ـ وهو يعلم أن ذلك حرام ، ولا يحاول تبريره ، بل يعترف بأنه استغاب وعملٍ عملاً سيئاً ، هذا الشخص عندما يندم ويتألم حقاً تقبل توبته ، ولكنه أحياناً يبرر الذنب الذي يرتكبه كان يستغيب ويقال له : لا تستغيب ، يقول : هذهِ الصفة التي قلتها موجودة في ذلك الشخص ، وهو يجب أن يُستغاب ، وهذا عمل جائز . من البديهي أن توبتهُ لا تقبل ، لأنه لا يعتبر نفسه مذنباً أساساً ، كشخصٍ مصاب بمرض السرطان ، من الواضح إذا اكتشف المرض في المرحلة الأولى يمكن معالجته وتعويضه ، ولكن عندما يستشري في الدم ويتجذر في اللحم والجلد . حينذاك لا يمكن تعويضه .

أحياناً يشعر المرء بألم ويراجع الطبيب وقد يحدد الطبيب نوع المرض ويقوم بمعالجتهِ ، ولكنه أحياناً لا يعلم أن لديه ألم ، لذلك لا يراجع الطبيب لكي يعالج الألم . وهكذا هو الإنسان العبيد . ذلك الذي يرتكب الذنوب ويبرر ما يرتكبه ، وذلك الذي يرتكب الذنوب عناداً ، من الواضح أنه لا يعتبر نفسُه مذنباً ليتوب ، ولكن على العكس إذا ارتكب الذنب بجهاله وتغلبهُ الشهوة وأذنب ـ والعياذ بالله ـ ارتكب الزنا ، ثم ندم على فعلته . واعتبر نفسهُ مذنباً ومريضاً وراجع الطبيب ، ويقول له الطبيب : دوائك التوبة ، ولكن إذا ارتكب الذنوب عناداً ، في هذهِ الحالة لا يعتبر نفسه مذنباً لكي يتوب .

الآية الكريمة تقول : ﴿ إنّما التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ

بجهالةٍ ﴾ يقول : إحذر ، لا ترتكب الذنوب ، وإذا ارتكبت ذنباً بجهالة ، وإذا لم يكن بجهالة وبغلبة الشهوة ، اعلم أنك لن تنال التوبة ، إنه لا يقول : إذا وفقت في التوبة لن أقبل توبتك ، هذهِ الآية فيها صفارة إنذار ، يقول : يا من أنت في خضم الذنوب ، إحذر أن لا تكون ذنوبك عن عناد ولجاجةٍ بل بجهالة ، وإذا لم تكن عن جهالة ستصبح تعيساً .

هنالك الكثير من الأشخاص من هذا النمط ، يقفون في مواجهة الله مع أنهم يعلمون أنها معصية ـ لا سامح الله ـ أن يصبح المرء لجوجاً وتَغمرُهُ العصبية الفردية أو الجماعية ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ وأضلّهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[1] . يُضل نفسه على علم ، يُعرّض نفسه للضلالة على علم ، بالأخص الأشخاص المعقّدين يرتكبون الكثير من الذنوب عن عمد ، وإحدى واجباتكم أنتم المعلمون هي أن لا تجعلوا هؤلاء الأطفال يشبّون معقدين ، بل أن تسعوا لاقتلاع العُقَدِ المُتجذرة لديهم . إذا أصبحتم ـ والعياذ بالله ـ غير مبالين أو إذا أصبح لديكم توتر في الأعصاب أو أن تذهبوا إلى الصف بدون استعداد مسبق ، بدلاً من أن تسعدوا الأطفال ، ستقدمون للمجتمع أفراداً معقّدين فإذا تعقّد الطفل وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ أضلّهُ اللّهُ على علمٍ ﴾ فإن ذنبهُ لن يكون بجهالة ، وسفاهة ، بلِ عن عُقدة وسيكون عند عناد ولجاج ، وهكذا هي سائر الصفات الرذيلة ، مثلاً عادةً تتناحر العروس وأم الزوج ، في الوقت الذي لو أعادت أم الزوج النظر في موقفها سترىٰ أن العروس لا ذنب لها ، في حين أنها تتهمها وتستغيبها وتلجأ إلى النميمة لأن الجذور النفسية لهذهِ الحالة هي الحسد ، الذي يقول عنه أحد المراجع إن حملَة نائم على عتبة بيتنا أي أن أهل العلم معرضون لهذا الخطر ، لدينا رواية أيضاً حول هذا الموضوع بأن حسد أهل العلم أكثر من الآخرين ، إن الحسد يسير بالمرء إلى جهنم ، والذنب الناجم عن الحسد ليس ناجماً عن الجهالة ، إنه يعلم أن ذلك ذنب ، ولكنه يطفىء وميض وجدانه بتبريره ويرتكب المعصية .

القرآن يقول : هذا الشخص لن ينال التوبة ، لأن الحسد يحول دون

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

توبته . الإنسان الذي يحب الجاه يُذنب ويصل إلى مدى يكون فيه مستعداً لقتل ثلثي سكان العالم ليحكم على الثلث الباقي .

وهذهِ إحدى النظريات الصهيونية التي وردت في كتاب موجود الآن وهي تقول : إذا لزم الأمر أن تقتل ثلثي سكان العالم لتحكم على الثلث الباقي عليك أن تفعل ذلك ، وقد أوضحت الحرب العراقية ـ الإيرانية هذهِ الحقيقة . هل الجرائم التي يرتكبها صدام عن جهالة ؟ هل هي ناجمة عن تغلب الشهوة على العقل ؟ طبعاً لا ، قد تكون عن لجاج ، ولكنها قبل ذلك عن حب الحياة . إنه مستعد من أجل أن يصبح يوماً ما زعيماً على العراق أن يقصف دزفول بالصواريخ إذ حتى الطفل يعلم أن هذا العمل خطأ ، بل حتى المجنون يعلم أنه خطأ ، إذن لماذا يُقدم على هذهِ الأعمال الجنونية ، هل هو مجنون ؟ كلا ، بل إن عقله مولع بحب الجاه ـ ولا سامح الله ـ أن يصبح المرء محبّاً للجاه .

على فكرة ، إن الجميع لديهم رغبة حب الجاه واجتثاث جذوره صعبٌ للغاية ، أحياناً كان أستاذنا الجليل آية الله العظمى البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ ينصحنا ، ويقرأ هذهِ الرواية بأن النبي الأكرم (ص) قال : « **آخر ما يخرج عن قلوب الصديقين حب الجاه** » (الصديق إحدى مراحل السير والسلوك العرفاني ومرتبة الصديق تالي تلو العصمة ، تقول الرواية : آخر ما يجتث من قلب الصديق حب الجاه) .

الجملة الأولى للقرآن الكريم صفارة إنذار للذين لديهم صفات رذيلة ، يقول . إحذروا ألا تكونوا حسودين ، ومحبي الجاه وبخلاء ، لا تسيئوا الظن بالناس ، لا تسودّ قلوبكم من تراكم الذنوب على الذنوب لتصبحوا قاسين بدون رأفة . لماذا ؟ لأنه إذا ترسخت إحدى الصفات الرذيلة في قلوبكم ، فسوف ترتكبون الذنوب ولا تتوبون ، لأنكم لا تشعرون بأنكم مذنبين .

كان البعض في عهد الطاغوت يأتون إلى الشارع عراة ، وكانوا يبررون عملهم هذا باسم الثقافة والتنوّر ، يعتبرون أنفسهم علماء والآخرين رجعيين ، يعتبرون أنفسهم واعين وعلماء ، لقد كانوا يرتكبون الذنوب ثم يبررون ما يقومون به ، فالذين يكونون على هذا النمط لن يكون لهم استغفار ، كانوا

يعتبرون السفور ليس تعرّياً بل وعياً ، كيف يمكن أن يتوبوا ؟ القرآن يقول : ﴿ إنما التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ﴾ .

التوبة لأولئك الذين يرتكبون السيئات بجهالة ، وإحدى مكاسب ثورتنا الإسلامية هي أن الكثير من هؤلاء النسوة تُبنَ ، ولأن عملهن كان عن جهالة ، فإن توبتهن مقبولة لا محالة ، ليس تقبل توبتهن فحسب ، بل إن الباري عزّ وجلّ أبلغهن السلام ، ليس فقط توبتهن مقبولة ، بل إن الله يقول : يا عبدي المذنب ، أحبك ، بل أحبك كثيراً ، تعالى، تعالى، فإني أقبلك . إذن الآية لا تريد أن تقول : إذا كان الذنب عن عناد ولجاج لن تقبل التوبة ، كلا ، لا توجد في الإسلام طريق مسدودة ، بل الآية صفارة إنذار أن إحذر أن لا يكون ذنبك بلجاج ، لأنه إذا كان ذنبك عن عناد ، فنادراً ما تُوفّق إلى التوبة . وحول الجماعة الثانية يقول : ﴿ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾ التوبة للذي إذا ارتكب ذنباً سارع إلى التوبة ، هذه أيضاً صفارة إنذار للذي يماطل في التوبة . كان هنالك الكثير من الذين لا يصلون ، يظلمون ويأكلون الربا ، يمتصون دم الناس ، كان لديهم جرائم ومفاسد ، وكانوا عندما يسألون عن السبب يجيبون : نكبر ثم نتوب ، ثم يذهبون إلى قم أو كربلاء ويجاورون الأماكن المقدسة ، على أمل أن يغفر لهم الإمام الحسين (ع) التسويف والإهمال في التوبة فطرٌ قائم ، الإنسان أحياناً بعد أن يرتكب ذنباً يندم مباشرةً ويتوب فوراً ، ولكن بالإهمال يتناسىٰ التوبة وبالتالي عندما ينسىٰ ، والذنب يدرج في قائمة أعماله ، ولكنه لا يعلم أنه مذنب لكي يتوب ، الذي يفوته وقت الصلاة يقيم صلاته قضىً بدون تأخير ، ولكنه إذا تأخر في قضاء الصلاة ، لن يتذكر بعد ذلك أنَّ صلاته أصبحت قضىً ليقيمها . الآية الثانية تقول : أيها المذنب ، إذا ارتكبت ذنباً تُب فوراً ، عوّض فوراً ، إذا لم تصلّي تأهب فوراً للصلاة ، لا تؤخر ذلك ، لأن للتأخير ضررين كبيرين هما :

١ ــ تنسى الذنب ، وعندما تنسى ، لن توفّق بعد ذلك في أن تتوب .

٢ ــ شيئاً فشيئاً يثقل العبء الملقى على عاتقك وعندما تنكر كل شيء من خلال تبرير واحد ، مثلاً الذي يملك عشرة آلاف تومان إذا لم تكن رأسماله ، يجب أن يدفع خمسها تأدية لفريضة الخمس ، ولكن إذا لم يدفع

وبعد مُضي عشر أو عشرين سنة يحسب ماله فيجد أن عليه أن يدفع عدة ملايين كخمس ، يشعر أنه لا يستطيع ذلك ، ويريد أن يطفيء وميض وجدانه ، فبماذا يطفئه ؟ يقول : لقد كدحت وعملت ، وجمعت مالاً ، ليذهب الفقير ويعمل ، لماذا أعطي مالي ، وبدل أن يتوب يسير باتجاه وادي الكفر .

القرآن الكريم يطلق صفارة الإنذار هذه . القرآن الكريم يقول : ﴿ ثمَّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤا السوأى أنْ كذبوا بآياتِ اللّهِ ﴾[1] ، الذين يرتكبون الذنوب ويؤخرون التوبة سيصلون إلى مرحلة ينكرون فيها الإسلام ﴿ أنْ كذّبوا بآياتِ اللّهِ ﴾ يقول : ما هو القرآن ؟ وما هو الإسلام ؟ هنالك نماذج متعددة في التاريخ من هذا النوع . ولكن الذي يؤخر التوبة متماهلاً إذا وفق إلى التوبة ، هذهِ الآية لا تقول توبته غُير مقبولة ، إن الآية لا تدل على ذلك ، القرآن الكريم يقول : ﴿ قلْ يا عبادِيَ الذينَ أسرفوا على أنفسهمْ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ﴾[2] .

أينما تكون تعالى، وكيفما تكون ، حتى إذا كُنْتَ كبشر الحافي .

من هو بشر الحافي ؟ كان رجلاً مستهتراً وبيته كان خمارة طوال خمسين سنة ، وكان محلاً للفواحش ، كان بيته مكاناً للرجال المستهترين الماجنين . وفي أحد الأيام مَرّ الإمام موسى بن جعفر (ع) من أمام بيته فسمع صوت الموسيقى والغناء يخرج من بيته فسأل خادمته : صاحب هذه الدار حرٌ أم عبد ؟ قالت : كلا يا سيد إنه حر ، قال : نعم إنه حر ، ولأنه حر يفعل هكذا . جاءت الخادمة عند بشر الحافي فسألها من الذي كلّمك ؟ قالت : كان سيداً سألني هكذا وأجبتهُ هكذا ، كان كالشرارة التي تقع على البنزين إذ حدث تفاعل في ذاته . قال : إني أعلم من هو . ذهب إلى الإمام موسى بن جعفر (ع) حافي القدمين فأصبح اسمهُ بشر الحافي ، قال : لقد أخطأت ، لقد أخطأت ، لقد ارتكبت الذنوب خمسين عاماً ، ولكني أسأت فعلاً . فقبله الإمام موسى بن جعفر (ع) ، لم تقبل توبته فحسب ، بل ذاع صيته بالإيمان . العارفون يقولون

---

(١) سورة الروم ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة الزمر ، الاية : ٥٣ .

عنه (لا علم ما مدى صحة هذا الخبر) : إنه لم ينتعل حذاء بعد ذلك ، وكان دائماً يمشي حافياً . قالوا له : لماذا تمشي حافياً ؟ قال : عندما تبت كنت حافي القدمين ، أود أن أبقى حافي القدمين إلى أن أموت ، تدريجياً ، وَصَلَ إلى مرحلة كانت الحيوانات لا تلقي فضولاتها في أماكن تردده ، هذا ليس مستبعداً . مرحىٰ لمن تكون يد العناية الإلٰهية فوق رأسه ، مرحىٰ لمن ينهض في غياهب الليل ، ويناجي ربه نادماً على ذنوبه ، لا تعلمون إلى أين يصل ؟ يصبح فضيل بن أياز ، يصبح بشر الحافي .

تذكروا حر بن يزيد الرياحي ، وكونوا على ثقة مهما كان الذنب كبيراً يغفر له

نفس حر بن يزيد الرياحي يقول : يا حسين ، أنا أول من روّع زينب (ع) هو الذي منع الإمام الحسين (ع) من الذهاب إلى المدينة ومنعه من الذهاب إلى الكوفة ، حاصر الإمام الحسين (ع) ليجتمع الجيش ويقتلوا الإمام . هذا الذنب كبير جداً ، ولكن توبتهُ أكبر ، رأفة الله أكبر ، رأفة الإمام الحسين (ع) أكبر . يقول : شاهدت الحر في يوم عاشوراء هذهِ يسمونها التوبة ـ لا تحتاج إلى استغفار الله ـ شاهدتهُ يرتجف ، قلت : لماذا ترتجف ؟ لم تقع الحرب بعد ، ماذا دهاك ؟ قال : كلا ، ولكني أخيّر نفسي بين الجنة والنار ، يا لسوء فعلتي ، ماذا أصنع الآن ؟ جاء عند الإمام الحسين (ع) ، الإمام الحسين (ع) عنوان الرحمة الإلٰهية . قلنا سابقاً : إن الله يخاطب عبده قائلاً : يا عبدي المذنب ، تعال ، سلامٌ عليكم ، الإمام الحسين (ع) أيضاً قال : يا أبو الفضل ! اذهب وقل له سلامٌ عليكم ، جاء أبو الفضل لاستقبال الحر ، وأخذه عند الإمام الحسين (ع) ، طأطأ الحر رأسه ـ هذهِ هي التوبة ـ الإنسان في ظلمة الليل الدامس يشعر بالخجل لوقوفه بين يدي الخالق مذنباً .

هذهِ نفس تلك الجملة التي كان قائد الثورة العظيم يُعيدها على مسامعنا. وقد ثبت مراراً من وسائل الإعلام : عليكم أن تروا أنفسكم في محضر الله ، عليكم أن تعلموا أن الله حاضر ويراقبكم عن كثب ، إذ وجدت نفسك بين يدي الله ستشعر بالخجل دائماً من ذنوبك ، إذا وجدت نفسك بين يدي الله ،

ورأيت الله حاضر ويراقب أعمالك عن كثب ، قلّما تصدر عنك أعمال شيطانية بل تصبح أعمالُك رحمانيةً .

الحر نفسه بين يدي الإمام الحسين (ع) مطأطأ الرأس، حاولوا أن تكونوا كالحر بين يدي الإمام الحسين (ع) ، هكذا كونوا في محضر الباري عزّ وجلّ ، إن الله موجود في كل مكان ﴿ **يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصدور** ﴾[1] موجودٌ في كل مكان ويعلم بما يجري في الخلوة والزحام ، التوبة تجعل الإنسان خجلاً في محضر الله . قال الإمام الحسين (ع) : إرفع رأسك يا حر ، لقد غفر لك ، ولكن الحر لا يرفع رأسه ، إنه يشعر بالخجل ـ هنا توجد نقطة ـ صحيح أن الله يغفر ، ولكن خجل العبد يبقى . الحر خجل لا يستطيع أن يرفع رأسه ، وأخيراً لم يرفع رأسه ، ولم يقع نظره على الإمام الحسين (ع) .
يقول الراوي : عندما كان سلمان الفارسي يحتضر ، وكان والياً على المدائن ، كنت عنده فوجدته يبكي . قلت : يا سلمان لماذا تبكي ؟ إنك رجل ذو مكانة مرموقة ، ووصلت إلى مقام رفيع حتى قال فيك النبي (ص) : « **سلمان منّا أهل البيت** » ونقرأ في الروايات : أن سلمان أحرز تسع درجات من الإيمان . قال سلمان : تذكرت رواية عن النبي الأكرم (ص) هنالك منعطفات في يوم القيامة ، هنالك يوجد مأمورون يسألون سبعة مأمورين يسألون ، والنبي (ص) يقول : « **نجى المخفون وهلك المثقلون** » . يعني نجى من كان حِمْله خفيفاً ، ولكن حملي ثقيل . سلمان الفارسي يحتضر ويقول : حملي ثقيل ، نفس الراوي يقول : تمعنت في النظر ، لكي أرى لماذا ثقل حمل سلمان وشاهدت جلداً للخروف كان فراشاً للنوم والجلوس ، مع أنه كان والي المدائن ، أعد إناء من الطين للأكل وإبريقاً للطهارة ، وقلم ودواة للكتابة ، لم يكن شيء آخر في غرفته وكانت غرفته مستأجرة ، ومع ذلك يقول : حملي ثقيل ، وعبئي أثقل « **نجى المخفون وهلك المثقلون** » يقول بابا طاهر : أنا الذي كالجمل .

ومع هذهِ العدّة القليلة والعبء الثقيل   لا أزال خجلاً أمام صاحبي

إن الله يغفر توبة المذنب ، مهما كانت ، ومهما كان . ولكن عندنا أن

(١) سورة غافر ، الآية : ١٩

نخجل ونصلح أنفسنا ، ونعوّض ما فات لأن الله إذا غفر ، علينا أن نتعرف على واجبنا تجاه ذلك ، كالحر بن يزيد الرياحي الذي لم يستطع أخيراً أن يلقي بنظراته على الإمام الحسين (ع) وعندما استشهد جاء الإمام الحسين (ع) واحتضن رأسه ، ولكن الحر لم يبرح يرفع رأسه ويضعه على الأرض ، لم يفتح عينيه ، كان خجلاً وبعينين مغمضتين ، قال للإمام (ع) : هل رضيت عني يا إمام ؟ قال : أجل يا حر ، رضي الله عنك ، وكما سمتك أمك حراً أرجو أن تكون حرّاً في الدنيا والآخرة . لقد عفى الحسين (ع) معلم الرحمة الإلّهية عن الحر ، ولكن خجل الحر لا يزال باقياً .

إلّهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمن علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والتوبة الإنابة وتوفيق طاعتك وعبوديتك وترك معصيتك .

البحث الحادي عشر

« التوبة (٣) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول التوبة والإنابة ، وقلنا : إن الذنب مهما كان كبيراً أو كثيراً يمكن تعويضه حسب الرؤية القرآنية . لأن الإسلام ليس فيه طريق مسدودة . فالآية القرآنية تُصَرِّحُ : **﴿ إنما التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾** . . **﴿ وليستْ التوبةُ للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدهم الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهمْ كفارٌ ﴾**[1] .

يقول القرآن في هذهِ الآية : هنالك أربعة مجموعات ، لا تقبل توبتهم ، ليس لهم توبة ، وهذا لا يخالف ما قلته ، بل إن هاتين الآيتين لطف وصفارة إنذار من جانب الله للمذنب ، لا يقول : لا أقبل التوبة ، بل إذا كان الذنب بلجاجة ، في هذهِ الحالة لن تنال التوبة ، رواية مشهورة ، مع أننا لا نعلم مدى صحتها ولكنها شاهد لما أريد أن أقول . كان يزيد يقول للإمام السجاد (ع) : ماذا أصنع لكي أعوّض هذا الذنب ، قال : صلي صلاة الغفيلة ؟ من الذي يتوب ؟ قال الإمام (ع) : إنه لن يوفق للتوبة ؟ شاهد ما أريد أن أقول ، هو أن الذنب إذا كان عن لجاج ولم يكن بجهالة أو سفاهة فلن يوفق الإنسان في

---

(١) سورة النساء ، الآيتان : ١٧ و ١٨

التوبة ، بمعنى أنه لا يعتبر نفسه مريضاً ليستعمل الدواء ويراجع الطبيب . والآية الكريمة تطلق صفارة إنذار بأن لا يصبح الذنب أمراً عادياً أو لا يكون عن لجاج وعناد ، فإذا زالت مهابة الذنب من القلب لن يوفق للتوبة . ﴿ **إنما التوبةُ على اللّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ** ﴾[1] .

التوبة لمن إذا ارتكب ذنباً ، تاب فوراً . ليس معنى ذلك إذا ارتكب الشخص ذنوباً أيام شبابه ، وحصل لديه الآن تفاعل ذاتي وتوفرت لـه ظروف التوبة ، لن تقبل توبته ، لا شك أن توبته مقبولة من الرؤية الإسلامية . إذن الآية الكريمة تطلق صفارة إنذار أخرى وتقول : إحذر ، إذا ارتكبت ذنباً عوّض عنه فوراً ، لأنك قد تنساه ، ناهيك عن أن تراكم الذنوب يسوّد القلب ويزيل مهابة الذنب ، ولن توفق بعدها للتوبة رواية عن الإمام الصادق (ع) شبـه فيها الذنب ، كخالٍ أسود في القلب إذا تلافيته سيزول الخال الأسود ، ولكن إذا حدث ذنباً ثانياً يكبر الخال ويتراكم الذنب فوق الذنب ويسودّ القلب تماماً .

نقل عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : ﴿ **ولنْ تفلحوا إذاً أبداً** ﴾[2] بمعنى إذا غمرت المعصية القلب لن يفلح في التوبة . المعنى الآخر هو أن إحذر ، إذا ارتكبت ذنباً تلافاه ، وكما يقول الإمام الصادق (ع) : إمحي ذلك الخال الأسود لأن الذنب يغمر العقل والوجدان تدريجياً وآنذاك لن تفلح في التوبة . القرآن الكريم يقول :

﴿ **وليست التوبةُ للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضَر أحدهمْ الموتُ** ﴾

أي لا جدوى من التوبة عند الممات ، هذه أيضاً صفارة إنذار أخرى . كونوا على يقين بأنه من الناحية الفلسفية والعرفانية والأخلاقية وأيضاً من حيث منطق القرآن والروايات والمسائل الفقهية إذا تاب الشخص عند الممات تقبل توبتهُ أيضاً ، لا توجد طريق مسدودة في الإسلام ، إن يحدث تفاعل ذاتي ، ويخجل المرء من ذنبه والله يقول لا ، إن ذلك لا يتفق مع كون الله ﴿ **أرحم الراحمين** ﴾ . ينقلون إن شاباً ارتكب الكثير من الذنوب في زمن موسى (ع) وقد تدنّس بالقدر

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٧ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٠ .

الذي طلب موسى (ع) من قومه إبعاد ذلك الشاب إلى خارج المدينة . ذهب هذا الشاب إلى الصحراء وعند المبات بات وحيداً هناك ، ولم يكن لديه أحد سوى الله ، وحين تذكر ذنوبه خجل وقال : ﴿ **يا مَنْ لهُ الدنيا والآخرةُ إرحمْ مَنْ ليسَ لهُ الدنيا والآخرة** ﴾ . الرواية تقول : إن خالق الكون قَبلَه حتى أنه أرسَل إليه أمه وأباه وأقرباءه على هيئةِ الملائكة ، عندما توفي ، قيل لموسى (ع) : مات أحد عبادنا الصالحين إذهب وادفنه . جاء موسى (ع) وشاهد نفس ذلك الشاب المذنب الذي أبعد بسبب ذنوبه .

قال : يا إلّهي ، إنه نفس الشاب اللاأبالي ، كيف أصبح عَبداً صالحاً ؟ جاء الرد : يا موسىٰ هذهِ عتبتنا ليست عتبة اليأس ، عندما كان مذنباً ، كان سيئاً ، ولكن ماء التوبة غسل ذنوبه ، لذلك غفرت له ، وأصبح من أهل الجنة . ولنفترض أنه لم تكن لدينا هذه القضية التأريخية ، لا شك من الناحية الفلسفية والعرفانية والأخلاقية يجب القول : لا توجد طريق مسدودة في الإسلام إذن الآية الكريمة ، صفارة إنذار ، بمعنىٰ عادة ما يرىٰ الإنسان عند الموت مشاهد عديدة . لدينا رواية تقول : إن أمير المؤمنين (ع) يجب أن يأذن لتؤخذ روح المؤمن أو الكافر ، ويرىٰ الجنة أو جهنم أمامه ، الإنسان السيء يرىٰ جهنم وهو نادم . ولكن ليس من الذنب ، أو قد يتوب ، ولكن ليس التوبة من الذنب ، إنه نادم بسبب تصرفهِ بهذهِ الطريقة التي أدّت إلى معاقبته على هذا النحو ، كالمحكوم بالإعدام ، عندما يأتون به إلى المشنقة يندم ، إلا أنه عادة يكون نادماً ليس على أنه لماذا قتل فلاناً ، بل من خوفهِ على نفسهِ من حبل المشنقة ، هذا العارف والفقيه والفيلسوف نصير الدين الطوسي يقول في شرح الإشارات : إذا كانت التوبة من أجل الذهاب إلى الجنة أو عدم الذهاب إلى النار ، فليست مقبولة ، التوبة تعني الخجل من الذنب ومن الله .

لقد قلت في وقتٍ سابقٍ : إن توبة الحر بن يزيد الرياحي أمام الإمام الحسين (ع) كانت ندماً على ما فعله ، لم يكن أحد يريد قتلهِ ، لم يكن هناك عذاب أو دنيا ، عندما جاء باتجاه الإمام الحسين (ع) لماذا لم يستطع أن يرفع رأسه ويواجه الإمام الحسين (ع) بنظراته ؟ لأنه كان خجلاً من ذنوبه ، هذهِ يسمونها التوبة الحقيقية .

نصير الدين الطوسي ـ رحمة الله عليه ـ يقول : إذا أراد المرء أن تقبل توبتهُ عليه أن يكون هكذا ، أن يقول : لقد أفطرت في شهر الصيام ، كنت في ملكه وأمام الله وارتكبت الذنوب في محضر الله ، عجباً يا لي من عديم الوفاء . لذلك يطلق القرآن الكريم صفارة إنذار ، ويقول : إصلح نفسك قبل الممات فلن تدعك التصورات والفزع والهلع أن تتوب ، من الممكن أن تندم ، ولكن الندم ليس التوبة . إذن إعلم ، إذا لم تتأهب ، فلن تقدر أن تتوب عند الممات .

القرآن يقول : ﴿ **وليست التوبة** .. ﴾ بمعنى لا يمكنك أن تتوب ، أجل ، إذا استطعت أن تتوب عند الممات فستقبل منك لا محالة .

خلاصة القول : أن لا توجد طريق مسدودة في الإسلام مهما كان الذنب كبيراً وكثيراً ، إذا جاءت التوبة ، بمعنى عندما يكون الخجل من الذنب في محضر الله كالخجل الذي انتاب الحر بن يزيد الرياحي أمام الحسين (ع) أن يكون عند الممات أيضاً فالتوبة مقبولة ، في الشباب أو الشيخوخة ، عن عناد أو من دون ذلك . القرآن يقول : إذا كانت عن عناد ، فهي صفارة إنذار ، بمعنى إعلم أنك في هذهِ الحالة لن تفلح في التوبة ، وعندما يقول : إن التوبة عند الممات لا تقبل بمعنى لا يمكنك التوبة حينذاك .

أما الجملة الرابعة : ﴿ **ولا الذينَ يموتونَ وهمْ كفارٌ** ﴾ بمعنى ما هو الموقف عندما يموت المشرك ؟ وأين يتوب ؟ .

الذي يُدان ويريد حاكم الشرع أن يقبل توبته ، لا يحق لهُ ذلك . إنه أُدينَ ، وحكم عليه بالسجن ، وليس لديه كفاءة أن يتوب ، لذلك تكررت الجملة الرابعة في القرآن .

﴿ **إنَّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يشركَ بهِ ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ** ﴾[1] .

إذا مات الشخص ، وهو كافر ، فإن مكانه في جهنم ، وهذا لطف آخر يستشف من هذهِ الآية .

إذا مات المسلم مذنباً ، سيطهر في القبر ويَزول ضغطهُ عن صدره إذا

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

كانت ذنوبه كثيرة فهو يعذب في عالم البرزخ ، هناك يتعامل مع أعماله وتستحيل أعماله السيئة بشكل حيوانات فتّاكة ويعذب . لديه عذاب القبر ، وعذاب البرزخ وإذا كانت ذنوبه كثيرة جداً . فإن فضيحة يوم القيامة تخفف من عذابه ، وإذا لم يتطهر يجب أن يذهب إلى جهنم ، جهنم من ألطاف الله الخفيّة ، جهنم إحدى نعم الله الكبيرة يجب أن يذهب المذنب إلى جهنم ليتطهر هناك ، بمعنى تزول عنه الشوائب ويصبح من أهل الجنة تدريجياً ، لذلك ، فإن المسلم ، المسلم الشيعي لن يبقى في جهنم خالداً . نعم ، أحياناً قد يحتاج إلى البقاء ألف سنة في جهنم لكي يتطهر ، وهذا الأمر مرتبط بالمقدار الذي أتى به من شوائب الدنيا ، أحياناً قد يكون الذنب مترسخاً في قلبه ، مترسخاً في جلده ولحمه وعظمه ، ويجب أن ينقى ليصبح من أهل الجنة كالصخر الذي يحتوي على الذهب ، إذا أراد أن تكون له مكانة وقرب ، يجب أن يصهر في بوتقة (١٨٠) درجة لتزول عنه الشوائب . الذي يريد أن يذهب إلى قلب الحور العين ، لا يمكن أن ينال ما يُريد إذا كان مذنباً . القرآن الكريم يقول : بقاء الشيعي في جهنم يستغرق سنة واحدة أحياناً وقد يستغرق سبعمائة عام أحياناً أخرى ، لذلك ، فإن مدة بقاء الشيعي في جهنم مختلفة وبما أن الجنة مقام القرب الإلّهي لا يجب أن يدخل بذنوبه ، يجب أن يتطهر من الذنوب إما يتطهر بواسطة التوبة والإنابة والعبادة في الدنيا أو في القبر والبرزخ والقيامة ، وإذا يطهر بواسطة الشفاعة والعفو الإلّهي ، يجب أن يبقى في جهنم إلى أن يطهر .

إذا شعر بالخجل من جراء ما ارتكبه من ذنوب ، سيغفر له لا محالة ، كأنه لم يذنب أبداً .

القسم الثاني من التوبة ، هو حق الله ، إن خالق الكون وضع شروطاً للتوبة كالصلاة والصيام ، وهي حق الله ، ولا علاقة للناس بها . إذا لم يُصل أو أقام الصلاة بصورة رديئة ، فإن ذنبه كبير جداً ، بالقدر الذي يقول القرآن الكريم حول الساهين عن الصلاة إنهم كفرة وويل للكفرة : ﴿ **فويلٌ للمصلّينَ الذينَ همْ عنْ صلاتهم ساهونَ** ﴾[1] ويلٌ للذي يستخفّ بالصلاة إنه غير مسلم وذنبه كبير

(١) سورة الماعون ، الآيتان : ٤ و ٥ .

جداً ، توبته أن يخجل لارتكابه الذنوب وعليه أن يقضي الصلاة التي لم يقمها من قبل . وهذا الأمر يختلف عن الكذب وشرب الخمر ، حيث لا يمكن تلافيهما ، ولكن الصلاة يمكن تلافيها يمكننا أن نقيم الصلاة ، وأن نصوم الأيام والشهور التي لم نصمها .

أنا لا أقول : إن الذي لم يصلِّ أو لم يصم طوال عشر سنين عليه أن يصوم كل يوم ، وأن يصلي بلا انقطاع ، كلا ، عليك أن تتلافى ذلك بحيث لا تضر ببقية أعمالك ، بمعنى الذي لم يصلِّ فترةً من الزمن يمكنه أن يصلي صباحاً بدل الركعتين أربع ركع ، وهكذا الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، أو في يومٍ من أيامِ العُطَلِ ، يقضي صلاة أربع أو خمسةِ أيام ويصوم أيضاً على هذا النحو .

الإمام الخميني (رض) ومن أجل السير والسلوك العرفاني يصرّ كثيراً على صيام يومي الاثنين والخميس ، وهذا مفيد جداً ، إذن بصيام يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع يمكن أن نقضي الصيام . والآن إذا ندم المرء وقال : لماذا لم أصلِّ الصلاة التي يجب أن تكون أكبر متعة للعبد ، الصلاة التي نصفها حديث الله مع العبد (الحمد والسورة) والباقي حديث العبد مع الله ، إن هذهِ أكبر مُتعةٍ للإنسان . أكبر متعة هي الانفراد مع الله ، وأكبر من هذهِ المتعة حديث العاشق مع المعشوق ، وأكبر من ذلك حديث المعشوق مع العاشق ، والمولى مع العبد عشر سنين لم يصل فيها ، فجأة يعي ذلك ، إنه يرى أية خسارة لحقت به ، ولكن يمكن تعويضها .

« التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

انظروا إلى حياء الحر بن يزيد الرياحي أمام الإمام الحسين (ع) ، ذنوبه ستغفر ، ولكن عليه أن يتأهب لتعويضها .

الوجه الثالث : حق الناس :

حق الناس بمعنى الحق الذي له علاقة بالناس ، وهذا مهم جداً ، نقرأ في القرآن الكريم : ﴿ **إنَّ ربكَ لبالمرصادِ** ﴾[1] وحول هذه الآية الكريمة توجَدُ

---

(١) سورة الفجر ، الآية : ١٤

شرطةُ مرور في يوم القيامة ، وكما يقول سلمان الفارسي عقبات تسأل ، أولاً عن الصلاة إذا تمكن من الإجابة يقول : إذهب إلى الأمام ، ولكنه لـو أخفق من هناك يعودون به إلى جهنم . يسألون عن الصلاة والخمس وصلة الرحم ـ شرطة الله أي الملائكة ـ ولكن هنالك مرحلة يسأل الله بنفسِهِ ، وليس الملَكَ ، لذلك يقول القرآن : ﴿ **إنَّ ربكَ لبالمرصاد** ﴾ .

وقد أقسم الله أرحم الراحمين قسماً حين قال : بعزتي وجلالي ، قد أعفو عن أي شيء ، ولكن لن أعفو عن حق الناس ، لذلك فإن حق الناس صعب للغاية .

كان النبي الأكرم (ص) يقول لأصحابه والمسلمين من على المنبر : « أيها المسلمون ، واظبوا على حق الناس ، واعلموا إذا غصبتم خيطاً وخطتم به لباساً فإن الصلاة بذلك اللباس باطلة وعلاوة على ذلك يجب أن تذهبوا إلى جهنم ، أو حـول الأرض المغتصبة التي يـطوقون بهـا عنقه بـطوق حديـدي أو المـال المغتصب والخ . . ﴿ **هـذا مـا كنـزتم لأنفسكم** ﴾[1] هـذهِ السـرقـات وأمـوال النـاس التي أكلتها بالحرام ستسبب لك صعوبات جمّة ، الآن هل يستطيع الذي أكل مال الناس بالحرام أن يتوب ؟ نعم يمكنه أن يتوب « **التائب من الـذنب كمن لا ذنب لـه** » إذا تاب واستحىٰ ونـدم ، أن يقول : أنـا الـذي يجب أن أفكـر بـالآخرين دائمـاً ، يجب أن أعطي غـذائي للآخـرين ، كيف اغتصبت أموال الناس ؟ هل تكفي هذهِ التوبة ؟ كلا ، علاوة على ذلك عليه أن يرد ما اغتصبهُ من أمـوال إلى أصحابهـا . التوبـة من الذنب هي تـأديـة حق النـاس للنـاس وترضيتهم ، والآن إذا لم يكن لديه مال ، هذا كلام آخر « **المفلس في أمان الله** » وهنالك رواية : أن الله يرضيه يوم القيامة ويصبح الإثنان من أهل الجنة .

القسم الرابع : **حق الناس** ، ولكن ليست له علاقة بنا ، كالغيبة مثلاً ، تلك التي نمارسها جميعاً ، وعندما يجتمع البعض ، يريقون ماء وجه الشخص غير الموجود بينهم . أنا لا أعلم هل هذا صحيح أم لا ؟ يقولون هنالك ذئاب تفتك ببعضها البعض ، ولكنها تعيش بصورة جمـاعية ، سبـع أو ثمان ذئـاب

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٥ .

تجلس مع بعضها ويراقب كل منها الآخر ، طالما أنها تراقب بعضها لا يحدث أي شيء ، ولكن إذا سَرَحَ أحدها تشن بقية الذئاب هجوماً ، وتمزقه إرباً إرباً ، هنا نجد مصداق هذا الأمر فيما بيننا ، مثلًا أنتم المعلمون صفوة المجتمع إذا اجتمعتم في غرفة المعلمين ـ ولا سامح الله ـ بدأتم تتحدثون عن أحد الأصدقاء ولم يكن موجوداً بينكم بحيث ، إذا كان لأحد منكم عملًا يخشى أن يخرج من الغرفة ، هذهِ نفس صفة الذئاب ، وفي يوم القيامة نفس هؤلاء الأشخاص يقفون في طابور المحشر . حول هذا الموضوع توجد أكثر من خمسين آية في القرآن ، وقد تناولت روايات أهل البيت وعلماء علم الأخلاق والعارفون الموضوع بالبحث . تقول الرواية : « **الغيبة إدام كلاب أهل النار** » أي أنّ الذي يمارس الغيبة يتحول إلى كلب يريد غذاءاً في داخل جهنم . نفس الغيبة التي مارسها في الدنيا تصبح غذاءاً له ، نفس الأوساخ والدماء تصبح غذاءه .

نحن نصنع جهنم بأيدينا ، لذلك فإن قسماً من ذنوب القسم الرابع هي كالتالي : الغيبة ، القذف ، زنا المحصنة (بمعنى المرأة المتزوجة مع الرجل المتزوج ـ العياذ بالله ـ يرتكبان ذلك) .

هل يمكن التوبة ؟ بدون شك يجب أن يتوب وأن يخجل من ذنبه ، بمعنى أن يقول : ويل لي ، أنا الذي يجب أن أكون مرآة تعكس الإيمان الكامل ، أنا الذي يجب أن تكون سيئات المؤمن سيئاتي وبر المؤمن برّي ، لماذا استغبت الناس ؟ الغيبة تغفر ، الزنا والقذف والنميمة تزول ، هل يمكن تعويضها ؟ كلا ، تعويضها أن تدعو لمن اغتبته ، لذلك هناك رواية بأن عليك أن تقول : « **اللهم اغفر لمن اغتبته وسمعت غيبته** » إلّهي اغفر لكلانا ، إلّهي ، إنه إنسان شريف وأنا اغتبته ، إلّهي اغفر لنا ، تصلي نافلة الليل وتدعو له . إخدمه ، احترمه في المجتمع وامنحه شخصية .

والشائع بين الناس أن تطلب منه براءة ذمتك ، ولكن هذا لا يجدي لأن هذا العمل يؤدي إلى بروز الخلافات .

إذن هذا القسم من حق الناس « الغيبة ، القذف ، النميمة ، وزنا المحصنة » وأمثال ذلك ، « التوبة » منه أن تخجل ، وتعويض ذلك بالدعاء

والخدمة ، أي ذنب يمكن أن يعوّض ، ويجب أن نعوّض ذنوبنا ، يجب أن نعلم أن الذنب الصغير يصبح أحياناً ذنباً كبيراً ، اللامبالاة إزاء الذنب أحياناً تجعل الإنسان فتاكاً ويحشر مع الحيوانات .

آمل أن أعودَ بالحديث عن تجسم الأعمال ، وأن يكون ذلك مجدياً لي ولكم . إلّهي بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تمنّ علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والوعي والتوبة والإنابة وأن توفقنا لما فيه طاعتك وترك معصيتك .

البحث الثاني عشر

« رَحابة الصدر (١) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

إحدى القوى التي تمكن الإنسان من النصر في حرب الداخل هي « رحابة الصدر » كان بحثنا السابق يتمحور في أن الإنسان لديه بعدان ماديٌّ ومعنوي ، البعد المادي يسمىٰ الجسم ، والبعد المعنوي يُسمىٰ الروح ، وهذان البعدان في حرب مستمرة . هذهِ الحرب الداخلية سمّاها الإسلام « الجهاد الأكبر » ونحن إذا تمكنا من أن ننتصر في هذهِ الحرب وأن يتغلب بعدنا المعنوي على جانبنا المادي سنكون مرفوعي الرأس ونستطيع الوصول إلى الهدف وسنكون بلا شك سعداء في الدنيا والآخرة .

وصلنا في بحثنا إلى ماذا يجب أن نفعل لكي ننتصر في هذهِ المعركة الذاتية وهذا الجهاد الأكبر . قلنا : يجب أن نستعين بقوىٰ من الخارج وإلا لن نستطيع أن نفعل شيئاً لوحدنا . واتضح لنا لماذا تتغلب نفس الإنسان على روحه وقلنا : إن القرآن الكريم قد عيّن قُوىٰ لنجدة الإنسان .

أحد هذهِ القوىٰ الصلاة . الآية تقول :

﴿ واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

ولقد تحدثنا بصورة مجملة عن الصلاة والاهتمام بتأدية الواجبات . القوة الثانية التي تنجد الإنسان في هذهِ المعركة الداخلية هي قوة الصبر . الصبر في العبادة والصبر في المعصية ، والصبر في مواجهة المشاكل وقد تحدثنا إجمالاً حول الصبر أيضاً . كما تعرفنا على التوبة من الذنب كأحد القوى وتحدثنا حول ذلك باختصار ومن سورة ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ نتعرف على ثلاث قوى أخرى إذا لم تكن أقوى من القوى الثلاث المذكورة فهي في نفس مستواها من القوة .

يقال عن المسلمين في صدر الإسلام إنهم عندما كانوا يلتقون مع بعضهم البعض ، وبعد السلام وبدل أن يجاملوا بعضهم كانوا يقرأون سورة : ﴿ **والعصر** ﴾ مثلاً وأحد منهم كان يقول :

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ، والعصرِ إنَّ الإنسانَ لفي خسرٍ** ﴾[1] ، والآخر يقول : ﴿ **إلا الذينَ آمنوا وعملُوا الصالحاتِ وتواصوا بالحقِ وتواصوا بالصبرِ** ﴾[2] .

هكذا كان سلوكهم الذي هذبهم ، وهكذا عاشوا في فترة خمسين عاماً تمكنوا خلالها من السيطرة على نصف العالم ، وأحدثوا تغييراً جذرياً في مسيرة تطور البشرية . إذا قمنا جميعاً وبالأخص طلبة العلوم الدينية المحترمين والمعلمين الأعزاء ، عندما نلتقي ببعضنا البعض وبعد السلام بقراءة سورة : ﴿ **ألم نشرح** ﴾ لبعضنا البعض ، سنحظو بجدية نحو الكمال ، مثلاً عندما نلتقي يقول واحد منا بعد التحية : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ، ألمْ نشرحْ لكَ صدركَ ، ووضعنا عنكَ وزركَ ، الذي أنقضَ ظهركَ ، ورفعنا لكَ ذكرك** ﴾[3] ، وآخر يقول : ﴿ **فإنَّ مع العسرِ يسراً ، إنَّ معَ العسرِ يسراً ، فإذا فرغتَ فانصب ، وإلى ربِّكَ فارغبْ** ﴾[4] .

إذا أصبحنا على هذا المنوال سنتجه نحو الكمال ، وبالأخص أن هذهِ

---

(١) و (٢)سورة العصر .

(٣) و (٤) سورة الانشراح .

التلقيقات تصبح ملكة شيئاً فشيئاً ، وهذهِ الملكات تصنع الإنسان، الإنسان الشجاع القوي .

إن الله يمنّ على النبي الأكرم (ص) في سورة : ﴿ **ألم نشرح** ﴾ ويقول : أيها النبي ، ﴿ **ألم نشرح لك صدرك ؟** ﴾ (بمعنى شرحنا لك صدرك) ﴿ **ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك** ﴾ (أي وضعنا عنك) ﴿ **ألم نرفع لك ذكرك** ﴾ (بمعنى رفعناه) . ثم يقول : ﴿ **فإنَّ معَ العسرِ يسراً ، إنَّ مع العسرِ يسراً** ﴾ لا شك إذا استطاع المرء أن يتجاوز المشاكل ، سيكون لديه محصلة جيدة ، وسوف يصل إلى هدفهِ الإنساني ثم يقول : يا أيها النبي ﴿ **فإذا فرغتَ فانصبْ** ﴾ بمعنى إذا أردت الوصول إلى الهدف عليك أن تستقم وأن تستمر في نشاطك ﴿ **وإلى ربكَ فارغبْ** ﴾ يجب أن تبدأ أعمالك باسم الله وأن تواصل عمنك بسم الله وأن تنجزه بسم الله ، بمعنى أن تكون جميع أعمالك ذات صبغة إلٓهية وأن تكون لله ﴿ **صبغةَ اللّهِ ومنْ أحسنُ منَ اللّهِ صبغةً** ﴾ إن سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ تدخل ضمن بحثنا تماماً ويستشفّ منها بعض الأمور . كان بحثنا هو أن هنالك معركة مستمرة بين الروح والجسم ، تسمى الجهاد الأكبر وإذا أردنا السطرة على النفس الأمارة يجب أن نكون أقوياء ، سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ تقول : إذا استطعت أن تستحدث ثمة أشياء في نفسك وأن تطلب من الله ، تستطيع أن تتغلب على عدو الداخل والخارج ، وتستطيع أن تسيطر على قلبك وأفكارك ، وليس تتذكر الله في الصلاة منذ بدايتها حتى نهايتها ، بل ترى نفسك في محضر الله دائماً .

انشراح الصدر أحد هذهِ القوى ، انشراح الصدر ورحابة الصدر ضروريةٌ للجميع بالأخص للمربي وللمعلم .

انشراح الصدر يعني ببساطة أن يكون القلب كالبحر وأن يستطيع الإنسان أن يهضم المشاكل والمتاعب في ذاته ، كالبحر يهضم الماء الآسن ولا يتلوث من امتزاجه ، مع ذلك الماء ، ويقاوم الحيوانات الكاسرة ولا يأخذ من لون ورائحة تلك الحيوانات ، يقف شامخاً أمام الجزر والمد والعواصف ، ولا يبالي شيئاً . إذا أراد الإنسان أن يتغلب على النفس الأمارة وأن يستوعب المشاكل

يجب أن يكون قلبه كالبحر ، ليكون صامداً دوماً في مواجهة المياه الآسنة والصافية ، والحلوة بموقفٍ ثابت ، وأن لا تتجاذبه المسرّات والمتاعب إلى هذهِ الجهة أو تلك . قلنا : إن هذا البحث ضروري جداً لنا نحن الطلبة وأنتم المعلمون الأعزاء ولكن من الواضح أن هذا البحث عام ، والجميع يحتاجون لانشراح الصدر ، إذا كان لدى ربة البيت رحابة الصدر ، وإذا استطاعت أن تستوعب مشاكل إدارة البيت ، وأن تستقم ، هذهِ المرأة ، تستطيع أن تكون ربة البيت المثالية كما تستطيع تربية الأولاد تربية صالحة ، والأهم من كل ذلك أنها تستطيع أن تصون نفسها من أنواع الأمراض الجسمية والروحية المختلفة . ولكن العكس ، إذا لم تتمكن ربّة البيت من استيعاب المشاكل ، وكما يقول القرآن الكريم ليس لديها « شرح الصدر » فالمصيبة الأولى التي تُصيبها هي توتر الأعصاب ، وبالتالي لن تتمكن من القيام بمهامها كزوجة وفي القضايا الزوجية تلجأ إلى الثرثرة والتشنج وهذا السلوك يسبّب الخلافات العائلية . والأعظم من ذلك ، أن الأطفال يصابون بعقدٍ نفسية في بيت كهذا البيت الذي تهزّه الخلافات ، وتكون الأجواء جليدية وغير طبيعية يصبح الأطفال فيه معقّدين ، هؤلاء الأطفال المعقّدون لا يمكنهم أن يُفيدوا مجتمعهم ، فإما ينتهجون الجريمة ويسببون الفضائح أو تموت قلوبهم ، ويصبحون منعزلين . الفتاة الميتة القلب لا يمكنها أن تكون ربة بيت مثالية ، زوجها غير راضٍ عنها وأطفالها يصبحون غير طبيعيين . القرآن يقول : ﴿ **إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً** ﴾[1] إذا لم يواظب الإنسان على سلوكه ، ولا يراعي القضايا الأخلاقية يصبح هلوعاً ، كحصاة صغيرةٍ تتقاذفها ضربات سيقان الأطفال . ولكن إذا واظب الإنسان على سلوكهِ ، يصبح كالجبل لا تؤثر فيه متاعب الأيام كالطود الشامخ .

القرآن الكريم يفسر هلع الإنسان على هذا النحو : ﴿ **إذا مسّهُ الشرُّ جزوعاً وإذا مس الخيرُ منوعاً** ﴾[2] عندما تحدث مشكلة للإنسان الهلوع ، يعلو صراخه . وحينما يصيبه الخير والفرح . يطغى وينسى نفسه . إن سبب عدم استتبابة هوانه لا يملك انشراح الصدر ، ورحابة الصدر ، لأن الذي ليس قلبه

(١) سورة المعارج ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة المعارج ، الآيتان : ٢٠ و ٢١ .

كالبحر يبدو كحوض صغير سرعان ما تموج به الأحداث ، إذا حدثت له مشكلة لا يستطيع أن يصبر ، ولأنه لا يستطيع الاستيعاب يلوث نفسه بأنواع الذنوب كالغيبة والقذف والنميمة والسباب ويفقد سيطرته على لسانه ، وتدريجياً يأخذ كلامه منحىً إلحادياً حيث ينتقد ويؤاخذ الله . من جهة أخرى ، إذا كان للإنسان الهلوع وضع مستتب ، بأن يكون لديه زوجة وأطفال ، وأن يعطيه الله بيتاً مرفهاً ، يقول القرآن الكريم : **﴿ وإذا مسهُ الخيرُ منوعاً ﴾** هذا الشخص بما أنه لا يمتلك القدرة على الاستيعاب ، ينسىٰ نفسه ، بحيث إذا وصل إلى منصب بسيط لن يرد السلام ويشغل منصبه لخدمة أغراضه الشخصية . إنها من مصائب المجتمع أن يصبح لدى الذين لا يمتلكون « رحابة الصدر » منصباً ، في هذهِ الحالة يؤذون الآخرين بأشكال مختلفة .

ولكن إذا كان الإنسان وقوراً وذا مقدرة على الاستيعاب يتقبل كافة المشاكل برزانة ، ويقوم بإيجاد الحلول المناسبة لها ، بحيث يصل إلى مرحلة يعتبر فيها كل خيراً أو شراً يصيبه من جانب الله ، ولا يرى آنذاك سوى الله ، إذا كان ذا علم ومنصب يعتبره من جانب الله ، ويعتبر نفسه غير ذي تأثير . رواية جيدة جداً ، وبالأخص لنا نحن الطلبة وأنتم المعلمون الأعزاء تقول : « **العلمُ ثلاثةُ أشبارٍ منْ دخلَ في الشبر الأول تكَبّر ، ومن دَخَلَ في الشبر الثاني تَواضَع ، ومن دخل في الشبر الثالث ، يعلم أنه لا يعلم شيئاً** » .

تقول : للعلم ثلاثة محطات ، الإنسان الهلوع يصبح متكبراً في المحطة الأولى بحيث أنه عندما يتعلم أربعة مصطلحات ، وبعد أن يحصل على شهادة دراسية يقف أمام والديه ، ويصفهم بالأمية ويعتبر نفسه عالماً ومثقفاً . « **ومن دخل في الشبر الثاني تواضع** » ولكنه عندما يصل إلى المحطة الثانية فإن العلم يمنحه القدرة على الاستيعاب ، وحينها يفهم أنه إذا جمع كل علوم الدنيا وأصبح أنشتاين العصر ، فإن علمهُ أمام جهله لا يزال كقطرة أمام البحر . يقول نيوتن : من وراء عدسة الكاميرا أرى عوالم يصبح العلم أمامها كقطرة أمام البحرْ .

القرآن الكريم يعتبر كافة النجوم والكواكب والمنظومة الشمسية السماء الأولى ، الكواكب التي يستغرق وصول نورها إلينا ميلوني سنة ضوئية لا يمكن

تسخيرها عبر السماء الأولى . فيخبرنا عن السماء السابعة ، ولكن يا ترى أين تقع السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، لا نعلم ونأمل أن الذي لديه « **علم ما كان وما يكون وما هو كائن** » يأتي ليزيح الستار عن المجهولات . لدينا رواية تقول عندما يأتي بَقيَّةُ الله ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ .

« **يركب ويرقى الأسباب ، أسباب السماوات السبع والأرضين السبع** » .

الأرضين السبع لا تزال مجهولة من الناحية العلمية ، والقرآن والروايات لم تدالِ بإيضاحات حولها . لذلك ماذا تعني الأرض الثانية أساساً ، لا نعلم ، إذن عندما يصبح الإنسان عالماً يقف على وجود المجهولات ، وهنا يصبح متواضعاً إلى مدى يقول فيه : سبعون عاماً كابدت فيها وتعلمت ، والآن أصبح لدي واضحاً أني لا أعلم شيئاً . يقولون : إن أحد العلماء في آخر لحظات حياتهِ قال : « لقد علمت بالقدر الذي لا أعلم فيهِ أي شيء » .

أحد العلماء الكبار يقول : « أن يعلم الإنسان أنه لا يعلم شيئاً زعمٌ كبير » ، باختصار ، عندما يصل الإنسان إلى درجة أن يفهم أنه لا شيء إزاء تنظيم الخلقة ، عندها يصل إلى المحطة الثانية للعلم ، ويشعر برحابة الصدر . القرآن الكريم يقول حول النبي موسى (ع) : ﴿ **إذهبْ إلى فرعونَ إنهُ طغى** ﴾[1] . إن الله يأمر موسى الراعي الذي لا يملك سوى عصىً أن اذهب إلى فرعون مصر ، فرعون الذي وصل به الأمر أن يدعي الألوهية .

موسى ، في هذهِ المهمة لا يطلب من الله جيشاً وقدرةً بل يقول : ﴿ **قال ربِّ اشرحْ لي صدري** ﴾ . يتّضح لنا أن رحابة الصدر أهم من أي جيش مدجج بالِسلاح ، حقاً إنها أهم .

ثم يقول : ﴿ **ويسِّرْ لي أمري** ﴾[3] بمعنى إلّهي ، إذا كانت لدي رحابة الصدر ، ستتيسر لي كافة الأمور . حقاً إذا استطاع الإنسان أن يستوعب المشاكل ، وكما يقول القرآن ستتيسر له كافة الأمور .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٢٤

(٢) سورة طه ، الآية : ٢٥

(٣) سورة طه ، الآية : ٢٦

ثم يطلب موسى من الله : ﴿ واحللْ عقدةً منْ لساني يفقهوا قولي ﴾[1] أي : يا إلٓهي ، امنحني رحابة الصدر لأنه إذا كانت لدي رحابة الصدر ، فلن أخشى العدو ويمكنني أن أبلُغ رسالتك إلى العالمين . إلٓهي ، إذا كانت لدي رحابة الصدر ، فلن أعاني من القلق وتوتر الأعصاب وعدم القدرةِ على مواجهة بقايا الجاهلية . علماء النفس يقولون : إن الذي لديه رحابة الصدر ، يمتلك إرادةً قويةً ويستطيع أن يُدلي بأقوالِهِ أمام الجميع وكلمتهُ تكون مسموعة . إن رعاية هذهِ النقاط مفيد جداً لنا نحن الطلبة لكم وأنتم المعلمون الأعزاء . لأن أداة عملنا هي أن نتكلم جيداً وأن لا نجعل . عندما يكون الإنسان ضعيفاً وينتابه الغضب ، لا يستطيع أن يتكلم ، هذا التوتر العصبي الذي نعاني منه جميعنا ناجم عن عدم استيعابنا للمشاكل . « المُعلَم » إذا كانت لديه رحابةُ الصدر ، لا يغضب في الصف وعندما لا يغضب ، لا يَمرضُ ، من أهم النتائج التي يحصلُ عليها من رحابة الصدر هو أن يَرُدَّ الأمانات التي ائتمن عليها ، والموضوع الذي لا يعلم عنه شيئاً ، يقول لا أعلم . أستاذنا الجليل حضرة آية الله العظمى البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ ينقل عن أستاذه المرحوم محمد باقر درجة أي الذي كان من المراجع الكبار في أصفهان ، ويقول : عندما كان يسأل عن مسألةٍ ما ، إذا كان يعلم كان يجيب بهدوء ، وإذا لم يكن يعلم ، كان يقول بكل صراحة : لا أعلم ، وهذهِ من علامات انشراح الصدر .

نحن الطلبة إذا لم يكن لدينا رحابة الصدر ، عندما نُسأل عن مسألةٍ ما لا نعرفها ، لسنا مستعدين أن نقول لا أعرف ، نقول المسألة غير متفق عليها ، وإن وجهات نظر الفقهاء تختلف . المعلم إذا لم تكن لديه رحابة صدر يصاب بضعف الأعصاب ، ولا يستطيع أن يصون الأمانة بجدارة ، كلما سئل عن موضوع في الصف ، وهو لا يعلم ، يظن أنه إذا قال لا أعلم ، سَتقِلّ مكانته ، لذلك يقوم بتلفيق الجواب ، ويطرحهُ أمام الطالب . وامصيبتاه ! وامصيبتاه إذا كان هذا الجواب الملفق حول الدين وأن يحدث انحراف فكري . عند الطالب ، إن الذنب يقع على عاتق المعلم .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٢٧

إذا كان لدى الإنسان رحابة صدر لا يضعف أمام المشاكل ، ولا يضيّع نفسه في الخيرات والمسرات ، وتتيسر كافة أعماله وتقوى إرادته لا يصاب بلكنة ويتفوه بالكلام بصورةٍ جيدة ، والأعظم من ذلك أن كلمته تكون مسموعة ويحكم على القلوب .

ادرسوا تاريخ النبي الأكرم (ص) ، عندما بُعث ليدعو الناس إلى دين الحق صلى ومعهُ علي (ع) وخديجة الكبرى ـ عليها السّلام ـ صلّىٰ الثلاثة في بيت الكعبة ، كان بيت الكعبة مزدحماً بالناس ، البعض جالسون والبعض يطوفون ، أحدهم يرقص والآخر يلعب ، والنبي (ص) كان يصلي باتزان تام ، اجتمع العرب حولهم ، وكانوا ينظرون إليهم ويقولون : ماذا يصنع هؤلاء ؟ طبعاً هؤلاء الثلاثة لم يكونوا أناساً عاديين حول علي (ع) يقول أهل الفكر : إن إحدى صفاته كانت أنه لم يكن يخشىٰ في الله لومة لائم .

لَقد صَلُّوا فترةً ، وفجأةً شاهد المشركون أن موجاً سرىٰ بين الناس ، وازداد عدد المسلمين . ومن أجل منع المسلمين من التقدم لجأوا إلى التخويف وضربوا المسلمين وأهانوهم .

حول أم عمار ، زوجة ياسر يقولون : إنها كانت قد أسلمت تواً وهي أول شهيدةٍ في الإسلام ، أمسك بها الكفار وضربوها بالسياط ، وجمعوا الناس ، وقاموا بالتشهير بها لكي تعود عن الإسلام ، وقد تمادوا في تعذيبها ، ولكنهم أخفقوا في فك عضدها إلى أن قرروا أن يأتوا بجملين وربطوا ساقي أم عمار بالجملين وساروا بالجملين في جهتين مخالفتين وشطروا تلك السيدة إلى نصفين . كانوا يظنون أنهم يستطيعون بواسطة هذهِ الأساليب الحؤول دون اتساع رقعة الإسلام .

جمعوا الأراذل والأوباش وأمروهم برمي الحجارة على النبي (ص) عند خروجهِ من البيت صباحاً ، كانت لديهم أوامر برمي الحجارة على ساق الرسول (ص) حيث ، تبعث على الألم أكثر وتؤدي إلى الموت أيضاً .

أحياناً عندما كان النبي (ص) يعود إلى البيت كانت خديجة تقيه الحجارة ببدنها ، وكانت الحجارة تنهمر كالمطر على كتفها وبدنها ، وفي صباح اليوم

التالي كان النبي (ص) يستعد للدعوة وخديجة تستعد لقبول الحجارة . كانوا يظنون أنهمْ يستطيعون بواسطة هذهِ الأساليب الحؤول دون اتساع رقعة الإسلام . جمعوا الأراذل والأوباش وأمروهم برمي الحجارة على النبي (ص) عند خروجهِ من البيت صباحاً ، كانت لديهم أوامر برمي الحجارة على ساق الرسول (ص) حيث ، تبعث على الألم أكثر وتؤدي إلى الموت أيضاً .

أحياناً كانت الأخبار تصل إلى خديجة بأن النبي (ص) أصيب من جراء رميه بالحجارة ، وذهب بجسمهِ المدمىٰ إلى جبل حراء . خديجة ، هذهِ الزوجة الوفية ، كانت تنهض وتحمل قدراً من الماء والغذاء ، وتأتي مع أمير المؤمنين (ع) إلى الجبل ، وبعد أن يبحثا عن النبي (ص) بين الصخور ، كانا يجدان النبي (ص) عند صخرةٍ كبيرة يناجي ربّه ، كانا يشاهدان النبي (ص) يقول : « **اللهم إهدِ قومي فإنهم لا يعلمون** » يعني يا إلّهي ، إذا هم ضربوني ، فإنهم لا يعلمون ، اللهم اهدِ قومي ، وإذا كنت تريد أن تمنّ عليَّ وأن تفرّح قلبي ، اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون . هذا معنى رحابة الصدر . نحن كلنا بالأخص الطلبة والمعلمون والمربون يجب أن نتعلم من النبي الأكرم (ص) يقول الراوي : شاهدت النبي الأكرم (ص) عندما كان يُرمىٰ بالحجارة وشاهدتهُ أيضاً عندما جاء إلى مكة مع اثني عشر ألف مقاتل ، فلم أجد أدنى اختلاف في الموقفين ، هذا هو معنى « رحابة الصدر » في بداية البعثة النبوية ، واجه كل تلك المشاكل التي تقول عنها الآية الكريمة :

﴿ **ووضعنا عنكَ وزركَ الذي أنقض ظهرك** ﴾[1] في المدينة شارك النبي الأكرم (ص) في أربعة وسبعين معركة ، وكل معركة كانت ذات مشاكل كثيرة . أما من ناحية سورة : ﴿ **ألم نشرح** ﴾ فإن المشاكل التي واجهها النبي قبل الهجرة كانت أكثر بكثير ، وتصف هذهِ السورة أيام ما بعد الهجرة بأنها أيام راحة للنبي (ص) . يقول الراوي : عندما جاء النبي الأكرم (ص) مع إثني عشر ألف مقاتل إلى مكة كان في وضع خاص فعندما كان يتوضأ كان المسلمون يتزاحمون

---

(١) سورة الانشراح ، الآية : ٣

للتبرك بالماء المتساقط من وضوء النبي الأكرم (ص) وكان أبو سفيان يقف فاغر الفم من مشاهدة هذا الوضع .

هذهِ المكانة الاجتماعية للنبي (ص) في فتح مكة ، وتلك المعاناة في بداية البعثة لم تؤثرا في النبي (ص) إطلاقاً . هذا هو معنى رحابة الصدر ، وهذا هو مفهوم أن يكون قلب الإنسان كالبحر لا يهلع أمام « الشر » ولا يتمرد أمام « الخير » بل يقف في مواجهة المشاكل ، ويستوعبها كالبحر ، وهو مشكور أمام « الخيرات » الإنسان « الهلوع » هو الذي ﴿ إذا مسَّهُ الشرُّ جزوعاً وإذا مسَّهُ الخيرُ منوعاً ﴾[1] الإنسان « الهلوع » يفزع ويصرخ لدى مواجهته المشاكل ويتحدث بلغة نابية ويثير المتاعب مع زوجته ، وإذا وجد نفسه في بحبوحة ، ينسى نفسه . كل هذهِ الأمور تنجم عند فقدان الشخص لرحابة الصدر .

يقول الراوي : كانت إحدى زوجات النبي (ص) قد طبخت أكلةً وكان بودها أن يأكل النبي (ص) منها ، لأن النبي (ص) كان في بيت عائشة ، فحملت صحناً من تلك الأكلة وجاءت به إلى بيت عائشة . كان الصحن أمام النبي (ص) ، وكان النبي (ص) يرغب في تناول هذهِ الأكلة ، وفجأةً غضبت عائشة ، وقالت : لماذا أتت « ضرّتي » بهذهِ الأكلة . ووجهت ضربة بساقها للصحن فوقع الصحن خارج الغرفة وانسكب الغذاء على الأرض وكُسِرَ الصحن أيضاً ، نرى رحابة الصدر عند النبي (ص) ، نظر النبي (ص) إلى عائشة وقال : « يا عائشة ، لماذا فعلتِ ذلك ؟ كان صحناً من الشوربا نأكله سويةً ، والآن وقد كسرت صحن الناس ، لقد اقترفت حراماً ، وأنتِ ضامنة بأن تعيدي الصحن إلى صاحبه ، لقد أسرفتِ واقترفت حراماً ، ورفضتِ هدية الناس وهذا ما لا يليق بالإنسان ، والآن أرجو أن لا تفعلي ذلك مرةً أخرى » . هذا يسمونه رحابة الصدر ، على الزوج والزوجة أن يكونا هكذا يجب على المعلم أن يكون هكذا ، وكل شخص عليه أن يتعامل هكذا مع الناس . إذا لم نكن هكذا ، فنحن « هلوعين » من وجهة نظر القرآن . وبعبارةٍ أخرى ليس لدينا رحابة الصدر . تعالوا لإيجاد هذهِ النعمة الكبيرة في أنفسنا . طبعاً إيجادها أمر صعب

---

(١) سورة المعارج ، الآية : ٢٠ .

لأنه لا توجد نعمة تفوق هذهِ النعمة ، ولكن بالترويض نستطيع إيجادها . في سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ ، الله لا يقول أيها النبي إنا أعطيناك علم ﴿ **وما كان وما يكون وما هو كائن** ﴾ ولكن يقول : لقد أعطيناك « رحابة الصدر » ﴿ **ألم نشرحْ لكَ صدركَ** ﴾ وكأن أكبر نعمة للنبي كانت رحابة الصدر .

ثم يقول : يا أيها النبي ، لقد رفعنا عنك وزرك في مكة ﴿ **ورفعنا لكَ ذكركَ** ﴾ ووصلت إلى ما كنت تصبو إليه ، كل هذهِ كانت لأنك كنت تملك رحابة الصدر . ﴿ **فإنَّ معَ العسرِ يسراً ، إنَّ معَ العسرِ يسراً** ﴾ .

وبما أنك تخطّيت مشاكل مكة ، إعلم أنك سترتاح في المدينة ، وسوف تسيطر على الحجاز كله . لقد جربت رحابة الصدر لدىٰ أستاذي الجليل قائد الثورة العظيم مراراً ، وإذا لم تكن رحابة صدره ، لم تكن هنالك ثورة .

لن أنسىٰ ، في قضية المدرسة الفيضية ، ساد (قم) رعبٌ عجيب لعل الكثيرين يتذكرون أنه من أجل تخويف طلبة العلوم الدينية ولكي يتراجعوا عن مواقفهم ومن أجل توجيه ضربة قاضية لقائد الثورة العظيم صدرت الأوامر بضرب (قم) لذلك قاموا بارتكاب أعمال القمع في المدرسة الفيضية ، وقذفوا بالطلبة من الطابق الثاني للبناية إلى بهو المدرسة والنهر المجاور .

في اليوم التالي ، تجوّل رجال السافاك في الشوارع ، وقاموا بتشكيل تجمعات باسم الناس وسبّوا الروحانيين (رجال الدين) . مع هذا الرعب العجيب ، ذهبت إلى قائد الثورة العظيم ، كان الوضع عادياً والابتسامة لا تفارق محياه كأن شيئاً لم يحدث . عندما كنا نهمّ بالخروج من المنزل مع أحد علماء أصفهان ، قال ذلك العالم : كأن الإمام لا يدري ماذا يجري خارج البيت . في حين أن قائد الثورة العظيم كان قد اتخذ قراره ، قال قبل هذهِ الحادثة : يجب أن يذهب الشاه . غداً وبعد غد أيضاً ، كان يقول : يجب أن يذهب الشاه . في المنفىٰ وبعد المنفىٰ أيضاً ، كان يقول : يجب أن يذهب الشاه إلى أن ذهب الشاه . بعد انتصار الثورة جاء الصحفي المصري هيكل وعند الإمام أجرى مقابلة صحفية .

أحد الأسئلة كان يتعلق بعبارات التجاوز التي تفوّه بها أنور السادات ضد الإمام ، أما الإمام وكأنه لم يسمع ذلك السؤال أخذ الحديث إلى مكان آخر ، وقال : إن الإسلام الذي يريد أن يطبقه أنور السادات ، هو الإسلام الأمريكي ، وإن مصر إذا كانت تريد السعادة يجب أن يطبق فيها الإسلام الحقيقي . أنا في تلك اللحظة تذكرت حديث الإمام علي (ع) حين قال : « **أمر على اللئيم يسبني** » يا سيدة ، لماذا تغضبين في المنزل وتسبين طفلك ؟ هل أنتِ هلوعة ؟ ويا أيها المعلم ، لماذا تنتابك العصبية في الصف وتتفوه بكلمات نابية ؟ الإنسان الهلوع يتفوه بكلماتٍ نابية . النبي (ص) قال : « يا عائشة لماذا تسبّين ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيتهم يستهزؤن بك ، قال : لقد أجبتهم ، إذا قالوا خيراً قلت : عليكم ، وإن قالوا شراً ، قلت : عليكم .

ثم قال : يا عائشة ، ألا تعلمين أن السباب يتجسّم ؟ إن السباب يتجسّم بصورة قبيحة ، وهو جليسك في القبر والبرزخ والقيامة ويجلب لك الفضيحة في القيامة ، السباب بأي شكلٍ كان ولأياً كان ، يتجسّم بصورةِ كلب بل أقطعَ من الكلب ويُحشَرُ مع السَابّ .

المرحوم ملا صدر ـ رحمة الله عليه ـ يقول في الأسفار : السباب يتحول إلى شكل يكون القرد في مقابله جميلاً جداً، القرآن الكريم يقول :

﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً ، وما عملتْ منْ سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينها وبينهُ أمداً بعيداً ﴾[1] ، يقول : يا إنسان ، إني أتوعدك ، أن تخاف لأنَّ أي عمل خير تقوم به في هذهِ الدنيا سيحشر معك في القيامة على شكل رفيق في القبر والبرزخ والقيامة . كما أن كل عمل سيء اقترفته سيتحول إلى قرد ونمر وأفعى وعقرب ويحشر معك في القبر والبرزخ والقيامة .

في القيامة عندما يتحول السباب إلى كلاب تحيط بالذي تفوه بالسباب ، والأسوء من ذلك أن يتحول هو أيضاً إلى كلب ، الآية تقول : ماذا تفعل إزاء الفضيحة حينذاك ؟ ولذلك تقول : يا إلَهي ، يا ليتني بعيداً عن هذهِ الكلاب ورفاقِ السوء ، وهذهِ الأعمال القبيحة ، إلَهي بعزتك وجلالك نقسم عليك أن

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠

تمنّ علينا بالوعي وحسن الصفات أي « رحابة الصدر » والتوفيق لعبادتك وعبوديتك . وترك معصيتك واعطنا الصفات الإنسانية وصلِّ الله على محمد وآلِ محمد .

البحث الثالث عشر

« رحابة الصدر (٢) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول جهاد النفس الأمارة ، وكما بيّنا سابقاً فإن الانتصار في هذهِ المعركة يستلزم قوى منٍ الخارج وقد تحدثنا مستفيدين من القرآن الكريم عن بعض هذهِ القوىٰ وبيّنا كُلّاً منها بإسهاب .

كانت القوة الرابعة هي رحابة الصدر ، بمعنى من أجل أن يتغلب الإنسان على المشاكل يجب أن يكون قلبه رحباً كالبحر ، وأن يستوعب المشاكل من أجل حلها . وقد اهتم القرآن الكريم بالغ الاهتمام برحابة الصدر ، حتى اعتبر قبول الإسلام مرتهناً برحابة الصدر حيث يقول : **﴿ أفمنْ شرحَ اللّهُ صدرهُ للإسلامِ فهو على نورٍ منْ ربهِ فويلٌ للقاسيةِ قلوبهم من ذكرِ اللّهِ ﴾**(١) .

إن هذهِ الآية تدل بوضوح على أن الذي يمتلك رحابة الصدر يضفي الله على قلبه نوراً وتصبح يد العناية الإلّهية على رأسه ليتمكن من الفوز في هذهِ المعركة الداخلية ، ولكن إذا لم يتمكن من استيعاب المشاكل وأن يفقد توازنه أمام إحدى الرغبات . القرآن يقول : ويلٌ له ، ويلٌ للذي ليس قلبه كالبحر ، ويلٌ لمن ليس لديه رحابة صدر ، لأن الذنوب المتكدسة أخذت منه رحابة

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

الصدر . وفي آيةٍ أخرى يقول :

﴿ فمنْ يرِدْ اللّهُ أنْ يهديهِ يشرحْ صدرهُ للإسلامِ ، ومنْ يردِ اللّهُ أنْ يضلَّهُ يجعلْ صدرهُ ضيقاً حرجاً كأنما يصعّدُ في السماءِ كذلكَ يجعلُ اللّهُ الرجسَ على الذينَ لا يؤمنون ﴾[1] .

يقول : إن يد العناية الإلَهية على من لديه رحابة الصدر ، ولكن إذا لم تكن يد العناية الإلَهية أي رحابة الصدر ، فهو إنسان ضيق النظر لا يستطيع أن يواجه المشاكل ، وفي هذهِ الحالة يكون موقفه كمن يريد أن يصعد في السماء يصبح صدره ضيقاً **﴿ حتى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بما رحبتْ ﴾**[2] فإن الدنيا مع رحابتها تضيق عليه ، أحياناً تصيب الإنسان مصيبة يشعر فيها المرء أن أنفاسه تتقطع ، مثلاً إذا أردتم صعود الجبل ، ولم تكونوا مدربين ، عندما تصعدون إلى قمة الجبل تشعرون بضيق النفس ، القرآن الكريم يضرب مثلاً لرحابةِ الصدر ، ويشبهها بهذا الأمر المحسوس ويقول : من لا يمتلك رحابة الصدر عليه اللعنة . اللعنة على من ليس لديه رحابة الصدر .

هنالك سؤال يطرح نفسه : ماذا نفعل لكي تكون الدنيا رحابة صدر ؟ يجب أن نقول : إن بحث تهذيب النفس ، يشبه شحن بطارية السيارة لأن الأعمال الحسنة تنبع من الإيمان ، والقلب الطاهر والصفات الرذيلة تؤدي إلى أعمال رذيلة ، الشخص البخيل ، حسود ومحب للجاه ومتكبر ، هذهِ الأعمال الرذيلة تصبح مصدراً للأعمال الرذيلة ، وكما يقول القرآن الكريم : **﴿ قلْ كلّ يعملْ على شاكلته ﴾**[3] والإناء ينضح بما فيه . المرأة الحسود تنبع تصرفاتها وأعمالها من الحسد عادةً ، ونفس أعمالها القبيحة تقوي جسدها وترويه ، وإذا لم تتلافَ ذلك ، ستتجذّر هذهِ الصفة إلى مرحلة يصعب فيها اجتثاث جذورها .

الإنسان المحب للجاه أيضاً هكذا ، كلامه ، تصرفاته ، وحتى نياته تنبع من حب الجاه ، وهذا الكلام ، وهذهِ التصرفات ، والنيات ـ أيضاً ـ لها تأثير

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٨ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٨٤ .

على حب الجاه ، ويقوّي هذهِ الاتجاه . إن كلامنا وتصرفاتنا تنبع من الإيمان ، كل من كان إيمانه قوياً ، يكون كلامه أفضل وتصرفاته أحسن ونياته أطيب ولكن نفس كلامنا وتصرفاتنا تؤثر على إيماننا ، لذلك فإن الإيمان يصنع العمل ، والعمل أيضاً يصنع الإيمان .

جميع الصفات الرذيلة ، وكل الصفات الحسنة ، ومن بينها الإيمان تشبه بطارية السيارة ، مثلما تعطي الكهرباء تأخذه أيضاً ، الإيمان أيضاً في الوقت يمنح العمل ، نفس العمل أيضاً يؤثر على الإيمان ، وهذهِ قاعدة عامة .

رحابة الصدر أيضاً هكذا ، فالذي يكافح المشاكل ، ويقاوم الذنوب ، عندما تحدث لديه رغبة جنسية يضربها عرض الحائط ، ويتجاوز صفة الأنانية ، كل هذهِ الأمور تنبع من رحابة الصدر ، وهذهِ الأعمال التي يقوم بها تجلب له رحابة الصدر أيضاً ، في الوقت الذي تنبع فيه الأعمال من رحابة الصدر ، نفس العمل يضاعف من رحابة الصدر ويُرسّخها ويَجعلُها ملكةً في الذات الإنسانية .

وعلى العكس ، فعندما يواجه ذنباً يفقد توازنه ، يُرتكب الذنب ، وعندما تحدث مشكلة ينتابه الغضب ، ويمنعه من القيام بالعمل الأهم ، عندما يسمع في الصف كلاماً نابياً لا يتمكن من استيعابه يفقد ما كان لديه من رحابة . مختصرة ويصبح إنساناً ضيق الصدر لا يستطيع أن يواجه طفلاً صغيراً ، بمعنى أنَّ ضيق نظره ، أثّر على عمله ، وعمله أثر على ضيق صدره . لذلك تقول الآية الكريمة : ﴿ **أفمنْ شرحَ اللّهُ صدرهُ للإسلامِ فهوَ على نورٍ منْ ربِّهِ** ﴾[1] إذا كنت تريد رحابة الصدر ، إذا أردت أن يسطع نور الله على قلبك ، إذا أردت أن تصبح رحابة صدرك ملكة ، لكي يكون قلبك كالبحر وتستطيع مجابهة كافة المشاكل بواسطة نور الله ، عليك أن تلجأ إلى رحابة الصدر : ﴿ **فويلٌ للقاسيةِ قلوبهم منْ ذكرِ اللّهِ** ﴾[2] إذا لم يكن لديك رحابة صدر فويلٌ لك ، لأن عدم امتلاك رحابة الصدر تجلب لك الذنوب تلو الذنوب ، وحين تأتي الذنوب يسودّ

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٢٢

القلب ويفقد انشراحه ، فويلٌ لهذا القلب . الآية الثانية تتحدث عن ذلك أيضاً .

إذن ، إذا أردتم إيجاد صفات جيدة في أنفسكم ينبغي أن تعملوا حسب الصفات الجيدة الحميدة في الوقت الذي تستنهض صفاتكم الجيدة الأعمال الجيدة ، الأعمال الصالحة أيضاً تُوجِد الصفات الحسنة ، وعلى العكس إذا أردتم تفادي الصفات الرذيلة ، اقطعوا الفروع والأوراق ولا تقوموا بأعمال سيئة ، فإذا كانت لديكم أعمال سيئة ، وأقوال نابية فجأة تصلون إلى مرحلة ترتكبون فيها الذنوب بصورة لا إرادية وأحياناً تعتبرون أنفسكم أناساً طيبين وتتقبلون الذنوب ، كأن يقوم الشخص بارتكاب الذنب ثم يقول : قمت بعمل صالح ، لقد أحسنتُ عملاً بارتكابي ذلك الذنب . إن سورة : ﴿ **ألم نشرح** ﴾ بنّاءةٌ لنا جميعاً بالأخص للمربي والمعلم . هذهِ السورة تتحدث أولاً عن رحابة الصدر ، وتقول : ينبغي أن يكون المربي رحب الصدر ، كل الناس ينبغي أن يكونوا منشرحي الصدر ، ولكن الشرط الرئيسي لعمل المربي والمعلم هو رحابة الصدر ، يقول : ﴿ **فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً** ﴾ .

وأن يعلم إذا كانت لديه رحابة صدر تتيسر كافة المشاكل ، ويؤكد القرآن على ذلك ثم يقول : ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ الصفة الثانية التي يجب أن يمتلكها كل مربي الاستمرار والاستقامة في العمل .

إن الاستماع إلى بحث تهذيب النفس ، قد يكون سهلاً ولكن التطبيق صعب للغاية . وتنقسم العلوم إلى عدة أقسام ، بعض العلوم تعلمها صعب ، ولكن تطبيقها ليس صعب جداً ، إذا كان المرء فيلسوفاً فإن جلب البرهان أمرٌ سهل بالنسبة له أو حل مسألةٍ ما وتطبيقها أمرٌ هين لمعلم الرياضيات ، ولكن بعض العلوم كعلم الأخلاق ، وتهذيب النفس فالحديث عنها ليس صعباً كالرياضيات والفلسفة ، بل إنها فطرية من وجهة نظر القرآن الكريم : ﴿ **ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها** ﴾[1] لأنَّ قسماً بالإنسان ونفسهُ

(١) سورة الشمس ، الآيتان : ٧ و ٨ .

الملكوتية ، وبعده الإنساني قسماً بهذا البعد يدرك الصفات السيئة والجيدة بالفطرة .

جميعنا نحن الجالسون هنا نعلَمُ أن التكبر عملٌ سيء ، وإذا فكرنا بعض الشيء نستطيع أن ندرك سلبياتهِ ، وأن نتحدث للآخرين عنها ، لذلك فإن الحوار والبحث عن تهذيب النفس ليس عملاً شاقاً ، العمل الشاق هو التنفيذ ، إذا استطاع الإنسان المتكبر والأناني أن يقتلع جذور التكبر والأنانية من نفسه فلا يدرك ذلك إلا بالمشقة ، لذلك يذكر أستاذنا الجليل قائد الثورة العظيم ـ رحمة الله عليه ـ عن أستاذهِ المرحوم الحاج الشيخ الحائري ـ عليه الرحمة ـ مؤسس الحوزة العلمية في قم أن المشهور بين الناس « ما أسهل أن يصبح الإنسان طالب علمٍ » ، ولكن أن يصبح إنساناً أمر صعب الإمام كان يقول كلا هذا خطأ ، بل يجب القول : « ما أصعب أن يصبح الإنسان طالب علمٍ وأن يصبح المرء إنساناً أمرٌ محال والحق أنه هكذا ، إذا أراد المرء أن يبعد صفة رذيلة ينبغي أن يكابد لسنين طويلة وأن يستقيم لسنين عديدة ، ليتمكن من اجتثاث جذور الصفة الرذيلة ويستبدلها بصفة حسنة . فالالتزام بهذهِ الأمور صعب ، وعلى هذا الأساس يكرر القرآن ، فلماذا يكرر القرآن إلى هذا الحد ؟ إن الكثير من آيات القرآن مكررة وقد اختلفت وجهات نظر المفسرين حول هذه الظاهرة ، وكيفية تفسيرها . العلامة الطباطبائي ـ رحمة الله عليه ـ في الميزان ، وفخر الرازي في تفسيره ، والمرحوم الطبرسي في مجمع البيان (هذا التفسير فخر الشيعة وهو تفسير رائع) والمرحوم فيض ـ عليه الرحمة ـ في الصافي والآخرون تحدثوا حول هذهِ الظاهرة وحديثهم مقبول جداً ، ولكن حول هذا الموضوع هنالك جملة لقائد الثورة العظيم ـ أدام الله ظله ـ أروع وأجمل من باقي الأقوال ، حيث يقول : إن التكرار في القرآن له تأثيرٌ بدليل أن تهذيب النفس يحتاج إلى التكرار والقرآن كتاب تهذيب النفس ، فإذا قال القرآن مرةً : ﴿ **إنَّ الذينَ يحبّونَ أنْ تشيعَ الفاحشةُ في الذينَ آمنوا لهمْ عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة** ﴾[1] بمعنى أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، ولو أنهم لن يرتكبوا

(١) سورة النور ، الآية : ١٩ .

ذلك ، ولكن مجرد أنهم يحبون أن يدنسوا شخصية أحدٍ ما ، أولئك الذين يستغيبون الآخرين ، أولئك الذين يريدون أن يكون الطرب والموسيقى والغناء في الإذاعة والتلفزيون ، لهم عذابان : عذابٌ في الدنيا وآخر في الآخرة ، إذا كانت الآية قد بيّنت هذا الأمر مرةً واحدة ، لما كان ذا تأثير ، إن ذلك سيكون ذا تأثير عندما يتكرر بيان المفهوم في أماكن أخرى . وهذا الأمر يشبه التلقين . من الطبيعي أن التلقين مؤثر جداً . إذا أمسك المرء بسبحةٍ ويقول كل صباح : « أنا مسلم ، أنا مسلم » ، فإن لذلك تأثيراً كبيراً . تسبيح الزهراء ـ سلام الله عليها ما جدواه ؟ (٣٤) مرة الله أكبر ، (٣٣) مرة الحمد لله ، (٣٣) مرة سبحان الله . إن الإمام الصادق (ع) يقول تسبيح جدتي أفضل من ألف ركعة صلاة لماذا يقولون لنا عليكم بالذكر ، وقولوا دائماً : « **لا إله إلا الله** » قولوا : يا الله ، لماذا يقولون توسلوا بالدعاء ، إذا يئستم من الدعاء فإن هذا اليأس في مستوى الكفر ، إن عليك أن تدعو ربك سواءً استجاب لك أم لا يَستَجِب لماذا ؟ السبب هو ما قاله قائد الثورة العظيم حيث كان يقول لماذا تتكرر آية : ﴿ **فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبانِ** ﴾ في سورة الرحمٰن ؟ لماذا يتكرر قول : ﴿ **إنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٍ** ﴾ في أكثر من عشرين مكاناً ، كلُّها لأن بَحث تهذيب النفس يحتاج إلى التكرار والتلقين ، في بحث تهذيب النفس نحتاج إلى التكرار تلو التكرار ، والاستماع تلو الاستماع إلى أن نصل إلى ما نبتغيه ، إذا لم يكن هنالك استمرار واستقامة لن نصل إلى ما نبتغي ، لذلك يقول علماء النفس : إن النفس الأمارة التي تمثلُ البعد البهيمي هي ، كالفيل والانسان الذي يمتطي الفيل يجب أن يضرب على قفاه ، وإذا غفل لحظة عن ضربه ، فإنه سيؤدي بحياته ، كما يؤدي بحياة صاحبه .

نقرأ في التاريخ حول معركة أُحد أنّ النصر في البداية كان من نصيب المسلمين ، ولكن المسلمين هزموا في نهاية الأمر وتكبدوا خسائر فادحة ، حيث قتل سبعون من المسلمين في المعارك التالية . يقولون : كان النبي (ص) جالساً عند منحدر الجبل ، وكان الصحابة جالسين حوله . فسألوه : يا رسول الله ، لماذا انتصرنا في البداية وهزمنا فيما بعد ؟ قال : لأنكم نسيتم الله لحظة واحدة . إذا نسي المرء ربه لحظة واحدة ينسى صراعه مع نفسه ، وينجرف نحو

الهاوية . قد تضع غلة حبه في فمها ، ثم تصعد إلى الأعلى ، وقد تصعد بالحبة إلى الأعلى خلال فترة تستمر من الصباح حتى المساء ، ولكن لحظة واحدة من الإهمال تعود بها إلى مكانها الأول وتسقط .

إننا بحاجة للاستقامة في كافة الأمور ، هذهِ الآية التي تقول : ﴿ **فإذا فرغتَ فانصبْ** ﴾ يعني : فإذا فرغتَ فاتعب نفسك في الله تبارك وتعالى . إذا استطعت أن تنتصر ذات يوم في هذهِ المعركة لا تظن أن النصر حليفك دائماً ، استمر وانتبه إنك في الجبهة دائماً ، وما دام الإنسان في هذهِ الدنيا لا يمكنه الخروج من الجبهة .

النفس تنين متى تموت إنها ذَبكت من الشيخوخة

إذا أصبح شاباً ، تحيى فيه الكثير من الصفات الرذيلة ، ويصبح شيخاً ولا تزول عنه باقي صفاته الرذيلة ، إلى أن يصل إلى مرحلة يصبح فيها مثل « راسل » والأمثلة كثيرة .

نحن لا نعتبر راسل الفيلسوف البريطاني المعروف والذي يُوليه العالم اهتماماً كبيراً ، لا نعتبره فيلسوفاً بل إنه لا يعرف ألف باء الفلسفة . هذا الشخص عالم ، وقد تعب كثيراً طوال سبعين عاماً في سبيل العلم ولكن هذا الشخص المخضرم ليس بحاجة إلى المرأة في هذهِ السن بل إن المرأة داءٌ ومصيبة له ، يقدم نظرية حيث يوردها في كتابه ويقول : إن تشكيل الأسرة خطأ ، يقول : ما المانع في تداول المرأة بين الرجال كل يوم تكون لواحد ، إن بيان هذهِ النظرية فخري ، لماذا يقول وينشر أحد فلاسفة العالم كلاماً فخرياً ؟ يقول : ما المانع أن يقرض الشخص زوجتهُ لرفيقه ، وأن يتبادلا الزوجات ؟ كل هذه الأمور تصدر لأنه لم يهذب نفسه ، وعندما لا يهذب نفسه ، فهو ليس إنساناً وحين يفقد إنسانيته تأخذ الغريزة الجنسية بزمامه ، إذن علينا أن لا نتصور أن الإنسان إذا بلغ من العمر عتياً ، تفارقه الغريزة الجنسية ، لا نتصور أن الإنسان إذا حصل على المال وأصبح متمولاً سيركن إلى الهدوء ، ويزول عنه جانب حب المال ، بل إذا كان سارقاً يسرق ، وإن كان يملك العالم كله . أليست أمريكا لدول الغنية ، إذن لماذا تسرق وتتعدى ؟ لماذا تكون مستعدة لأن توصل صداماً

إلى سدة الحكم ليرتكب كل هذهِ الجرائم ؟ لماذا تسرق وترتكب الجرائم ؟ ـ لا سامح الله ـ أن تسود إحدى الغرائز على المرء ، تأخذ بيده إلى ما يحب حيث لا يشبع . إن أمريكا إذا استولت على كل الكرة الأرضية لن تشبع ؟ كلا إنها تواصل ارتكاب الجرائم ، لذلك حين تصنع آبولو وترسلها إلى القمر أول ما تقول إننا كنا نعتقد بإمكانية صنع قاعدة عسكرية على القمر ، معنى هذا هو أنني قاتل ومجرم ، أنا نمر ، أنا ذئب ، أينما ذهبت أنا نمر ، الحوار حول تهذيب النفس سهلٌ يسير ، وإنما الصعب تطبيق ذلك كان أستاذنا الكبير آية الله البروجردي ينصحنا دائماً ويقول : عليكم ما دمتم شباباً باجتثاث جذور الأنانية ، وحب الرئاسة ، وحب الجاه ، وإلا إذا لم تواظبوا على أنفسكم ستواجهون صعوبات تقول الرواية :

« **وآخر ما يخرج عن قلوب الصديقين حب الجاه** » بمعنى أن حب الجاه لا يزول بسهولة . من الممكن أن يكون الشخص متقياً وعادلاً ، ولكنه يحب الرئاسة ، هذهِ الأمور لا ترتبط ببعضها البعض . من الممكن أن يكون شيخاً مخضرماً ، وأن يكون آية الله ، وأن يكون عادلاً ، ولكنه يحب الرئاسة لذلك نقرأ في الروايات إذا أراد الشخص أن يصبح مرجعا ، يجب أن يكون عادلاً وخبيراً ، وعلاوة على ذلك يجب أن لا يكون « **مكباً على الدنيا** » لذلك يفني المرحوم السيد ـ رحمة الله عليه ـ بذلك ، كما أفتى بذلك قائد الثورة العظيم بمعنى يجب أن يكون الله وراء كل تحركاته ، يجب ألا يحب الرئاسة ، ولو كانت عن طريق الحلال ، وإلا لا يستطيع أن يصبح مرجعاً ، إذا لم يكن مرجعاً ، وكان إمام جماعة ، ولو أنه يحب المال عن طريق الحلال إذا كان عادلاً نستطيع الاقتداء به في الصلاة ؛ ولكن المرجع ولو أنه يحب المال عن طريق الحلال لا يمكنه أن يصبح قائداً ، لأنه يجب أن يكون قد اجتث جميع الصفات الرذيلة من جذورها ، ينبغي أن يكون قائد الثورة العظيم أن لا يكون في قلبه سوى الله ، وأن لا يحب سوى الله . وهذا هو الهدف من خلق الإنسان . « **فإذا فرغتَ فانصبْ** » بمعنى أنك قد تكون تجاوزت المحطة الأولى ولكن إحذر السقوط ، إذا كنت ماشياً في طريق تهذيب النفس عليك أن تواجه المشاكل ، وأن تستقيم وتقوم بنشاطات ، لأن تهذيب النفس يحتاج للاستقامة .

البحث الرابع عشر

« كفارة الذنب »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحللِ عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

البحث يدور عن كفارة الذنب ، وآمل إن شاء الله تعالى وبلطف حضرة بقية الله ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ أن يكون هذا البحث مفيداً ونافعاً .

حكى لي أحد الأصدقاء قائلاً : ذهبت إلى الطبيب وجلست أنتظر دوري فجاء الدور لامرأة عجوز قروية ، فذهبت إلى الطبيب ، وقالت : الوصفة التي كتبتها لي غليتها وشربتها ، ولكن لم تتحسن صحتي ، واتضح أن هذهِ السيدة بدل أن تذهب إلى الصيدلية وتأخذ الدواء وتغليه ، قامت بغلي نفس الوصفة (أي الورقة) .

قال الطبيب : يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكليه . ثم كتب وصفة لكي تذهب السيدة إلى الصيدلية وتأخذ الدواء وتستعمله لكي تشفىٰ . وأضاف هذا الصديق : عندما وصل دوري ، لم يكن هناك أحد سوى الطبيب وأنا ، فقلت للطبيب : يا سيد هل تعلم ماذا فعلت هذا اليوم ؟ قال : ماذا فعلت؟ قلت : لم ترتكب ذنباً واحداً بل ارتكبت ذنوباً كثيرة قال : ذنبك الأول أنك استهزأت بمسلم ، وإذا استهزأ المسلم بمسلم آخر ونال من شخصيته بين الناس ، فهذا ذنبٌ كبير جداً ، حيث نقرأ في الروايات أنهُ يكتب على ناصيته

هذا الشخص فهو آيس من روح الله لا تشمله رحمة الباري ، ويجب أن يذهب إلى جهنم ونقرأ في الروايات أن ذنبه كمحاربة الله : « من أهانَ وليّاً فقد بارزني بالمحاربة »[1] .

أما الذنب الثاني ، فإنك كنت سبباً في إضحاك الآخرين والنيل من شخصية هذهِ المرأة العجوز ، حيث انتابها الخجل والحياء . إذا لم تكن قد تفوهت بهذهِ الجملة لما كان الآخرين قد استهزؤا بها .

ذنبك الثالث ، أنك كذبت : « يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكليه » هذا كذب ، هذهِ المرأة لا تعلم ماذا تفعل بالوصفة ؟ من أين لك أن تعلم أنها ليست ربة بيت جيدة وزوجة صالحة ؟ إنها ربة بيت وزوجة صالحة ، لذلك فإن جملة : « يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكليه » كذب ، والذي يكذب يقول عنه القرآن الكريم : ﴿ فاجتنبوا الرجسَ منَ الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزورِ ﴾[2] ثم قال : إذا أردت أن أعد ذنوبك فهي كثيرة ، إن هذهِ الجملة مفيدة لي ولكم .

علينا أن نتوخىٰ الحذر في تصرفاتنا ، وهذا هو الفرق بين الأحمق والعاقل ، العاقل هو من يفكر أولاً ثم يتكلم ، ولكن الأحمق يتكلم أولاً ثم يفكر . من الواجبات الكبيرة الملقاة على عاتق كل مسلم أن يفكر أولاً ثم يتكلم . من الممكن أن تقولوا جملة في الصف تسبب المصائب ، نفس هذهِ الجملة تصبح عقدة عند شخصٍ ما ، وتجلب المصائب ، في الحقيقة أنتم قتلتم الطفل بهذهِ الجملة ، لأن قتل الروح والشخصية أسوأ من قتل الجسم . نقرأ في روايات كثيرة : إن المسلم هو من يمسك بعنان لسانه . إن البعض يذهبون إلى الجنة وهؤلاء لديهم خلوات مع خالق الكون ، إن خالق الكون ينظر إليهم نظرة عطف .

« أكلمهم وأنظر إليهم سبعين مرةً في كل يوم » .

---

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٤١ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٣٠ .

هذهِ أمثلة ، بمعنى أني أكلم هؤلاء العباد كثيراً ، وأنظر إليهم نظرة لطف وأفضل مكان في الجنة يكون من حصة هؤلاء ، لهم قصور من الدرّ والمرجان ، وغذاؤهم لذات وكلام ونظرات المعشوق للعاشق نظرات المولىٰ للعبد .

ثم يقول : من هم الذين ينظر الله إليهم نظرة لطف ؟ يقول : المسجونون ، والإمام نفسه يفسر معنى المسجون : « **سجنت أنفسهم عن الكلام وسجنت بطونهم عن الحرام** » نقرأ في الروايات : إذا توخىٰ المرء الحذر من ثلاثة أشياء سيفوز حتماً : الأول بطنه وماذا يأكل ، والثاني لسانه وماذا يقول ، والثالث غريزته الجنسية ، وأن لا يعتدي .

على المعلّم ورجل الدين أن يتوخيا الحذر في ما يقولونه . (حتى الكلام الصحيح) حتى ما لا يقبله الناس ، لا يجب أن يتفوه به ، وكما يقول العرب : « **ليس كل ما يُعرَف يقال** » الكثير مِن الأمور مطابقة للواقع وصحيحة ، ولكن لا يمكن أن تقال . نفس الجملة المعروفة بين العوام ، جملة جيدة تلك التي تقال : الصدق الذي يبدو كالكذب أسوء من الكذب الذي يبدو كالصدق . كلا ، بل يجب القول كلاهما سيئان ، أن يكذب المرء ليصدقهُ الناس ، عمل سيّء وذنبه كبير ، حتىٰ الزوج إذا كذب أمام الزوجة أو العكس ، وكذلك أن يتحدث المرء بصدق ، ولكن الناس ترفض كلامه ، يجب أن يتحدث بصورة ينفذ فيها كلامه إلى العقول .

كتاب قابو سنامة كتابٌ جيد ، وكاتبهُ أحد أمراء إيران ، يقول : جئت من مكة إلى تركيا ، كنت فترة عند سلطان تركيا وعقدنا اجتماعات ، ذات يوم ذكرت في الجلسة جملة ، فشاهدته وقد انتابتهُ حالة من الاشمئزاز والنفور ، في أثناء الحوار قلت له : إن في إيران قرية ليس فيها ماء ، والنساء يجب أن تذهب إلى منحدَر الجبل لجلب الماء ، وأن هناك دودةً خضراء موجودة بكثرة إذا دُهست بالرجل وماتت ، يتحول الماء إلى المرورة ، وطبعاً يصعب تصديق هذا الكلام .

يقول : تفوهت بهذِهِ الجملة ، فشاهدته وقد اشمئز مني ، سكت السلطان ، ولكني قررت أن أبرهن على صدق ما قلته ، لذلك كتبت إلى إيران

أن يهيئوا طوماراً يشهد فيه القضاة والعلماء أن كلامي صحيح . بقيت فترة إلى أن جاء الطومار ، وأتيت به عند السلطان فنظر إلى الطومار ، وقال : كنت أعلم أنك لا تكذب ، ولكني أسألك : الكلام الذي يحتاج المرء إلى أربعين شاهد لإثباته ، لماذا يتفوه به الإنسان ؟ ويُحكىٰ أن شخصاً قال في اجتماع : لقد شاهدت في الهند طيراً تأكل النار لأنه شاهد عدم اقتناع الناس ، لذلك ذهب إلى الهند وجاء بالطير التي تأكل النار . فقال أحد الحاضرين : يا سيد ما الداعي لكي تقول كلاماً يحتاج لكل هذهِ المتاعب المالية والجسمية ؟ ما الداعي أن يقول المرء كلاماً لا يقبلهُ الناس ؟ كلاماً كهذا نتيجتهُ الأولى أن فيه ضغط القبر .

نقرأ في الروايات : إن شاباً دفن على يد النبي الأكرم (ص) وشارك في غسله وتكفينه ودفنه .

بعد أن وضعوه في القبر وغطوا القبر جاءت أمه عند القبر وقالت : يا ولدي ، لقد كنت حزينة لموتك ، ولكني الآن حين شاهدت أن النبي الأكرم (ص) دفنك بيده لست حزينة ، واعلم أنك سعيد . النبي الأكرم (ص) لم ينبس ببنت شفة ، ذهبت الأم ، فقال : إن القبر ضغط عليه ضغطاً كسر عظام صدره ، قالوا : يا رسول الله ، لقد كان شاباً طيباً ومستقيماً . قال : أجل ، ولكن كان لديه الكثير من « **ما لا يعني** » « **ما لا يعني** » هي أن يتفوه المرء بكلام لا جدوى منه لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . إن أولىٰ نتائج هذا الكلام هي ضغط القبر . ولكن هذا التأثير وضعي ، وكما قلت إنَّ الرجل السيء الأخلاق في البيت ، ولو كان من أهل الجنة ، ولو كان سعد بن معاذ ، سيعاني من ضغط القبر .

أحد رجال أصفهان الكبار ، كان معلماً للأخلاق ، وكان كلامه مسموع بين الجميع ولكن كان سريع الغضب . إلا أني لا أعلم كيف كان في البيت . مرةً قلت له : لماذا . . . ؟ فخاطبني بلهجة حادة ، ولكنه سرعان ما ندم على ذلك . كان عصبياً وسيء الأخلاق ، وكان يبكي ودموعهُ تنهمر كالمطر ويقول : ذات ليلة رأيت في المنام أن الناس وضعوني في القبر ، فجاء كلب أسود وتقرر أن يبقى معي دائماً ، في نفس المنام شعرت أن هذا الكلب الأسود من سيئات

خلقي في الدنيا التي تحولت إلى كلب ، كان ينتحب ويقول : كنت حزيناً جداً على ما آلت إليه أموري ، فجأةً شاهدت الإمام الحسين (ع) قادماً ، فعلمت أن خدماتي لأهل البيت لم تذهب سدىً ، لقد أنجدني الإمام الحسين (ع) ، قلت للإمام الحسين (ع) : كيف يصبح هذا الكلب ؟ قال : سأنقذك من براثنه ، وبإشارةٍ من يده يذهب الكلب . واستيقظت من النوم .

لدينا قضايا كثيرة تشبه هذهِ القضية . حدثني أحد مدرسي الحوزة العلمية وقال : إن فلاناً (كنت أعرف ذلك الشخص ، رحمه الله ، كان إنساناً طيباً ومؤمناً بنافلة الليل ، ويأتي إلى صحن معصومه (ع) ويَعمَلُ فراشاً في المدرسة الفيضية ، كان هذا الشخص من معارف ذلك المدرس ، وفي الصيف يقطن في بيت المدرس وكانا صديقين ، مات ، ذات ليلة رأيتهُ في المنام ، وقد تحول إلى كلب ، فتعجبت ، وقلت : يا فلان أهذا أنت ؟ قال : أجل ، سلامٌ عليكم ، قلت : لماذا غدوت كلباً ؟ قال : الويل من سوء الخلق ، لقد كنت سيء الخلق في البيت . وسوء الأخلاق جعلني بهذا الشكل ، ثم قال : تعال يا سيد لترى قبري . يقول : ذهبت عند قبره فرأيت ثقباً في القبر . قال : يا سيد عندما وضعوني في القبر تحمّلت ضغطاً خرجت على أثره كافة الزيوت من بدني ودخلت في هذا الثقب ، لو كان الثقب كبيراً لشاهدت كيف سُحقت تحت وطأة المضغطة الإلّهية . الكلام فيه ضغط القبر ، سوء الأخلاق في البيت (الرجل أو المرأة) فيه ضغط القبر ، ويحوّل هوية الإنسان إلى شيء آخر ، وهذا بحث يحتاج إلى وقت أكثر .

كلامنا ، وبالأخص سلوكنا ونياتنا كيف تصنع لنا ملكة ، والملكة تصنع لنا هوية ؟ مراراً يصنع لنا الكلام الذي في غير محله ملكة والملكة هوية . تسلب من الإنسان إنسانيتهِ ، وإذا كان كلامه للسخرية يتحول شيئاً فشيئاً إلى كلب ، وكذلك إذا كان يجرح شعور الآخرين أو يستغيب أو يقذف أو يكذب ، وأن يكون نمّاماً أيضاً يتحول إلى كلب .

إذن ، علينا أن نوقف لساننا عند حده ، نعرف الكثير من الأشخاص الذين أدى بهم المزاح عدم التروي والكلام الغير مُجدي إلى الضياع ، ونعرف الكثير

الذين برزت لديهم مشاكل عائلية من جراء ذلك وكما يقول الشاعر :

« من الصعب إعادة الإناء المكسور إلى ما كان عليه » .

فيا سيد إذا جرحت مشاعر زوجتك ، ولم يندمل الحرج وخرج الحب من قلبها حينذاك يصعب إعادة المياه إلى مجاريها ، لقد رأيت الكثير من النساء اللاتي أدىٰ طول لسانهن إلى أن تتجمع الضغينة قطرةً فقطرةً ، ثم تصبح بحراً ، الخلاف العائلي أدىٰ إلى الطلاق حيث أذللن أنفسهن وأطفالهن . في البداية لم تكن أكثر من جملة ، ولكن نفس الجملة وطول اللسان أوصل الأمور إلى ما لا تحمد عقباه ، كان ابن المقفع من الأدباء الإيرانيين في عهد المنصور الدوانيقي . خلفاء بني العباس بالأخص المنصور ، وهارون ، والمأمون ، كانوا يشغلون الناس بالقصص والأدب اليوناني والفارسي والعربي والترجمة . وكان مقرباً جداً في البلاط العباسي ، لكونه أديب ، وكانت كلمتهُ مسموعة لدى الجميع ـ العلم أحد عوامل الغرور ، إذا لم يتوخَ المرء الحذر مثلاً ـ قد يكون لديه شهادة إعدادية أو بكالوريوس ، ومع أنه يعلم أنها لا تساوي شيئاً ، ولكنها تجلب الغرور ـ ولأن ابن المقفع لم يتوخَ الحذر وقع في الغرور ، بحيث وصل غروره إلى مدى كان يسخر من الولاة (المحافظين) الذين يأتون إلى البصرة مثلاً عندما كان يأتي قائمقام الوالي إلى الجلسة ، كان يقول : سلام عليكما ، فكانوا يقولون : إنه واحد ، فلماذا السلام عليكما ؟ يقول : سلامٌ له ، وسلامٌ آخر لأنفهِ الطويل ، فكان الناس يضحكون وتصبح النكتة عقدةً لذلك الشخص ، أو أنه كان يسأل في الجلسة إذا مات الرجل ، وكان لديه زوج وابن وبنت كيف يُقسم ميراثه ؟ فكان الناس يضحكون ، ابن المقفع لم يكن يعلم أية مصيبة يجنيها على نفسه ، مثلاً في جلسةٍ ما ، كان وكيل الوالي يقول : إني لست نادماً على السكوت ، ولم أتضرر من ذلك .

فكان ابن المقفع يقول : نعم لأن أفضل الأشياء لك هو السكوت ، بمعنى أنك جاهل ولا تفهم **« المرءُ مخبوء تحت لسانه »** وعندما ثار عم المنصور الدوانيقي على المنصور هُزِمَ وهَرَب ، ثم جاء الناس إلى الناس والتمسوا أن يعفي المنصور عن عمه . قال : قولوا لابن المقفع أن يكتب كتاباً لكي أوقعه ،

ولكن ابن المقفع كان مغروراً ، ولم يتـوخَ الحذر في قلمه .

أستاذنا الكبير آية الله البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ منذ أن تولى المرجعية إلى أن مات لم يمسك القلم ، ولم يوقع حتى تـوقيعاً واحـداً ، ولذلـك فإنَّ التواقيع الموجودة في الحوزة العلمية عبارة عن ختم أو صورة طبق الأصـل ، ولكنه كان قد قرر أن لا يمسك القلم بيده أبداً .

المعلم أو الإنسان الوجيه عليه أن يتوخىٰ الحذر في كلامهِ وقلمهِ وغدواته وترحاله ، أعرف الكثير من الوجهاء الذين شاركوا في جلسة في غير محلها (مع أن ذلك لم يكن ذنباً) وضيّعوا أنفسهم .

إن ابن المقفع أهلك نفسهِ بقلمه . كتب ، التزم منصور الدوانيقي إذا كان لديه عمل مع عمه ، أن تفنىٰ خلافته وأن يُنحّىٰ ، وأن يعطىٰ ماله للصدقة ، وأن تطلق امرأته وأن يطلق سراح عبيده . كان يريد أن يستفيد من أدبه ، فكتب كتاباً على هذا الطراز .

عندما جاءوا بالكتاب إلى المنصور ، غضب جداً ومزّق الكتاب ثم كتب خفيةً كتاباً إلى الوالي بأن يقتل ابن المقفع بحيث لا يشعر أحد ، وهذا ما كان يتمناه الوالي . فنادىٰ الوالي على ابن المقفع فجاء هو وحماره وخادمه إلى الذي كان يستهزىء بـه . فأعـطى الوالي كتـاب المنصور إلى ابن المقفـع ، فهوىٰ ملتمساً العفو ، أمر الوالي بإعداد التنور ، وجاءوا بابن المقفع المسكين عند التنور ، فقطع أنفهُ أولاً قال : سلامٌ عليكم والقرابة داخل التنور ، وقطّع يديه ورجليه ، وقال : وهذهِ بدل الاستهزاء . معلومٌ أن ابن المقفع كان يحتضر عندما ألقوا به في داخل التنور ، تأخر الخادم قليلاً إلى أن حان الظهر ولم يأتِ ، قرع الباب وقال : يا ابن المقفع ، فجاءه الجواب ليس موجوداً هنا ، فتجمع الناس وذهبوا إلى المنصور ، وقالوا : إن ابن المقفع ذهب عند الوالي ، ولم يخرج من عنده ، فقال المنصور الذي كان يعلم حقيقة الأمر : سأقتص من الوالي بدلاً عنه وسأقتله ، ولكن إعلمـوا أنـه إذا عُثر على ابن المقفـع سـأقتلكم جميعـاً ، والخلاصة هكذا يحترق ابن المقفع ويفنىٰ .

لكن لماذا ؟ بسبب لسانه الطويل ، ولاستهزائه بالآخرين وغروره من أجل

ضحكة في غير محلها .

كان شخصٌ ضيفاً عند أحد الحكام ، فجاءوا بطيرين مشويين فابتسم . قال : لماذا ضحكت ؟ قال الضيف : لدي قضيته ، في أيام الشباب عندما كنت من قطاع الطرق أخذت أموال أحد التجار وأردت أن أقتله ، فكان يلحّ عليّ بأن لا تقتلني ، فجاء هناك طيران فالتفت إلى الطيرين ، وقال : أريد منكما أن تشهدا أني قتلت مظلوماً فضحكت من قول التاجر ، وسخرت منه وقلت له : ماذا تقول ؟ الآن تذكرت تلك القضية . فابتسمت لذلك . ومع أنه كان صديق الحاكم يقال صَرَخَ : يا جلاد، هذان الطيران هما نفس الشاهدين إذهب واضرب عنق هذا الرجل ، وآتني به . ضحكة في غير محلها ، كلامٌ في غير محله ، علاوة على ضغط القبر أحياناً يجلب العقد والخلافات العائلية والعداوات . على الإنسان المسلم أن يتوخى الحذر في كلامه ، بالأخص أنتم صفوة المجتمع ، لا تنطقوا بكلامٍ تافه ، فكروا أولاً ثم تكلموا والأهم من ذلك أرجو منكم أن لا تجرحوا مشاعر زوجاتكم في البيت . إن أول مصيبة تحل بأولئك الذين يجرحون مشاعر الآخرين أنهم يفقدوا سيادتهم على القلوب ، ويصبحوا منفءرين من قبل المجتمع ، ومن ناحية روايات أهل البيت (ع) هذهِ اللدغات تتحول إلى عقرب وأفعى وذئب تعض الإنسان في القبر والبرزخ ، وفي طابور المحشر في جهنم .

أنتم إذا سمعتم أن الأفعى والعقرب تلدغ الإنسان في القبر وجهنم ، إنها لدغات ألسنتنا . يقول القرآن :

﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً وما عملتْ منْ سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينها وبينهُ أمداً بعيداً ويُحذركمُ اللّهُ نفسهُ ﴾(١) .

فيا أيها الناس ، إن الله يحذرك ، احذر ، وكن على يقين أينما تعمل وأيما تقول يتجسم ، إذا كان طيباً فهو معك في القبر وفي البرزخ وفي القيامة ، وإذا كان سيئاً فهو معك بشكل أفعى وعقرب وكلب فتّاك . وكما يقول المثنوي :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠ .

بواسطة لدغات اللسان تعضك الذئاب التي أعددتها .

إلّهي ، أقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنّ علينا جميعاً بالـوعي وأن نتوخىٰ الحذر في كلامنا ونياتنا وسلوكنا وأن نوفّق لما فيه طاعتك وعبوديتك وترك معصيتك . إلّهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تدلّنا على ما فيه رضاك ، وأن تمنعنا عما فيه سخطك وغضبك .

البحث الخامس عشر

« عبودية اللّه »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

القرآن الكريم فيه جذابية ، ويضيء القلب ، « **وانصتوا** » بمعنى أن عليكم أن تسكتوا جميعاً . يقول أحد علماء أصفهان : كُنا مع جماعة متوجهين إلى الحج وفي المدينة مات أحدنا ، وبعد دفنه عقدنا مجلساً للفاتحة ، ودعونا أحد قرّاء السنة ليأتي ويقرأ القرآن . جاء القاريء إلى المجلس وجلس ، ولكن لم يقرأ القرآن . قلنا له : إقرأ القرآن . قال : إنكم مشغولون بالكلام ولن أقرأ القرآن إلى أن تسكتوا . سكتنا جميعاً ، فوجدناه لا يقرأ القرآن قال : طريقة جلوسكم لا تتناسب مع مجلس القرآن . فجلسنا بطريقة أفضل ، ولكنه لم يبدأ بقراءة القرآن ، قلنا : إقرأ ، قال : لا يَزال المجلس غير مناسب لقراءة القرآن ، لأن البعض في أيديهم شاي وسجائر . فتركنا الشاي والسجائر ، فتلى القاريء السني آيةً من القرآن وغادر المجلس . الآية التي تلاها كانت : **﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾**(١) .

لذلك أرجو منكم جميعاً ، أن تستمعوا للقرآن لدى تلاوته فذلك واجب من مسؤولياته احترام القرآن ، ومفيد أيضاً لتقوية روح الإنسان .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٤

إن التكلم أثناء تلاوة القرآن ، تطاولٌ على القرآن . وحسب رواية عن النبي (ص) فإن القرآن يلغي الذين لا يحترمونه ، قال النبي الأكرم (ص) : **« وإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق ، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار »**(١) .

إذن من اللائق أن تسكتوا في جلسة القرآن وأن يستمع المستمعون بمنتهى الأدب والاحترام لتلاوة القرآن .

أستاذنا الكبير آية الله العظمى البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ ينقل عن أستاذه المرحوم آغا ميرزا عبد المعالي الأصفهاني أنه قال : **« إذا كان في غرفةٍ ما قلمٌ كتب به فقه الشيعة ، أنا لا أنام في تلك الغرفة ، وإذا أردت أن أنام فيها ، أخرج أتعلم أولاً ثم أنام »** .

حين يتحدث أحد علماء الشيعة هكذا ، يتضح أن احترام الكتب الفقهية وكتب الروايات وبالأخص احترام القرآن الكريم مهم جداً .

وأما بحثنا :

بحث حول معركة الداخل التي نعاني منها جميعاً ، وهذهِ المعركة مستمرة وأبدية في داخلنا ، وأعتقد أن هذا البحث مهم جداً .

نستشف من الروايات الشريفة أن النبي الأكرم (ص) سمّىٰ هذهِ المعركة « الجهاد الأكبر » وقال : إن النضال في هذهِ الجبهة أهم من الجهاد في جبهة الحرب .

معركة الداخل هي الجهاد الأكبر ، وإذا لم ننتصر في هذهِ الحرب ، فإن الهزيمة في جبهة الحرب الخارجية ليست ذات أهمية ، لأن حرباً بدأت في سبيل الله ، ولم نتمكن من دحر العدو ، لذلك استشهدنا والشهادة في طريق الإسلام أكبر مَجْد .

---

(١) بحار ، المجلد ٩٣ ، ص ١٧ ، الحديث ١٦ .

ولكن إذا هزمنا في معركة الداخل ، فذلك مدعاةً للهوان ويصبح الإنسان أدنى من أي حيوان . القرآن الكريم يقول : ﴿ **إنَّ شرَّ الدوابِّ عندَ اللّهِ الصمُّ والبكمُ الذينَ لا يعقلونَ** ﴾[١] أن الذي يُهزم في هذهِ المعركة يصبح أدنى من ميكروب السرطان والجزام . ولكن إذا انتصر المرء في معركة الداخل ، أعزّه الله . في سورة الفجر حيث قال : ﴿ **يا أيتها النفسُ المطئنةُ ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾[٢] .

هنالك رواية بأن هذهِ الآية وردت بالإمام الحسين (ع) والله يقول : يا من لديك نفسٌ مطمئنة ، تعالى ، تعالى ، إلى جانب الحسين (ع) ، تعالى ، إنك مع الإمام الحسين (ع) في مكان واحد ومتعتك أنك جليس وأنيس مع الإمام الحسين (ع) تعالي ، تعالى فأنا راضٍ عنك ، وأنتَ راضٍ مني ، تعال ليس إلى الجنة العادية بل إلى جنتي .

إذن يمكننا أن نقول : إن هذهِ المعركة تبدأ من نقطة ، وفيها ذروة القمة ، وفيها السقوط إلى الهاوية ، ذروتها مصداقُ لآيةِ : ﴿ **يا أيتها النفسُ المطمئنةُ** ﴾ وسقوطُها آية : ﴿ **إن شرَّ الدوابِ عندَ اللّهِ الصمُّ البكمُ الذينَ لا يعقلونَ** ﴾ المعلمون الذين هم صفوة المجتمع ، وبيدهم مَصيرهُ ، وهم مُربّو أجيال الغد ، يجب أن يهتموا كثيراً بهذا البحث .

البحث يتركز وحول ماذا نفعل لكي نفوز في هذهِ المعركة ونكون مرفوعي الرأس ؟ .

القرآن الكريم دلّنا على بعض السبل من بينها رحابة الصدر وأن يكون القلب كالبحر ، وهذا ما يستشف من سورة الانشراح .

والآن بما أنكم أيها الأعزاء تكررون السؤال حول ماذا نفعل لينشرح صدرنا ؟ أقرأ لكم رواية عن الإمام الصادق (ع) : المرحوم الشيخ البهائي ـ عليه الرحمة ـ ينقل في الكشكول رواية عن الإمام الصادق (ع) ويقول : إن سفيان

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الفجر ، الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

الثوري قال : من أجل أن أحصل على رحابة الصدر وضياء القلب ذهبت عند الإمام الصادق (ع) (لأنه من الممكن أن يتغير الإنسان أثر مشاركتهِ في جلسة أو لدى استماعهِ لكلمة ، لقد شاهدت أو شاهد الكثير من الأشخاص الذين غمرتهم التعاسة وتغيروا من جراء كلمة واحدة ، لذلك يقول سفيان الثوري : ذهبت إلى الإمام الصادق (ع) لكي أتغيّر) يقول : عندما جلست في محضر الإمام (ع) لم يقبلني الإمام، وقال عندي عمل ولذلك لا أستطيع أن أجلس معك ـ سفيان الثوري لم يكن إنساناً طيباً جداً ـ إنه يقول : لأن الإمام (ع) لم يقبلني ، خرجت من هناك ، وذهبت إلى قبر النبي الأكرم (ص) وصليت هناك ركعتين وتوسلت بالرسول الأكرم (ص) وقلت له : يا رسول الله ، أرجو منك أن تجعل الإمام الصادق (ع) يقبلني وأن يُرفق بي . (لأن الله مقلب القلوب ، والنبي الأكرم (ص) والزهراء ـ سلام الله عليها ـ والأئمة الطاهرين ـ عليهم السّلام ـ هم واسطة فيض هذا العالم . إذن ، هم الذين يجب أن يغيروا الإنسان وهم الذين يجب أن يحببوا الإنسان لدى الآخرين) يقول سفيان : بعد أن توسلت ، جئت عند الإمام الصادق (ع) ، واستقبلني الإمام (ع) بحفاوة ، فعلمت أن توسلي قُبِل من قبل النبي الأكرم (ص) . قال لي الإمام الصادق (ع) : جئت إلى هنا لكي ينشرح صدرك ؟ قال سفيان : أجل يا بن رسول الله ، جئت عندكم ليتنور قلبي وينشرح صدري .

قال الإمام (ع) : يا سفيان ، إذا أردت انشراح الصدر عليك أن تواظب على ثلاثة أشياء :

١ ـ يا سفيان ، إعلم أنك عبد ، وهو مولىٰ ، ولأنك عبد يجب أن تكون مطيعاً مئة بالمئة لمولاك .

حول هذا الموضوع تذكرت قصة لا بأس من ذكرها :

شاهد غلام مؤدب وعاقل مولاه مهموماً . فقال له : لماذا أنت مهموم ؟ قال إني مديون والتفكير في الديون سلبني الراحة . قال الغلام : حسناً ، خذني إلى سوق الرقيق ، واعرضني للبيع وبثمني سدّد ديونك .

قال : إن لدي قروضاً كثيرة وثمنك لا يكفي لعُشر قروضي .

قال الغلام : بنفس المقدار الذي أنت مقروض به ، سعّرني .

قال المولى : إنهم لا يشترونك بهذا السعر .

قال الغلام : قل للزبائن إن هذا الغلام لدية صفة حسنة جداً وارتفاع سعره ناجم عن حيازته تلك الصفة ، إن تلك الصفة هي أنه يعرف جيداً أسلوب العبودية .

مرحى لهذا الغلام . طبعاً لم يفهم ماذا يقول : جاء بالغلام إلى سوق بيع الرقيق وسعّره بسعر يعادل عشرة أضعاف سعرهُ الطبيعي ، مثلاً إذا كان السعر المعمول به لهذا الغلام عشرة آلاف تومان ، كان يقول إني أبيع هذا الغلام بمئة ألف تومان . كل من كان يسمع يضحك ، إلى أن سأل إنسانٌ عاقل سبب ارتفاع سعر الغلام ، قال المولى : إن ارتفاع سعر الغلام يرجع إلى أنه يعرف طريقة العبودية جيداً .

قال الرجل : إذا كان كما تقول فإن قيمتهُ أكثر من ذلك ، إني أشتري هذا الغلام بشرط أن تكون لديه هذهِ الصفة ، وإذا لم تكن لديه هذهِ الصفة يحق لي فسخ الصفقة .

وهذا ما يجري في الصفقات الفقهية ، إذا اشتريتم مثلاً بيتاً بشروط ولم تتواجد فيه تلك الشروط يحق لكم فسخ الصفقة .

وخلاصة الأمر : دفع مبلغ المائة ألف تومان، وأخذ الغلام للبيت ، ومن أجل أن يعرف هل الغلام طريقة العبودية أم لا ، أمر بضربه بالسوط . ضربوه بالسياط ، فكان الغلام لدى ضربهِ بالسوط لا يبكي ولا يتأوّه ولا يسأل عن سبب ضربه بالسوط .

أمر الرجل بترك الغلام ، ثم قال للغلام : ألم تكن تشعر بالألم ؟ قال : نعم . قال : ألم تكن تُضرب بدون سبب ؟ قال : نعم ، قال : إذن لماذا لم تحتجَ على ذلك ؟ .

قال الغلام : أنا عبد وأنت مولى ، ولا يليق أن يسأل العبد عن سبب تصرفات مولاه ، العبد يجب أن يكون مطيعاً لمولاه مائة بالمائة . إذا أنعمت عليَ

فأنا مطيع لك ، وإذا ضربتني بالسوط أنا مطيع لك أيضاً . مرحىٰ لهذا الغلام ! .

بابا طاهر ـ رحمة الله عليه ـ يقول في هذا المجال :

واحد يحب الداء وواحد يحب الدواء — واحدٌ يحب الوصول وواحد يحب الهجر
أنا من الداء والدواء والوصل والهجر — أحب ما يحبه المعبود

طبعاً في قصة العبد ومولاه هذه ، القصة خطأ أساساً ، بمعنى لا يحق للمولىٰ أن يضرب العبد بالسوط ، وهذهِ العبودية والموالاة تصدق بحق الباري عزّ وجلّ فحسب ، لأننا عندما نطمئن إلى الله حكيم وأدركنا أن الله عادل ورحيم نصبح مطيعين له وإذا أنزل الله بنا مصيبة ومشكلة نعلم أن فيها حكمة وليست ظلماً ، بل هي رأفة من جانب الله ، ونستطيع أن نستفيد من هذهِ المصيبة . كما إذا أنعم الله علينا ، فنحن مطيعون ونحب ما يحبه المعبود ، الذي لم يدرك بعد موقفه كعبد يصبح مصداقاً للآية الكريمة :

﴿ إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً ، إذا مسَّهُ الشرُّ جزوعاً ، وإذا مسّهُ الخيرُ منوعاً ﴾[1] و **﴿ كلّا إنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ ﴾**[2] .

إن هذا الإنسان ليس عبداً ، بل هو إنسان مذبذب :

﴿ مذبذبينَ بينَ ذلكَ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾[3] .

وكما يقول أمير المؤمنين (ع) : هذا الإنسان كالبعوضة ، لا ثبات لديه ، تأخذه رياح المصيبة ، كما ستأخذه رياح النعمة .

أمير المؤمنين علي (ع) يصف العبد في نهج البلاغة فيقول :

« المؤمن كالجبل الراسخ ، لا تحركه العواصف » .

جاء أحد أصحاب الإمام الصادق (ع) وأراد أن يمتدح نفسه ، فقال : « يا بن رسول الله ، إني صبور أمام المصيبة وشكور أمام النعمة » .

---

(١) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ ـ ٢١

(٢) سورة العلق ، الآيتان : ٦ و ٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٤٣ .

قال الإمام الصادق (ع) : ولكننا لسنا كذلك . فاهتز ذلك الرجل الذي كان يظن أن أسلوبه رائع أمام المصيبة والنعمة ، فقال : يا بن رسول الله ، إذن ما هي الطريقة الصحيحة ؟ .

قال الإمام : نحن نطيع أوامر الله . إذن ، ما يأتي من عنده حسن ، إذا جاءت مصيبة ومشكلة فهي طيبة وإذا جاءت نعمة وسعادة أيضاً طيبة . ابتعدنا عن الرواية . قلنا : إن سفيان الثوري جاء عند الإمام وقال : يا بن رسول الله ، لقد جئت عندكم لكي ينشرح صدري . قال الإمام : يا سفيان ، إعلم أنك عبد وهو مولىٰ .

إذا استطاع المرء أن يدرك أول جملة قالها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري ينشرح صدره ، ويصبح قلبه كالبحر مطيعاً للباري تعالى . مرحىٰ لمن أطاع ربه وأصبح مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة** ﴾ وشخص كهذا سيفوز حتماً في صراع الداخل . القرآن الكريم يذكر محاورة للشيطان مع الباري عزّ وجلّ وهنا يبدي الشيطان عجزه في التعامل مع عباد الله المخلصين ويقول : أنا لا أستطيع أن أغويهم ، وليس لدي عمل مع هؤلاء : ﴿ **قالَ فبعزتكَ لأغوينهمْ أجمعينَ إلاّ عبادك منهمُ المخلصينَ** ﴾[1] حقاً إنه لا فخر يفوق أن يكون الإنسان عبداً لله . أمير المؤمنين علي ـ عليه السّلام ـ يقول :

« **كفىٰ بي فخراً أن أكون لك عبداً** »[2] .

تعالوا نسعىٰ لكي نكون عبيداً لله ، فهذا المقام أعلى من مقام الرسالة ، لا ننافي التشهد عندما نورد صفة للنبي الأكرم (ص) نذكر أولاً عبوديته ، ثم نذكر رسالته « **وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله** » يبدو من هذه الجملة أن العبودية تفوق الرسالة ، وقد جاءت الرسالة أساساً لكي تصنع العبد الخالص ، والنبي الأكرم (ص) عبد مائة بالمائة .

الجملة الثانية التي أدلىٰ بها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري :

---

(١) سورة ص ، الأيتان : ٨٢ و٨٣ .

(٢) بحار الأنوار ، المجلد ٩ ، ص ٩٤ ، الحديث ١٠

يا سفيان ، إذا أردت رحابة الصدر ، عليك أن تنتبه أن مولاك عنده غضب ، كما عنده رضىً . إحذر أن تقوم بأعمال يرضى عنها الله وأن تبتعد عما يغضب الله .

في البحث الذي دار حول آية : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ قلت : إن إحدى الأشياء التي تقوي الإرادة ، وتنصر الإنسان في تلك المعركة الداخلية ، الاهتمام بأداء الواجبات وترك المحرمات .

إن معنى العبودية هو الاهتمام بالواجبات وأن ينتابك الحرج من الذنب . الذنب مهما كان صغيراً ولكن من أجل أنه يلوث العبودية ، كبير جداً . لذلك نرى أن العبد الحقيقي ، يشعر بالأسى لمجرد ارتكابه لذنب صغير .

يقال : إنَّ أحد أصحاب الرسول الأكرم (ص) وفي إحدى المعارك عندما خرج المسلمون للقتال ، بقي هذا الشخص في المدينة لرعاية النساء ، ذات يوم ذهب إلى بيت رفيقه فوقع نظره على زوجة رفيقه فوسوس له الشيطان ولمس بيده نهد تلك المرأة . المرأة التي انزعجت كثيراً قالت له : « النار ، النار » بمعنى ماذِا تفعل ؟ النار ، النار .

هذا التنويه كان له وقع عجيب على ذلك الرجل ، فخرج إلى الشارع لا يلوي على شيء ، وهو يبكي ويصرخ كالمجانين : « لقد أصبحت من أهل جهنم ، لقد أصبحت من أهل جهنم » ، وخرج من المدينة متجهاً نحو الصحراء .

حين عاد النبي الأكرم (ص) من الحرب نزلت الآية بأن توبةِ ذلك الرجل قد قبلت .

قال النبي (ص) : إن توبتهُ غفرت وغُفِرَ له ، اذهبوا وجيئوا به حين جاءوا به ، كان النبي (ص) يصلي في المسجد ، فجلس ذلك الرجل في صف المصلين ، ولكنه كان يخجل أن ينظر في وجه النبي (ص) ، ارتقى النبي الأكرم (ص) المنبر ، ولكن ذلك الرجل أطرق برأسه إلى الأرض ولم يتمكن من النظر إلى النبي (ص) . وعلى سبيل الصدفة بدأ النبي (ص) بتلاوة سورة :

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾[1] لينصح بها الناس . وفي هذهِ السورة يوجد أيضاً آيات العذاب ، عندما انتهى من السورة ، فجأةً صرخ ذلك الرجل صرخةً ووقع إلى الأرض مغشياً عليه . فجاء الناس ليروا ما حلّ به ، ولكنهم وجدوا أنه قد مات .

إن ذلك الرجل تاب عن الذنب ، وقبلت توبتهُ ، ولكنه من جراء الخجل الذي انتابه أثر فعلته ما أن سمع آيات العذاب الإلّهي حتى فاضت روحهُ للمعبود .

الكثير من الفقهاء ومن بينهم أستاذنا الجليل قائد الثورة العظيم ، يقولون حول الذنوب : « جميع الذنوب كبيرة ، وليس لدينا ذنوب صغيرة ومن أجل أن يخرج الشخص عن العدالة ، فإن جميع الذنوب كبيرة ولكن فيها ما هو كبير وصغير » .

مثلاً النظر إلى النساء المحرمات ذنب كبير ، ولمس جسمهن ذنب أكبر والأكبر من ذلك ارتكاب العمل المنافي للعفة . إذن كل الذنوب كبيرة ، ولكن فيها درجات .

هنا يجب أن نقول : إن كلام قائد الثورة العظيم ذا مغزى عظيم حينما يقول : « إذا أردنا أن نصل إلى ما نبتغي ، يجب أن تكون في حياتنا ذنوب » .

لذلك ، أرجوكم أن تحاولوا الفوز في هذهِ المعركة الداخلية ، وأن سر انتصارنا هو الابتعاد عن الذنوب ، ورحابة الصدر .

عليكم أن تكونوا رَحبي الصدر وأن يكون قلبكم واسِعاً كالبحر ، وأن تهتموا كثيراً بأداء الفرائض . لذلك يقول الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري : إذا أردت أن تصل إلى ما تريد يجب أن تهتم كثيراً بأداء الفرائض . وكذلك عليك أن تترك معصية الله ، لأن الإنسان الذي يعصي ربّه يواجه غضب الله . لدينا روايات أن الله يقول : « يا عبدي » ، لا تَستَصغر الذنب ، لأنك قد ترتكب ذنباً أخاطبك بعدها : يا عبدي ، لن أغفر لك ، وأنك لن تنال التوبة . ولا تستخف بالثواب ، لأنك قد تقوم بثواب بسيط ، مثلاً أن تجلب قلب أحد

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : ١ .

الناس بسلام منك وعلى أثر هـذا الثواب أخـاطبك : يـا عبدي ، لقـد وفقت وأصبحت سعيداً ويدّ عنايتي فوق رأسك دائماً .

إذن الجملة الثانية التي قالها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري إذا أردت انشراح الصدر عليك أن تطيع مولاك .

أما الجملة الثالثة : قال الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري : إنك عبد ، أنت وما تملكه ملك لمولاك « **العبد وما في يده كان لمولاه** » . إن كل ما يملكه الإنسان من مال وعقل وإرادة وأمان وصحة كلها ملك لله الغني العزيز .

إذا استطاع المرء استيعاب هذهِ الحقيقة بأن كل ما ينتمي له من نعم ظاهرة وباطنة كلها لله ، فلن يغدو الإنفاق في سبيل الله حينذاك أمراً صعباً .

مثلاً ، إذا أعطاكم شخص مالاً لكي تنفقونه على الفقراء ، فإن إنفاق ذلك المـال سيكون سهـلاً بالنسبـة لكم ، لأن المال ليس ملكـاً لكم ، بـل ملكـاً للآخرين .

عندما نؤمن بأن كل ما نملك من الله (حيث يشير القرآن إلى هذهِ الحقيقة في أماكن عديدة) لن نتأخر في الإنفاق بما أمرنا به . يقـول : اعـطِ خمـس مالك ، يقول : انفقوا مما رزقناكم ، أعطاك الصحة والعافية لتستفيد منها في تقوية معنوياتك ، منحك عقـلاً ، وقال : استفـد من عقلك لصالـح الناس ، أعطاك علمك ، وقال : امنح من علمـك للآخـرين ، وعلّم الآخرين وربِّـهم بصبرٍ وتأنٍّ .

حسناً إذا كنا حقاً عبيداً ونعرف أننا لا نملك شيئاً ، فنحن مستعدون أن نعمل ليلاً نهاراً لمجتمعنا ومستعدّون لإنفاق كل ما نملك لعباد الله ، لأنه ليس لدينا شيء ، وكل ما لدينا لله . والله يحبّ أن نكون هكذا .

قال الإمام الصادق (ع) : يا سفيـان الثوري ، إذا أردت رحـابة الصـدر عليك بمراعاة هذا الجزء . حقاً إذا التزمنا بالجملة الثالثة تصلح الكثير من أمورنا وتزول عنا الكثير من الصفات الرذيلة . كان هذا ما قاله الإمام الصادق (ع) حول رحابة الصدر .

وخلاصة القول : إذا أردنا أن ننتصر في هذهِ المعركة الداخلية فإن سورة الانشراح تقول لنا يجب أن يكون لدينا رحابة الصدر . وأيضاً الإمام الصادق (ع) يقول : من أجل الحصول على رحابة الصدر ، يجب أن يكون لدينا ثلاثة أشياء :

١ ـ نكون عبيداً .

٢ ـ مطيعين لله مائة بالمائة .

٣ ـ أن نعلم أن كل ما نملك مُلْكاً لله .

عندما تصبح هكذا ، تعلم أنك عبد ويجب أن تغمرك رحمة الباري وليس غضبه ، وأن تهتم كثيراً بالفرائض وأن تجتنب الذنوب وتعلم أن كل ما تملك من الله ليصبح الإنفاق سهلاً .

إلٓهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والوعي وضياء القلب ، ورحابة الصدر والتوفيق لعبادتك وعبوديتك وترك معصيتك .

إلٓهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تهدينا لما فيه مرضاتك وأن تمنعنا عما فيه سخطك وغضبك .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

جهـاد النفــس
جــزء ٢

محاضرات الأستاذ المظاهري

ترجمة لجنة الهدى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ما يزال سيرنا الإلَهي والملكوتي غير بالغ منتصف الطريق ؛ لكي نجرؤ في زماننا الحاضر على القول : إن طريقنا ينقصه بعض الشيء ، وإن بعض النفوس الباحثة عن النبع الصافي قد وصلت للتوّ إلى العطش الذي ذقنا طعمه بالأمس .

إن العيون لترنو إلى طريق الشراب الولائي منتظرةً « مسيحاً » آخر يُمارس دوره المرسوم له في الهداية .

وعلى الرغم من انتظارنا وشوقنا لإطفاء هذا العطش حاولنا ولمرات عديدة من جلي الصدأ العالق بالأرواح الظامئة من خلال انتهالنا من المنابع الفيّاضة ضمن « الجزء الأوّل من كتاب جهاد النفس » ، ولكننا لا نزال بحاجة إلى أن ننهل كثيراً لنصل إلى الحالة التي يُضفي بها الله علينا من لطفه ومدده .

وهذا ما حاولنا تقديمَه في جزئنا الثاني لكي يتخلّص طلاب النجاة من قيود العبودية وأسر الأهواء النفسيّة المقيتة .

كلُّنا أمل أن ينتفع القرّاء الأفاضل بسيرة نبع الولاية الفيَّاض وأفكار هذا العالم العامل الفقيه العارف ، ليتمكنوا من إزالة الصدأ العالق في النفوس .

وضمن هذه العبارات المختصرة ، نتقدّم بالشكر الجزيل للأستاذ الفقيه ونتمنى له دوامَ الموفقيَّة في هدأية المجتمع صوب الأخلاق الإسلاميّة الرفيعة ، ونشكر كذلك الإخوة الأعزّاء الذين ساعدوا في طباعة هـذا الكتاب سائلين المولىٰ لهم الأجر والثواب ؛ وما النصر إلّا من عند الله .

الجمعية الإسلامية لمعلّمي قم

السعـي والاستقامة في العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾

بحثُنا هذا يدور حول مسألة الجهـاد الأكبر وانتصـار البعد الإنسـاني أو الـروحي على البعد الحيـواني في كوامننـا ؛ وقـد تـطرّقت إلى ورود القـوى المساعدة لذلك من خارج الروح الإنسانية ؛ ومن جملة هذه القوى : الصلاة ؛ أو الاهتمام بجميع الواجبات أو الفرائض وبالخصوص الصلاة التي توجب أن يكون الإنسان حاملاً للإيمان العاطفي ، أي الإيمان الـذي يرسـخ في القلب ويحدوه لتصديق مسألة المبدأ والمعاد ؛ وعنـدما يصـدِّق القلب مسألـة المبدأ والمعاد يتمكن من التغلب على النفس الأمّارة بالسوء .

إن عامل انتصار الشباب في جبهات القتال هو الإيمان الذي ترسَّخ في قلوبهم من خلال إدراكهم وهضمهم لقضية المبدأ والمعاد ، ولذا كان بذلهم لأرواحهم عملاً هيِّناً .

أمّا القوة المساعدة الثانية فهي الصبـر على المشكلات ، والصبـر على العبادات ، والصبر على اجتناب المعاصي .

(سورة طه ، الآيات ٢٥ ـ ٢٨) .

فمن تمكّن من منع نفسه وردعها عن المعاصي برزت فيه حالة سمّاها القرآن « النفسَ اللوّامة » أو ما اصطلح عليه بالوجدان الأخلاقي ، وهذه النفس اللوَّامة تساعد الإنسان كثيراً في انتصاره على البعد الحيواني الذي يصطرع مع البعد الإنساني في حرب ضروس . ﴿ **واستعينوا بالصبرِ والصَّلاةِ** ﴾[1] .

القوة المساعدة الثالثة هي : التوبة ؛ والتوبة : هي تلاطم أو صراع داخلي يحيد بالإنسان صوب فلاحه ونجاحه وانتصاره على النفس الأمّارة بالسوء .

القوة الرابعة : سعة الصدر أو انشراحه ، فمن أراد الغلبة على المعضلات فليشرح صدره ، لأن أغلب المعاصي هي نتيجة لضيق الصدر وعدم تحمل الضغوط الحياتية أو المصائب الدنيوية ، ولكن سعة الصدر والتروّي في الأمور تمنح الإنسان قدرة على التغلب في حربه الداخلية .

القوة الخامسة : وهي ما تعرّضت لها سورة الانشراح ، فقد جاء فيها : ﴿ **فإذا فرغتَ ، فانصب** ﴾[1] .

والتفرُّغ هو الخلوّ من الشيء أو إتمامه أو الانقطاع له ؛ والانتصاب هو : الاستقامة في العمل والجد فيه ؛ فمن كان فعالاً في عمله سويّاً تمكن من الانتصار في كل أعماله ، ومن كان على غير ذلك لم يتمكن من بلوغ درجة النصر .

قال نابليون بونابرت عبارة تنفع في موضوعنا هذا وهي : « لا يوجد في معجمي عبارات : لا أعلم ، ولا أتمكن ، ولا يكون » .

وقد تمكن نابليون بقانونه هذا من مواجهة (٢٥) مليون عسكري لينتصر عليهم ويتسلط على مصر .

وكل ذلك راجع إلى تلقينه لنفسه تلك العبارات ، وعليه نقول : من أراد

---

(١) سورة البقرة، الآية ٩١.

(٢) سورة الانشراح، الآية ٧.

تمكّن ، ومن أراد تعلّم .

كثيرون هم الأشخاص الذين نعرف عنهم ضعف استعدادهم وقابليتهم للتعلم مثلاً ، ولكنهم أضحوا فيما بعد نوابغ .

وعندما نطالع حياة المخترعين نرى أن استعدادهم للتعلم في بداية الأمر كان ضعيفاً ، فهم أدنى فهما من أقرانهم الذين يتعلّمون معهم في المدرسة .

وكذا حال عدة من العلماء الإسلاميين إذ لم يكن استعدادهم خارقاً للعادة ، ولكن بلوغ المقامات العليا يتأتّى من العمل والجدية والاستقامة ، وقد أتمكن من حساب (٥٠) نموذجاً من هذا القبيل ، وأستطيع ذكر أسماء أشخاص تمكنوا من اجتياز الموانع الكثيرة باستقامتهم وجدتهم في العمل ووصلوا إلى ما يريدون على الرغم من أنهم لم يكونوا أفراداً أذكياء أو من الذين يمتلكون حافظةً أو استعداداً ذهنياً حادّاً ، بل كانوا أقل من ذلك ، ولكن عملَهم الجديّ المتواصل واستقامتهم جعل منهم علماء ونوابغ ومخترعين .

لو أراد الإنسان تسخير الفضاء لخدمته ، لاستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وإذا أراد تسخير نفسه الأمّارة بالسوء لاستطاع ذلك أيضاً ؛ وتسخير النفس والتغلب عليها أسمىٰ وأرقىٰ من تسخير الملكوت وعالم الفضاء .

لقد وصل ميثم التمّار إلى الدرجات العلى باستقامته ، وعمله الجدي على الرغم من كونه أمّياً لا يعرف حتى أوليات الكتابة والقراءة وقد كان في أول حياته عبداً لامرأة أعتقته فيما بعد ليصحب أمير المؤمنين علياً (ع) في قيامه وجلوسه .

وقد وصل ميثم التمّار أن يكون صاحب سر أمير المؤمنين علي (ع) وهذا ليس بالشيء القليل ، لأن الأمر يحتاج إلى استعداد وقابلية .

قال أمير المؤمنين (ع) : « . . . وإنَّ هنا لعلماً جمّاً ـ وأشار إلى صدره ـ ولكن طلابه يسير ، وعن قليل تندمون لو فقدتموني »[1] .

قد يكون الأشخاص الذين أحاطوا بأمير المؤمنين قد تجاوزوا المليوني

---

(١) تفسير نور الثقلين/ج ٤ ، ص ١٦ ، نهج البلاغة/فيض الإسلام ، ص ١١٤٤ ، كلام ١٣٩ .

شخص ، ولكن لم يحظَ أحد منهم بمثل ما حظيَ به ميثم التمّار لكونه من أصحاب سر الإمام علي (ع) ؛ وقد قال ميثم لابن زياد في أثناء اعتقاله : قال الإمام علي (ع) : ستقطع لساني بعد أن تعلّقني لعال ؛ فأجاب عبيد الله بن زياد : ساعلقك ولكن لن أقطع لسانك لأكذب مقولة سيدك الإمام علي (ع) .

جيء بحبل ، وشُدَّ وثاق ميثم ، ثم سحب إلى عال ليبقى معلقاً بين الأرض والسماء ، فراق الأمر لميثم لكونه فاز بهكذا منبر يرومه ، وبدأ باستعراض مناقب أمير المؤمنين على الملأ ، ثم قال : أيُها الناس ، إني أعلم علم ما كان ، وما يكون ، وما هو كائن ، فعجّلوا بالمجيء إليّ كي أنبئكم بذلك ، ثم أردف يقول : ما عندي من علم فهو من علم علي (ع) باب مدينة علم الرسول الأكرم (ص) ، وقد علّمني إياه لأنني كنت صاحب سره سلامُ الله تعالى عليه .

كان حديث ميثم التمّار ذاك باعثاً لتساؤل الناس واجتماعهم إليه وهو معلّق ، فوصل الخبر لابن زياد ، فخاف من انقلاب الناس عليه وقيامهم لإخراب دار الأمارة ، فأمر بقطع لسانه .

وبعد ثلاثة أيام يأتي شخص إلى حلبة التعذيب ليقول : « يا ميثم أنا أعرف بقيامك والناس نيام ، واستقامتك لوجه الله تعالى ، ولكن من أجل أن يفرح ابن زياد أقتلك » وعندها طعنه برمح اخترق خاصرته ليذهب شهيداً .

ولو قارنّا بين هذين الشخصين لشاهدنا الفرق الشاسع بين سموّ ميثم وسقوط جلّاده الذي تنكّر للعمل الجاد في سبيل الله والاستقامة والصبر عليه ، فهو في البداية يقرُّ برفعة ميثم وبعد ذلك يقتله ؛ ويمكن تمثيل مثل هؤلاء الأفراد بالحشرة التي تقتل نفسَها بنفسِها ، على العكس من ذلك الإنسان الذي انتخب السير الصعوديَّ ليتحرك نحو الأعلى ؛ وقد يطوي البعض مائة عام بصلاة ليل واحدة ، ومصداق ذلك ميثم الذي بلغ مراحل عالم الملكوت في أربعة أعوام صاحب فيها ابن عم رسول الله (ص) فتعلّم منه تأديب النفس الأمّارة لينتصر عليها في جهاد كبير .

كم هو طريف قول الخواجة عبد الله الأنصاري الذي جاء فيه : لا أهمية

لمن استطاع الطيران في الهواء لكون الذباب يستطيع ذلك ، ولا أهمية لمن استطاع السير على سطح الماء لكون التبن يطفو أيضاً على سطحه ، ولكن إذا استطعت أن تكون إنساناً ، تكون قد بلغت شيئاً جليلاً مثلما يبلغ الظمآن الماء ؛ وعندها تستطيع السيطرة على تلك النفس الأمّارة لتجعل منها بُراقاً كبُراق الرسول الأكرم (ص) الذي طلع به إلى السموات العلى ، وعندها تكون قد أنجزت عملاً مهماً .

وبعبارة أخرى يريد الخواجة عبد الله الأنصاري أن يقول : إذا بلغت الهدف ، فأنت إنسان مثالي ، وإذا لم تبلغه ولكن تمكنت من السير بين الأرض والسماء أو على سطح الماء ، فإن المرتاضين الهنود يستطيعون أن يفعلوا ذلك أيضاً ولا فخر لك على أحد .

ولو أمعنت النظر في المشكلات والمعضلات والموانع التي كانت تواجه قائد الثورة الإسلامية في إيران ، لأيقنت استحالة قيام هكذا ثورة ، فالعلماء قالوا بالاستحالة ، والمراجع قالوا بذلك أيضاً والطلاب والمدرسون وعامة الناس كلُّهم قالوا باستحالة قيام ثورة إسلامية .

ولكن الشخص الوحيد الذي قال بصيرورتها ووجوب قيامها بالعمل الجاد والاستقامة ، الذي تمكن من ورود الميدان والانتصار فيه على أعدائه وأعداء الله سبحانه وتعالى هو قائد الثورة الإسلامية مؤسس جمهوريتها .

وبناءً على هذا ، فإن الحرب القائمة في دواخلنا أصعب وأشد من تلك الحرب التي يمكن أن تقوم خارج النفس البشرية ، ومن أراد أمراً وسعى لذلك ، نال ما يريد وفاز بلذّة الانتصار الحقيقي .

إن اليأس والسروح في الخيال من أخطر المسائل التي يمكن أن تلحق الضرر بالإنسان ، وخصوصاً أولئك المحسوبين على دائرة ضعاف الأعصاب والنفوس ، فاليأس والضرب بأنواع الخيالات يردُّ الإنسان إلى الوراء بخطوات مهزوزة ويجعله يردد عبارات : « لا يمكن » و« لا أستطيع » و« مستحيل » بالرغم من خطأ الارتكان إلى هكذا عبارات بنظر الإسلام ، وعلم النفس والتجربة والتاريخ .

انـظر إلى التاريـخ وشاهـد كيف تحوّلت المستحيـلات إلى ممكنات ، فالرسول الكريم محمد (ص) على الرغم من العقبـات والموانـع الكثيرة التي اعترضته عشر سنوات في المدينة وبروز (٧٤) حرباً أو غزوةً ، فهو لم يكن يائساً من بزوغ شمس الانتصار .

لقد تعرّض (ص) للضرب والشتم ، وتعذيب أصحابه وأحبابه وتعريضهم للمجاعة في شعب أبي طالب ثلاث سنوات متتالية حتى بلغ الأمر مبلغه في موت أبنائهم من الجوع والعطش الذي أصـابهم آنذاك ، وعـرض المشركـون على الرسول (ص) أن يترك هذا الأمر على أن يجعلوا أثراهم ويزوجوه أجمل بناتهم ، ويطيعوا له إن أراد رئاسة مقابل عدم التعرض لأوثانهم وأصنامهم ، ولكن الرسول الأكرم (ص) أبَى ألاّ أن ينشر دين الله ـ جلّت قدرته ـ بمواظبته على العمل الجاد المقترن بالصلابة والإصرار .

كان المرحوم الملا صالح المازندراني تلميذاً عند المجلسي وزوج ابنته ، وكـانت تلك الابنة من النسـاء الجليلات العـالمات المتخصصـات في الفقـه والأصول .

يقال : إن الملا صالح وفي أول ليلة عرسه كان مشغولاً بإحدى المسائل المستعصية عليه ، وما إن مضى من الليل ثلثاه حتى بدا التعب على الملاّ صالح فترك المسألـة وخرج من حجـرته إلى بـاحة الـدار ، ليستنشق الهواء النقيّ ، وعندها تدخل العروس حجرة الدرس لتحلّ المسألة دون أن يشعر بذلك الملاّ صالح ؛ وعند رجوعه ثانيةً إلى حجرته رأى حلّ مسـألته ؛ فـانتبه حينـئذ إلى عروسه التي تركها لوحدها .

لقد كتبوا كثيراً عن الملا صالح ، وضعف حافظته التي تخونه في بعض الأحيان ، فلا يعرف كيف يرجع إلى داره ، ولكن هذا الشخص الذي كان يضيع مكان داره تمكن بتأثير العمل الجاد والإصرار على النجاح والاستقامة من كتابة أفضل شرح للكافي ، حيث لا يتأتّى لأحد أن يكتب هكذا شرح إلا من كان متخصصاً في الأصول ، وإذا ما أردنا طباعة شرحه ذلك لأضحى (٣٠) مجلداً إذا ما قيس بالكتب ذات القطع المتوسط .

كتب الغزالي في إحياء العلوم : تـزامن سفر شـابّين إلى الحج في آن واحد ، وعند منتصف الطريق نزلا معاً في مكان واحد ، فذهب الأول لتهيئة الطعام ، وجلس الثاني لقراءة القرآن ؛ وعند عبور إحدى فتيات سكان البادية من هناك وكان غرضها الاستجداء ، وهي ذات جمال ، أخرج قاريء القرآن من أمواله شيئاً ليتصدّق به عليها ؛ وما إن رفع رأسه ليشاهد وجهها حتى شعر بتلاطم روحه التي كانت تصطرع معه لإحساس فيه بالذنب ، فبدأ بالبكاء كامرأةٍ فقدت طفلاً لها ممّا اضطر الفتاة الجميلة للفرار من ذلك المنظر العجيب .

جاء صاحبه ليشاهده على تلك الحال فسأله عن السبب في ذلك ، ولكنّ الفتى لم يستطع الجواب من شدّة الانزعاج الذي كان يشعر به ، ولكنه استطاع أن يتفوّه بجملة هي : إلٓهي أدركني ! لقد قاربت على المعصية ؛ وما إن سمع صاحبه بذلك حتى انهالت دموعه ، فسأله الشاب : لماذا تبكي أنت ؟ فقال : لو كنت مكانَكَ لوقعتُ يقيناً بالخطيئة والمعصية !! .

كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى حالة من السيطرة على النفس الأمّارة بالسوء ؟ .

وكيف يتأتّى له الانتصار في هذه الحرب الداخلية ؟ .

يقول القرآن المجيد : ﴿ فإذا فـرغتَ فانصبْ ﴾[1] ، أي : عليـك أن تعمل بجدّ ونشاط وإصرار على أن تنجح مستفيداً من الاستقامة في العمل لتصل إلى الدرجات العُلى ؛ وإذا افتقر العمل إلى النشاط والجدية أضحىٰ ناقصاً .

وعلى حدّ قول الإمـام موسى بن جعفـر الكاظم (ع) : « إيّـاك والكَسل والضجرَ ، فإنّهما يمنعانِ حظَّك من خيرِ الدُّنيا والآخرة »[2] .

قال موسى (ع) : « يا ربِّ ! أيُّ عبادك أبغض إليك ؟ قال : جيفةٌ بالليل بطّال بالنهار »[3] .

---

(١) سورة الانشراح، الآية ٧.

(٢) وسائل الشيعة/ج ٦٦ ، خ ١ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ١٨٠

وقال تعالى في محكم كتابه : ﴿ وابتغِ في ما آتاكَ اللّهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ من الدُّنيا ﴾[1] .

وقال أيضاً في محكم كتابه : ﴿ إنَّ لكَ في النهارِ سبحاً طويلاً ﴾[2] ، وجاء أيضاً : ﴿ قمِ الليلَ إلاّ قليلاً ﴾[3] .

إن ذلك الخطاب الموجَّه إلى الرسول الأكرم (ص) بشكل خاص وإلى العباد بشكل عام يؤكد العمل والنشاط اليومي ، والقيام لصلاة الليل .

ومن فعل ذلك أوصله الباري إلى ما يريد في الدنيا والآخرة .

وإن هؤلاء الشباب الذين يعملون جاهدين لدفع العدو الظالم عن بلادهم هم من الذين تركوا الكسل والضجر وباتوا يرومون السموَّ والرفعة رافضين كل أنواع الانحطاط والسقوط الذي يتأتّى من الكسل والضجر .

يقال : إنَّ موسى (ع) أمرَ بني إسرائيل بصلاة الليل مثلما أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبَوا ، وسألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، فابتلاهم الباري تعالى بالتِّيه ، يتيهون في الأرض أربعين سنة . (الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج) .

هذه هي المرحلة الأولى من مراحل السقوط والانحطاط وآخرها التكذيب بآيات الله كما جاء ذلك في القرآن الكريم : ﴿ ثم كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤوا السوأىٰ أنْ كذَّبوا بآياتِ اللّهِ ﴾[4] .

فالسقوط والانحطاط هو أن يصل الإنسان إلى مرحلة يتنكَّر فيها مثلاً للمبدأ والمعاد ، ويصل إلى أكثر من ذلك وهو التلذذ بالمعصية ؛ وقد كتب بعضهم بصدد الحرب التي قامت بين كندا وأفغانستان ؛ إن الكنديين كانوا يلتذّون بتعليق

---

(١) سورة القصص، الآية ٧٧ .

(٢) سورة المزمل، الآية ٧ .

(٣) سورة المزمل، الآية ٢ .

(٤) سورة الروم، الآية ١٠ .

الأطفال بين جمع من الناس ثم يطلقون الرصاص على رؤوسهم أو صدورهم مع قهقهات عالية .

أو يلتذّون بتجميع النساء والرجال في مكان واحد ، وينادون أحدهم للقيام من جلوسه ليُفاجأ بإطلاقة في رأسه ؛ أو إحراق البيوت على رؤوس ساكنيها مع إظهار حالة التلذذ بذلك بالاحتفال الذي كان يقوم به الكنديُّون آنذاك .

قرأنا الكثير عن الحجّاج بن يوسف الثقفي في التاريخ ، وكنا لا نصدق ببعض مواقفه المخزية ، أما الآن وما يمكن أن نشاهده من انحطاط وسقوط يؤكد لنا سيرة الحجاج الوضيعة والمخجلة .

كان الحجاج لا يطعَمُ طعاماً إلا بحضور رأس مقطوع لأحد معارضيه من أولئك الذين قالوا : لا إلّه إلاّ اللّهُ محمدٌ رسولُ اللّهِ .

ويقال : جيء بأحد محبّي أهل البيت (ع) إليه وهو جالس إلى طعامه ، فما دخل عليه حتى قال المحبُّ لأهل بيت الرسول (ع) : « الله أكبر » .

فقال الحجاج : لِمَ قلت : « الله أكبر »؟ .

فأجاب : وهل في ذلك معصية ؟ .

فقال الحجاج : وتتكلم في حضوري دون إذن منّي ؟ يبدو أن لك قلباً قويّاً !! أيُّها الجلاد افتح صدره بسيفك كي أرى قلبه ، فجاء الجلاد وفتح صدره وأخرج قلبه!! فالتذَّ الحجاج بذلك المنظر ليتناول طعامه والدم يسيل من ذلك المظلوم ! .

إن البشر إذا سقط كان كالحجاج الذي لم يعرف غير الهوى وانحطاط النفس المغلوبة على أمرها وهذا ما نراه جليّاً في نفس صدام اليوم الذي هوىٰ وتساقط إلى الحضيض .

إن صداماً لم يكن على الشكل الذي هو عليه الآن حين ولادته ، بل كانت فطرة الله ملاصقة له حين الولادة ، وكذا الحجاج كان مفطوراً على فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولكنه بفعل الخطايا والمعاصي والتمادي في

ذلك صار وحشاً ضارياً لا يعرف إلا التلذذ بسيلان الدماء البريئة .

لقد كان عبد الملك بن مروان يسمى دائماً « حمامة الحرم » لحضوره الدائم في المسجد ، وكان يقول بتأثره لقتل بعوضة ، ولكنه تغير بعد ذلك بحيث صارت ترسل إليه الأفواج من الناس لقطع رؤوسهم !! .

ونقرأ في الروايات : أن اليهود قتلوا في ليلة واحدة (١٢٠) نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل ليمارسوا أعمالهم المألوفة صباح اليوم التالي بكل هدوء ؛ وهذا هو عين السقوط والانحطاط ، ومن الممكن أن نتزعج لذبح دجاجة ، ولكننا نريق ماء وجه مسلم من خلال اغتيابه أو إشاعة فحشاء أو نصرة ظالم على مظلوم وهذا هو قمة السقوط الذي يبدأ بمراحل أقل من ذلك شدة قد نعتبرها لا شيء .

وأنتم أيُّها المعلمون : لا ينبغي لكم التظاهر بالحب والود لأصحابكم أو لزملائكم الذين يعملون معكم ، وفي غيابهم تكيلون لهم السباب والشتائم ، وتفضحون ما خفي من أعمالهم متلذذين بما تقومون به من تدنٍ وانحطاط وأنتم لا تشعرون ، حتى تضحى تلك المسائل عادة ملازمة لكم وتضحى مجالسكم مجالس غيبة ونميمة وسوء ـ والعياذ بالله ـ ومن يفعل ذلك سيلقي حسابه في يوم لا تنفع فيه شفاعة الشافعين حيث يبدّل الله جلود المراوغين بجلود غيرها **﴿ كلما نضجتْ جلودهُم بدَّلناهُم جُلوداً غيرَها ﴾**[1] .

فالهمزُ واللمزُ والغيبةُ والنميمة وما إلى ذلك تؤدي في آخر المطاف بالعامل بها إلى الحطمة ، والحطمة هي نار الله التي أوقدها لكي يلوح بها الإنسان فتطلع على فؤاده الآثم .

﴿ ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمزةٍ ، الـذي جمعَ مـالاً وعدَّدهُ ، يحسبُ أنَّ مـالَهُ أخلدَهُ ، كلَّا ليُنبذَنَّ في الحُطَمَة ، وما أدراكَ ما الحُطمةُ ، نارُ اللّهِ المُوقدةِ ، التي تطَّلِعُ على الأفئِدَة ﴾[2] .

والجدير بالذكر أن البعض من الذين ارتكبوا المعاصي التي جرَّتهم إلى

(١) سورة النساء، الآية ٥٦.

(٢) سورة الهمزة، الآيات ١ ـ ٧.

الانحـطاط والتدنّي يجـادلون البـاري تعـالى في تعـذيبـه لهم فيجيبهم جلَّت أسماؤه : ﴿ اخسئُوا فيها ولا تُكلِّمونَ ﴾[1] .

فيا أيها الأعزَّة : انتبهوا لأفعالكم وأقوالكم ولا تعرضوا أنفسكم للعذاب الأليم الذي أعدَّه الله للمسيئين الخاطئين ، فمن لم يلق حسابه اليوم سيلقاه غداً عند مليك مقتدر ؛ وخلاصة القول : من لم يستطع الانتصار على باطنه سقط وتهاوىٰ وكانت له جهنم مآباً .

يقول عزَّ وجلَّ في محكم كتابه : ﴿ ولقد ذرأْنـا لجهنَّم كثيراً منَ الجنِّ والإنسِ لهمْ قلوبٌ لا يفقهـونَ بها ، ولهمْ أعينٌ لا يُبصـرونَ بها ولهمْ آذانٌ لا يسمعونَ بها ، أُولئكَ كالأنعامِ بلْ هم أضلُّ ، أُولئك همُ الغافلون ﴾[2] .

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

الإخــلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

خَلَصَ ـ خلوصاً ، وخَلاصاً : صفا وزال عنه شوبه ، وخلَصَ بنفسه وإلى الشيء : وصل إليه فهو خالص ، وأخلص الشيء : أصفاه ونقّاه من شـوبه ؛ وأخلص لله دينه : ترك الرياء فيه .

فمن تطابقت أفكاره وأعماله وأقواله مع ما جـاء في القرآن الكـريم فهو مخلص لله سبحانه وتعالى وسيكون الباري دائماً في عـونه ونصـره في حربـه القائمة في كوامنه ليصل بعد ذلك إلى أهدافه السامية .

ومن أجل رفع المعضلات والمشكلات التي تقف حائلاً دون ذلك النصر علينا أن نلتزم الآية المباركة التي تقول : ﴿ **إنْ تنصُـروا اللّهَ ينصركُمْ ويثبِّتْ أقدامَكُمْ** ﴾[1] .

جاء في القرآن المجيد أكثر من مائة آية يتعرض فيها الباري تعالى إلى الوعد بالسعادة للإنسان المتقي في الدنيا والآخرة ، وجاء فيها عشرون آيةً تتجلّى فيها ألطاف الله وعنايته للشخص المتّقي في هذه الدنيا وحمايته له .

فالمتقي لا يعرف ملجأً غير الله تعالى ولا يعرف مكاناً تأتيه منه النعم غيره تعالت أسماؤه وأخيراً فإن الباري يعين المتّقي للوصول إلى الهدف السامي ألا وهو الفوز على نفسه الأمّارة بالسوء في صراعه مع الخلجات والأهواء النفسية

---

(١) سورة محمد، الآية ٧.

البغيضة ، ولا يتأتّى للإنسان الفوز بذلك إلا بالالتزام لما أمر الله على لسان رسوله الكريم (ص) وعترته الطاهرة من بعده ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

فمحرك الإنسان نحو الله هو الفكر والتفكير بالعواقب التي سيُلاقيها البشر بعد انتقاله من دار الفناء إلى دار البقاء ، على العكس من ذلك ، نرى الفرد الذي اتخذ إلّهه هواه ضالاً تائهاً ضائعاً وفي الآخرة وينتظره العذاب الأليم : **﴿ أفرأيتَ من اتَّخذَ إلّهَهُ هواه ، وأضلَّهُ اللّهُ على عِلْم ﴾**[1] .

﴿ ألَمْ أعهدْ إليكُم يا بَني آدَمَ أنْ لا تَعبدوا الشيطانَ إنَّه لكمْ عدُوٌّ مبينٌ ﴾[2] .

فمن أراد حياة هانئةً سعيدةً بلا اضطراب ينبغي له أن يلتجىءَ إلى المولى تعالى في كل أموره ، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يصل بالإنسان إلى شاطىء الأمان والنجاة من المهالك الدنيوية والأخروية .

وقد قال الباري تعالى في ابتداء القرآن المجيد : **﴿ آلَمّ ، ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه هدًى للمتقينَ ﴾**[3] .

فمن رام الهداية والنجاة رجع إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وتمعَّن في آياته العظام ليفهم منها أن الملجأ هو الله لا غير ، وما دونه زائل إلى غير رجعة فكيف يلتجىء البشر إلى من هم مثله ممن لا يستطيعون نصر أنفسهم .

أمّا المسألة الثانية فهي : من عمل عملاً لله خالصاً ، تمكّن من سحق الصفات الرذيلة في نفسه واستطاع كسب الكثير من الصفات الحميدة ، وما ضعف الأعصاب والاضطراب والحقد والضغينة وما إلى ذلك إلا نتيجة لعدم الإخلاص في الأعمال له ـ تباركت أسماؤه ـ .

فالمرأة العاملة في بيتها بجد ونشاط تخدم زوجها وتطيعه وتربي أبناءها وتلتزم تربيتهم السليمة وتقول : ما أفعله لله ، لأنه تعالى أمر بذلك ، ولا تتوقع

---

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

(٢) سورة يسٓ، الآية ٦٠.

(٣) سورة البقرة، الآيتان ١ و ٢.

من أحد غير الله أجراً وثواباً لها مثل ما للشهيد المجاهد من أجر وثواب وحسنات .

قال رسول الله (ص) : **« أيُّما امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب النار ، وفتح لها ثمانية أبواب الجنة تدخل من أيِّها شاءت »**[1] .

فمن حملت تريد بذلك تربية جيل ونشىءٍ صالح مهذَّب ، عُدَّ ذلك حملاً في سبيل الله ، وما إن تضع وليدها حتى يحتسب لها أجر العامل في سبيل الله تعالى لخلوص في نيَّتها غير المشوبة .

قال رسول الله (ص) : **« ما من امرأة تسقي زوجها شربة من ماء ، إلاّ كان خيراً لها من عبادة سنة . . »**[2] .

وكذا الأمر بالنسبة للرجل الذي يكدُّ على عياله قربةً إلى الله تعالى ، قال الإمام الصادق (ع) : **« من حسنُ برُّه بأهله زاد الله في عمره »**[3] .

فالرجل الذي يخرج من بيته صباحاً ، ونيَّته أن يحصل على رغيف العيش ليديم حياة زوجه وابنه يُعَدُّ مجاهداً في سبيل الله شريطة أن يكون محرِّكه الأساسي هو الله تعالى ، أي معرفته بأن الباري سوف يثيبه على عمله ذاك وليس غيره ، لكونه يفكر بأن الذي بين يديه هو أمانة ، فإذا ربَّاه تربيةً صالحةً إسلاميَّةً يكون قد نهض بالمجتمع إلى حيث يريد الباري تعالى وبذلك يكون مثل ذلك الذي أحيا الناس جميعاً .

أمّا ذاك الذي يعمل بغير نيَّة الحصول على الأجر والثواب أو كسب رضا الباري تعالى وتنفيذ أمره ، يخرج صباحاً للعمل ويرجع عصراً متعباً ويتوقَّع أن يجد الراحة والهدوء في بيته ، ولا يجد ذلك في بعض الأحيان فتراه ينفعل ويغضب ويتكبَّر ويرعد ويزبد لكونه هو الذي جاء بالمال بدون أن يمعن التفكير بأن الذي عمله وكسب به الأموال ليأتيَ بها إلى عياله ما هو إلا قانون أمر به

---

(١) وسائل الشيعة/ج ١٤ ، ص ١٢٣ .

(٢) وسائل الشيعة/ج ١٤ ، ص ١٢٣ .

(٣) بحار الأنوار/ج ١٠٣ ، ص ٢٢٥ .

الله تعالى ولكنه لا يعرف العمل لوجه الله ، بل يعرف أنه يعمل فقط ولا غير سوى ذلك ! .

لمـن ؟ ولماذا ؟ وماذا ينبغي أن يترتب على ذلك ؟ .

هذه كلُّها أسئلة غريبة عليه ، ماذا يعني العمل لوجه الله تعالى .

هنيئاً لأولئك الرجال والنساء الذين يتمكنون من طلي أفكارهم ، وأقوالهم وأفعـالهم بصبغة الله ، وأن الصبغـة تختلف من مكـان لآخـر ، لكـون بعض الأصباغ تضمحلُّ وتتلاشىٰ على العكس من صبغة الباري تعالى وهي تلك التي نراها مثلاً في الدجاجة السوداء التي لا يمكن أن يُزيل أحد صبغتها ؛ ﴿ صبغةَ اللّهِ ، ومنْ أحسنُ منَ اللّهِ صبغةً ﴾[1] .

فيا أيُّها الأعزّاء ، اعملوا عملاً يكون المحرك فيه ضمن حياتكم هو الله ـ جلّت أسماؤه وتعالت صفاته ـ وقد يكون الأمر مشكلاً بعض الشيء ، ولكنكم ستشعرون بلذة ما بعدها لذة .

كتب الغزالي في « إحياء العلوم » أن شخصاً بعث إلى « حمص » والياً عليها ، وبعد مدة من الزمن شكاه أهلها ، فطلب الوالي للمثول أمام القاضي في المدينة دون أن يلاقي أحداً من الناس ، فحمل الوالي أسبابه على رأسه وسار ماشياً من حمص ليصل إلى المدينة ومن ثم ليدخل مسجدها الذي هو عبارة عن دار قضائها ، فقال له القاضي : شكاك أهل حمص بثلاث ، وعليك أن تجيب :

١ ـ يقولون : إنك تخرج من دارك صباحاً متأخراً ، لتصل إلى عملك متأخراً أيضاً .

فقال : صحيحٌ ما قالوا .

٢ ـ يقولون : إنك موجود في النهار ومفقودٌ في الليل .

فقال : صحيح ذلك .

٣ ـ أما الشكاية الثالثة ، فهي أنك تغيب في أحد الأسبوع نهاره ولِيله .

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٨ .

فقال : صحيح ما قالوا .

أما الإجابة على تلكم الشكاوى ، فهي :

أن خروجي متأخراً صباح كل يوم يرجع في الأساس إلى أنني تقاسمت مع زوجتي أعمال المنزل ، فصار الخبز من نصيبي ، وبسبب ذلك أتأخر عن الخروج من الدار كيما يختمر العجين لأخبزه ، وإنني أشرع بعجنه بعد صلاة الصبح ، فأتأخر بعض الشيء عن الوصول إلى دار الإمارة .

أما غيابي في الليل : فقد قسمت وقتي بين الناس والباري تعالى ، فأعطيت جهدي في النهار للناس ، وسكن قلبي لله عندما تغفو العيون أملاً أن أجد علاقةً مع الله تعينني على قضاء حوائجي .

أما اليوم الذي لا أخرج فيه أبداً من داري والذي لا يراني الناس فيه لا نهاراً ولا ليلاً فسببه عدم امتلاكي للباس آخر ، لذا أكون مضطراً للبقاء في الدار بعد أن تغسل امرأتي جميع ألبستي ، وبما أن الجوّ بارد بعض الشيء في حمص ، ولا تجفُّ الملابس بسرعة أبقى ملازماً لمنزلي طيلة النهار وجزءً من الليل .

وعندها منحه القاضي جائزة ، وقال له : ارجع إلى عملك مؤيداً منصوراً .

فرجع الوالي إلى حمص ، وقبل أن يذهب إلى داره ، ذهب إلى المسجد وقال للمؤذن قل للناس : إن الوالي أصبح ثرياً ، وإن الأموال لا تتعلق ببيت المال ، فمن أراد أن يصيبه شيء من ذلك من الفقراء والمساكين فليأتِ وليأخذ سهمه .

فجاء الناس إلى المسجد ليحظَوا بالأموال التي كان يوزعها الوالي دون أن يحصيها ، فقد كان يدفع بها إليهم قبضات قبضات ؛ وما إن فرغ من ذلك بعد أن أخذ الجميع ما طلبوا ، بقي من الأموال نزر يسير حمله وسار إلى منزله ، وهناك حكى لامرأته ما حصل فباركت له الأمر وقالت له : استتر لنا بما بقي من النقود خادمة تساعدني في أمر الخبز كي لا يشكوك الناس ثانية بسبب تأخرك صباحاً ، فقال : إن للنقود مكاناً آخر ـ ولم يكن يعلم لها شيئاً ـ ولم تمض عدة

أيام حتى جاءه أحد المساكين ليعطيه ما عنده من النقود ثم يلتفت لزوجته فيقول لها : إن عملنا في الدار وتعبنا سيؤول إلى زوال ، ولكن الصدقة ستبقى ثابتة وباقية لنا عند الباري تعالى ، وهذا أفضل من بقاء المال الزائل في الدار ، ففرحت الزوجة بحديثه الصائب وباركت له حسن نيّته .

﴿ إنما نطعمكُم لوجهِ اللّهِ لا نُريدُ منكُمْ جزاءً ولا شُكوراً ﴾[1] .

أما اليوم لو حدث لأحد الولاة مثلما حدث لذلك الوالي من شكاية لرجع وعلا المنبر ، وسأل الناس عن سبب شكايتهم ، ومن هم الذين أوصلوا الشكوى إلى القاضي ، وحينئذ يشرع بالظلم والقتل والسب والشتائم ، لكون عمّال اليوم لا يعملون لوجه الله تعالى ولكون المحرِّك لهم ليس الله ، بل هو أهوائهم وشهواتهم المُضلَّة لهم عن طريق الحق والصواب .

إن الآية التي ذكرنا نزلت بحق أهل بيت الرسول الأكرم (ص) حيث كانوا صياماً جميعهم (علي ، فاطمة ، الحسن ، الحسين) ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ لتصدِّقهم بما كانوا يريدون أن يفطروا به إلى أسير ومسكين ويتيم .

ولا ننسى أن نتعرض هنا إلى أن الزهراء ـ سلام الله عليها ـ كانت علاوة على خبزها تقوم بطحن القمح والشعير ، وكانت تغالب التعب والنعاس الذي كان يصيبها من شدة العمل .

إنها كانت تذوق مرارة الدنيا لتحظى بحلاوة الآخرة ؛ لم يكن لديها خادمة ، فطلبت ذلك إلى والدها (ص) ، فقال لها بقول « الله أكبر » (٣٤) مرة ، والحمد لله (٣٣) مرة ، وسبحان الله (٣٣) مرة بعد الانتهاء من الصلاة .

وفضَّل الرسول (ص) هذا الذكر على ما في الدنيا جميعاً من أذكار ، ثم قال : **« تعرَّضوا لرحمةِ اللّهِ بما أمركُم بهِ من طاعتِه »**[2] .

وبعد ممارسة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ للتسبيحات التي تعلَّمتها من أبيها رزقها الله بخادمة اسمها فضة .

---

(١) سورة الإنسان، الآية ٩.

(٢) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٠ .

وفي زماننا هذا اشتهر بين العرب يوم فضّة حينما يريدون تقسيم العمل فيما بينهم ، تيمّناً بذلك اليوم الذي قسمت فيه الزهراء ـ سلام الله عليها ـ العمل بينها وبين خادمتها فضّة .

وبناءً على ما تقدم ، ينبغي لنا ولكم أن يكون محرّكنا هو اللّهَ الذي يجب أن نعمل من أجله فقط ، ولا ننتظر من أحد حمداً ولا شكوراً كيما نصل إلى ما نريد وما يرضي الباري ـ تعالت أسماؤه ـ إذا أردنا حياةً سعيدة هانئة .

﴿ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتُم تعلمونَ ، الذينَ آمنُوا ولمْ يَلبسُوا إيمانهُمْ بظلمٍ أولئكَ لهمْ الأمنُ وهُمْ مُهْتَدونَ ﴾[1] .

فالذين يبغون أمناً في حياتهم وهدايةً نحو الله تعالى عليهم أن لا يلبسوا إيمانهم بظلم ، وهم أحقُّ بالأمن من غيرهم لأنهم كانوا يعملون من أجل رضا الله ووفق أوامره التي أجراها على لسان عبده ورسوله محمد بن عبد الله (ص) .

﴿ إنَّ الذينَ آمنُوا وعَملُوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمْ الرَّحمنُ وُدّاً ﴾[1] .

أي سيجعل لهم العزيز القدير محبة خاصة في قلوب الناس ، وسيجعل لهم بهاءً وأُبَّهةً وحساباً لا يناله إلا مَن آمن وعمل بما اعتقد به من إيمان ؛ أما الذين اتَّخذوا هواهم إلاهاً لهم فلن يتأتّى لهم الانتصار على خلجات نفوسهم وطلباتها غير المتناهية ، وسيُغويهم الشيطان جميعاً إلا المخلصين من عباد الله الصالحين .

﴿ فبعزَّتكَ لأغوينَّهُم أجمعينَ ، إلاَّ عبادَكَ منهُمْ المُخلَصِينَ ﴾[2] .

إلّهي نسألُك وندعوك باسمك العظيم الأعظم أن تحفظ شبابنا من البليّات والمصائب ، ووفّقنا للانتباه والالتفات إلى نعمائك كيما نصل بأفكارنا وأرواحنا إلى مقام العبوديّة لك وترك المعصية واجعل نيّاتنا خالصةً لوجهك الكريم دون

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٨١ و ٨٢.

(٢) سورة مريم، الآية ٩٦.

(٣) سورة صٓ، الآيتان ٨٢ و ٨٣.

الناس ، وأقوالَنا تصبُّ في سبيلك الذي لا بد وأن يؤدي بسالكيه صوب الخلاص من النار الحامية ، وصلّى الله على محمد وآل محمد .

صـلاة الليـــل

بسم الله الرحمن الرحيم

إن القوة أو القدرة السابعة التي يمكن من خلالها الانتصار في حربنا على كوامننا هي قيام الليل ، والنهوض بين الطُّلوعين .

لقد اهتم القرآن الكريم بقيام الليـل والسحر وطلوع الفجـر إلى طلوع الشمس بشكل خاص ، فأقسم المولى تعـالى بالفجـر وبصلاة الليـل ، فقال عزّ وجلّ : **﴿ والفجرِ وليَالٍ عشر ، والشَّفعِ والوتر ، والليلِ إذا يَسر ، هلْ فِي ذلكَ قسمٌ لذِي حِجر ﴾**[1] .

وقـد توّج المـولى قسمَه بجملة : **﴿ هـل في ذلكَ قسمٌ لـذي حِجر ﴾** والحِجْر هو العقل ، فمن كان له عقل يـدرك هذا القسم الجليـل لله سبحانـه وتعالى وأهميته .

فـالقسم بالفجـر، وبالليـالي العشـر، وبصـلاة الليـل المشتملة على ركعتَي الشفع ، وركعة الوتر ، ومجمل الليل الساري يحظى باهتمام الباري تعالى .

وهناك آيات كثيرة تتعرَّض لأوقات السَّحَر الذي هو قلب الليل ، والوقت الذي يسبق طلوع الفجر ، قال تعالى : **﴿ والليلِ إذا عَسْعَسَ ، والصُّبحِ إذا تنفَّسَ ﴾**[2] .

---

(١) سورة الفجر، الآيات ١ ـ ٥ .

(٢) سورة التكوير، الآيتان ١٧ و ١٨ .

وفي مكان آخر من القرآن المجيد نقرأ : ﴿ والليلِ إذا أدبَرَ ، والصُّبحِ إذا أسفَرَ ﴾ وهي إشارةٌ إلى آخر قسم من الليل أي السَّحَرِ الذي هو قبل طلوع الفجر .

أما الصبح إذا أسفر ، فهو كناية عن الوقت السابق لطلوع الشمس .

إن الصلاة وممارسة الأذكار قبل الطُّلوعَيْن لها أثر عجيب وعظيم وفائدة قصوى في صلاح هذه الأمة المرحومة ، وقد تعرض القرآن الكريم لهذه المسألة بشكل مثير ، وحدَّد لها الثواب الجزيل والمقام المحمود ﴿ أقِمِ الصلاةَ لِدُلوكِ الشمسِ إلى غسقِ الليلِ وقرآنَ الفجرِ ، إنَّ قرآنَ الفجرِ كانَ مَشهوداً ﴾[١] .

في هذه الآية المباركة يحدِّد الباري تعالى لنا الصلوات الخمس التي تجب علينا من أول الظهر إلى نصف الليل أربعة صلاة هي : الظهر ، العصر ، المغرب والعشاء ، ومن ثم يقول : ﴿ وقرآنُ الفجرِ ﴾ عانياً بها صلاةَ الصبح التي يكون أجرها وثوابها مساوياً لجميع تلك الصلوات الأربع لكونها في أول الوقت بين الطلوعين ؛ أما صلاة الليل ، فلها آيات لوحدها إضافة إلى ذكرها مع الآيات المتعرضة للصلوات الخمس ؛ قال تعالى : ﴿ ومِنَ الليلِ فتهجَّد به نافلةً لك ، عسى أن يبعثَك ربُّكَ مقاماً محموداً ﴾[٢] .

إن هذه الآية المباركة تبيِّن لنا بكل وضوح وصراحة المقام المحمود الذي يمكن أن يسعدَ به الإنسان بإقامته لهذه النافلة التي تكتمل بها الصلوات الخمس لينال أعلى المراتب والدرجات في الدنيا والآخرة بعد أن يتمكن من ترويض نفسه التي تميل بطبعها للراحة والدِّعة .

فمن أراد أن يحظى بإرادة قوية ، ونفوذ كلمة في المجتمع وعزة وجلال وحل للمعضلات والنائبات فليُقم هذه الصلاة في قلب الليل والناس نيام ، وهذا ما أثبته علماء النفس العصريّون أيضاً .

قال رسول الله (ص) : « إن العبد إذا خلا بسيده في جوف الليل المظلم

(١) سورة بني إسرائيل، الآية ٧٨ .

(٢) سورة بني إسرائيل، الآية ٧٩ .

وناجاه أثبت الله النور في قلبه . . ثم يقول لملائكته : « ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلّى بي في جوف الليل المظلم والبطّالون لاهونَ ، والغافلون نيام ، اشهدوا أني غفرت له »[١] .

وقال (ص) أيضاً : « من رُزق صلاة الليل منْ عبد أو أمة قام لله عزّ وجلّ مخلصاً فتوضأ وضوءاً سابغاً ، وصلّى لله عزّ وجلّ بنية صادقة ، وقلب سليم وبدن خاشع ، وعين دامعة ، جعل الله تبارك وتعالى خلفه تسعة صفوف من الملائكة ، في كل صف ما لا يحصي عددهم إلا الله تبارك وتعالى أحد طرفي كل صف بالمشرق ، والآخر بالمغرب ، قال : فإذا فرغ كتب له بعددهم درجات »[٢] .

فمن أراد الحياة الدنيا فليهتمّ بهذا البحث الذي يتطرّق لصلاة الليل ليفوز بسعادتها ، ومن أراد الحياة الآخرة ، فليمعن النظر في هذا البحث الذي يهتم بأفضل القوى التي تأتيه من خارج بدنه لتصل به إلى عنان السماء : ﴿ **إنَّ ناشئةَ الليلِ هي أشدُّ وطأً وأقومُ قِيلاً** ﴾[٣] .

إن الحالة التي يعيشها الإنسان في قلب الليل الدامس بنظر علماء النفس وعلماء الأخلاق ، وبنظر القرآن والروايات المتواترة حالة مساهمة في بناء النفس الإنسانية ، ولا يمكن إدراك هذه الحالة إلا للذين عاشوها لخصوصيتها .

إننا نبقى في العادة يقظين يومياً حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة وهذا يُعَدُّ أول الليل . ومن انشغل به بعبادة كمن انشغل بها في وسط النهار ، وأول النهار أو أول الليل لا يعطي شيئاً للإنسان إذا قيس بتلك العبادة التي تكون آخر الليل أو بالأحرى في وقت السَّحَرِ ، وأن تأثير اليقظة في آخر الليل ملموس حتى لو كان بدون عبادة .

ولذا نقرأ أن إحدى مستحبات ليالي الإحياء أن يكون الفرد صاحياً أو يقِظاً

---

(١) بحار الأنوار/ج ٣٨ ، ص ٩٩ ، بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١٢٠ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨٢ ، ص ٢٠٤ .

(٣) سورة المزمل، الآية ٦ .

طوال الليل ، حتى ولو كان ذلك بلا عملٍ أو ممارسة عبادية .

ونقرأ في الروايات التأكيدات الكثيرة لصحوة الإنسان بين الطلوعين ، ولو بلا ممارسة لصلاة الليل ، لكون البقاء بلا نوم بين الطلوعَين أو في آخر وقت من الليل مفيداً جداً للإنسان من ناحية نفسية ، ومفيد جداً في إيجاد نشاط خاص حيث يساعد في رفع الحزن والهم والاضطراب من النفس البشرية .

إن الكثير من الأجلّاء يسعون للنوم في أول الليل ليقوموا في آخره ، وإن الغالبية العظمى منهم يؤجِّلون مطالعاتهم إلى آخر الليل لينشغلوا بالعبادة بين الطلوعَين ثم يمارسوا قراءة القرآن بعد صلاة الفجر ويقال : إن الدعاء مستجاب بين الطلوعين وإنَّ قراءة القرآن حينها مؤثرة جداً وتترك أثرها الإيجابي على الروح البشرية ؛ ومن لم يستطع أن يتعبد في ذلك الوقت الحساس ينبغي له أن ينجز ما لديه من أعمال كأن يكون مطالعةً أو ما شابه ذلك لكي يحظى بالتأثيرات التي ترافق ذلك الوقت المبارك .

لقد كان الرسول (ص) والأئمة من أهل بيته عليهم السّلام ينامون أول الليل ليصحوا في آخره ، وإن أغلب الأخوة من السنّة ملتزمون لهذا فيحضرون في المسجد قبل طلوع الفجر ، وقد لاحظ إخوتنا الإيرانيون ذلك عند ذهابهم لحجّ بيت الله الحرام

وصلاة الليل تتكوّن من إحدى عشرة ركعة ، تكون النيّة في الثمانية الأولى منها على أنها صلاة الليل ، وتكون ركعتين ركعتين .

أما الركعتان التي تلي الثماني الأولى ، فهي ما يصطلح عليها بصلاة الشفع التي تسبق الركعة الأخيرة المسماة الوتر ، ولا نغور في تفصيلاتها وفي قنوتها ويستحب الدعاء فيها لأربعين مؤمناً حياً كان أو ميتاً ، وتكرار كلمة العفو (٣٠٠) مرة ؛ ويفضَّل قراءة بعض الأدعية بعد الانتهاء من صلاة الوتر .

إن الممارس لصلاة الليل يشعر بالتعب أول الأمر ، ثم يتعود هذه الصلاة لتضحى ملكةً في حياة الفرد المؤمن ، وينبغي للمصلي مراعاة التعب الجسمي في الوقت الذي يحاول فيه تقوية روحه ، ويمكن تشبيه هذه الحالة بحالة الحصان الجامح ، فلو أردنا الاستفادة من الحصان الجامح علينا أن نلجم فمه

في الوقت الذي نراعي فيه مسألة غذائه وسقيه وراحته .

إن القيام لصلاة الليل بالنسبة للمبتدئين يجب أن يكون بشكل مختصر جداً حتى يمكن ترويض النفس للنهوض في الساعة الأخيرة من الليل قبل أذان الفجر والقيام بها على أتمّ وجه ، وقد تطرق القرآن الكريم لهذه النقطة فقال عزّ وجلّ : ﴿ **يا أيُّها المُزَمِّلُ ، قُمِ الليلَ إلاَّ قليلاً ، نصفَهُ أو انقُصْ منهُ قليلاً ، أو زِدْ عليهِ ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً** ﴾[1] .

أما بالنسبة للصلاة في أول الوقت فقد قال الإمام الباقر عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « إعلم أن أول الوقت أبداً أفضل ، فعجِّل بالخير ما استطعت ، وأحب الأعمال إلى الله ما داوم العبد عليه وإن قلّ »[2] .

قال الإمام الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « لكلّ صلاةٍ وقتان : أول وآخر ، فأول الوقت أفضله ، وليس لأحد أن يتخذ آخر الوقتين وقتاً إلا من علّة ، وإنما جعل آخر الوقت للمريض والمعتلّ ، ولمن له عذر ، وأول الوقت رضوان الله ، وآخر الوقت عفو الله »[3] .

إن البحوث الأخلاقية تختلف بطبيعتها عن البحوث الفلسفية ، لكون البحوث الفلسفية مشكلة من القول والسماع حيث لا يتأتى لنا التطرق إلى الحركة الجوهرية لملاّ صدرا ، وطرحها على بساط البحث معكم ، ولو تأتّى أن أكتب فيها إليكم لعامٍ كامل لما استفدتم شيئاً ولما استفدت أنا أيضاً ، ولكن البحوث الأخلاقية بلحاظ القول والسماع سهلة ومقبولة ناهيك عن أنها محببة إذا ما تمعَّن القارىء أو السامع فيها ، ولكن العمل بها لا يخلو من الصعوبة ، فالكلّ يعرف أن التكبُّر صفة متدنِّية ، والكل يدرك ذلك بالفطرة ، والتواضع صفة حسنة ؛ أما الامتناع عن ممارسة التكبُّر فيدخل ضمن دائرة المستعصيات .

إننا نفهم جيداً أن قيام الليل يحظى بأهمية خاصة في القرآن المجيد ، وأن أول طلوع الفجر وقت مهم ، وكذا آخر الليل ، من خلال تعرض القرآن له

---

(١) سورة المزمل، الايات ١ ـ ٤ .

(٢) فروع الكافي/ج ٣ ، ص ٢٧٤

(٣) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ٢٥ .

في عدة أماكن ؛ وأنه يذهب بالغمِّ والهمِّ ، ويزيد الإنسان قوةً ونشاطاً ، ليتمكن من الانتصار على النفس الأمَّارة بالسُّوء ؛ وقد لا يتمكن الفرد من إنجاز ذلك مع تهيُّؤ جميع وسائل ذلك القيام من مثل وضع ساعة توقيت أو النوم مبكِّراً أو غير ذلك من الأمور والوسائل التي تساعد على ذلك النهوض .

وعدم الإمكانية في ممارسة ذلك القيام يرجع بالأساس إلى أن هذا التوفيق لا يحظى به إلا من أراد القرب مخلصاً من الباري تعالى وقد مثَّله البعض بمثل الكبريت الأحمر النادر الوجود ؛ إضافةً إلى عمل الخطايا والمعاصي ، وأكل المال الحرام ؛ لتأثيرها الفاعل في الحيلولة دون هذا القيام ؛ قال الإمام الصادق (ع) : « لا تدعْ قيام الليل ، فإن المغبونَ من حرمَ قيام الليل »[1] .

فالأعمال بشكل إجمالي لها تأثير مباشر في النهوض في قلب الليل وما نقوم به في النهار ينعكس سلباً أو إيجاباً علينا ليمنعنا أو ليساعدَنا في إقامة صلاة الليل التي يقول بعض العلماء على أنها مكمِّلة للصلاة الواجبة .

يقول الأستاذ المرحوم عباس الطهراني : كان لي في النجف الأشرف من يعينني على القيام إلى صلاة الليل ، ولكنني لا أعرف من يكون ! ـ جاء في الروايات : أن المؤمنين توقظهم الملائكة لصلاة الليل ـ ففي بعض الأحيان أسمع نداءً أن يا عباس قُم ، وفي البعض الآخر أسمع : قُم يا هذا .

وقد حدث مثل هذا لأحد تلامذة المرحوم الطهرانيّ فقد كان يقول : كنت أشعر أن أحدهم يركلني برجله لأنهض لصلاة الليل .

قال الإمام الباقر (ع) : « جاء رجل إلى أمير المؤمنين علياً (ع) فقال : إنّي قد حرمت الصلاة بالليل ، فقال : قيَّدتك ذنوبك »[2] .

وقال الصادق (ع) : « إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم »[3] .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ١٢٧

(٢) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ١٢٧

(٣) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٣٠ .

وقال أيضاً (ع) : « إن الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل[١] .

إن صلاة الليل تمنح الإنسان لقباً في عالم الملكوت الأعلى إذا واظب على ممارستها ، وهذا اللقب هو « المتهجّد » .

فالرجل أو المرأة اللذان يحظيان بهذا اللقب في عالم الملكوت تعينهم الملائكة بأمر الباري تعالى في كثير مما استعصى عليهم من أمور ؛ وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في الآية المباركة التي جاء فيها : ﴿ **إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا اللّهُ ثمَّ استقامُوا تتنزَّلُ عليهمُ الملائكة** ﴾[٢] .

قال رسول الله (ص) : [قال الله تعالى] : « . . . إنَّ منْ عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عِبادتي فيقوم من رقاده ولذيذ وساده ، فيتهجّد لي الليالي فيتعب نفسَه في عبادتي ، فأضربه بالنعاس الليلةَ والليلتين نظراً مني له وإبقاءً عليه ، فينام حتى يُصبح وهو ماقتٌ لنفسه ، زار عليها ، ولو أُخلِّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العُجُب فيصيِّره العجب إلى الفتنة بأعماله ، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعُجبِه بأعماله ورضاه عن نفسه ، عند حدِّ التقصير ، فيتباعد مني عند ذلك ، وهو يظنُّ أنه يقترب إليّ »[٣] .

وقال رسول الله (ص) أيضاً : « ما من عبدٍ يحدِّث نفسه بقيام ساعة من الليل فينام عنها إلا كان نومَه صدقةً تصدَّق اللّهُ بها عليه وكتب له أجر ما نوى »[٤] .

(١) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ٣١٦ ـ علل الحديث/ص ٣٦٢ .

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٣) بحار الأنوار/ج ٧١ ، ص ١٥١ .

(٤) كنز العمال/خ ٢١٤٧٥ ، انظر: النيّة : باب ٣٩٨١ (النيّة الصالحة أحد العملين) .

الالتجـاء إلى القـرآن

لا ينبغي أن نغفلُ عن أن بحثَنا هو الجهاد الأكبـر ، ومجاهـدة الإنسان لنفسه كيما ينتصر البعد الإنساني على البعد الحيواني إذا أراد هذا الإنسان سعادة الدارَين .

فـالقوة السـابعة التي تعين المسلم في جهـاده الأكبر هي الالتجـاء إلى كتاب الله الحكيم القرآن الكريـم .

ومن نظر القرآن يمكن أن نتعرَّف على أهمية الالتجاء إليه ، ونتعرَّف أيضاً أنَّ المعرض عنه خاسر لا محالة **﴿ فاقرؤا ما تيسَّر منَ القرآن ﴾**[1] ، **﴿ فاقرؤا ما تيسَّر مِنه ﴾**[2] .

وقد جاءَ في هـذه السورة الشـريفة : **﴿ علمَ أن سيكـونُ منكم مرضى وآخرونَ يضربـونَ في الأرضِ يبتغونَ من فضـلِ اللّهِ وآخرونَ يُقـاتلونَ في سبيـلِ اللّهِ ، فـاقرأوا مـا تيسَّـرَ منـهُ ﴾**[3] ؛ أي : أنَّ الله يعلم أنَّ منكم مَن يسافرون طالبين للتجارة أو تحصيل العلم وكلّ طاعة ، غير أولئك المرضى ؛ وكل من الفرق الثلاث يشقّ عليهم التهجُّد المذكور ، فهم أحقُّ بالتخفيف ، فكرَّر مرتباً عليهم بقوله : **﴿ فاقـرأوا ما تيسَّـر منهُ وأقيمُـوا الصلاةَ ﴾** الـواجبة **﴿ وآتوا الزكاةَ ﴾** المفروضة **﴿ وأقرِضُوا اللهَ قَرْضاً حسناً ﴾**[4] بالإنفاق تطوّعاً

---

(١) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٢) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٣) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٤) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

في سبيل الخير أو بفعل الحسنات مطلقاً ؛ وفيه ترغيب لإشعاره بالعوض كالتصريح في ﴿ وما تقدِّموا لأنفسكُم منْ خيرٍ ﴾[1] مال أو إحسان ﴿ تجدوهُ عند اللّهِ هوَ خيراً وأعظَمُ أجراً ﴾[2] لبقاء ثوابهِ ﴿ واستغفِروا اللّهَ ﴾[3] في كلّ حال ﴿ إنَّ اللّهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾[4] .

أما أولئك الذين ينتهكون الحرمات فقد جاء في حقِّهم في القرآن الكريم : ﴿ أفلاَ يتدبَّرونَ القرآنَ ﴾[5] أي يتدبرون بالتفكُّر في زواجره ومواعيده فيعتبروا ﴿ أمْ على قلوبٍ أقفالُها ﴾ فلا يدخلها معانيه ، وتنكير القلوب لتعمَّ قلوبَ أمثالهم أُضيفت الأقفال إليها إرادة لأقفال مختصة بها .

لقد تعرضت إحدى آيات القرآن المجيد إلى الستر الذي يحول دون أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة من إنسٍ وجنٍّ إلى قاريء القرآن ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينكَ وبينَ الذينَ لا يُؤمنونَ بالآخرةِ حِجاباً مستُوراً ﴾[6] ، أي ساتراً أو ذا ستر بينكَ وبين شياطين الإنس والجنّ ، وبينَك وبينَ نفسِك الأمَّارة بالسوء لكي ينتصر فيك البعد الإنساني على البعد الحيواني .

أما سورة المزمِّل فقد تعرضت إلى ترتيل القرآن فقال تعالى : ﴿ ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً ﴾[7] أي حاول أن تحفظَ الوقوف وتبيان الحروف لما في القرآن من التكاليف الشاقة التي تستدعي الوقوف كيما يدرك الإنسان معانيها ؛ وقد جاءت مسألة صلاة الليل بعد آية ترتيل القرآن مباشرةً مما يدلِّل على أثر ذلك الترتيل في النفس البشرية حينما تقوم للصلاة والنفوس الأخرى غافلة في نوم عميق : ﴿ إنّ ناشئةَ الليلِ هيَ أشدُّ وطأً وأقومُ قِيلاً ﴾[8] ؛ أي أنَّ القيام في الساعات الأخيرة

---

(١) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٢) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٣) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٤) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٥) سورة محمد، الآية ٢٤ .
(٦) سورة الإسراء، الآية ٤٥ .
(٧) سورة المزمل، الآية ٤ .
(٨) سورة المزمل، الآية ٦ .

من الليل للصلاة أو النفس التي تنشأُ أي تنهض من منامها للعبادة هي أشدُّ وطأً أي ثقلاً أو ثبات قدم ، وأقوم قيلاً بمعنى أصوبُ قولاً وقراءةً لفراغ البال .

قال رسول الله (ص) : « . . . فإذا هجمت عليكم الفِتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مشفَّع ، وماحِلٌ مصدق ، فمن جعله أمامه ، قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار »(١) .

قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) : « . . . وإن القرآن ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، ولا تكشف الظلمات إلاّ به »(٢) .

قال رسول الله (ص) : « مثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث ، بينما الأرض ميتة هامدة إذا أرسل الله عليها الغيث فاهتزت ثم يرسل الوابل فتهتز وتربو ، ثم لا يزال يرسل الأودية حتى تبذر وتنبت ويزهر نباتها ، ويخرج الله ما فيها من زينتها ، ومعايش الناس ، والبهائم ، وكذلك فعل هذا القرآن بالناس »(٣) .

قال الإمام علي (ع) : « . . . وتعلَّموا القرآن ، فإنه أحسن الحديث ، وتفقَّهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره ، فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص »(٤) .

وقال أيضاً : « . . . وعليكم بكتاب الله ، فإنه الحبل المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والريُّ الناقع ، والعصمة للمتمسك ، والنجاة للمتعلّق ، لا يعوجُّ فيقام ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تخلقه كثرة الرد ، وولوج السمع ، من قال به صدق ، ومن عمل به سبق »(٥) .

أما أولئك الذين لا يلتزمون قراءة القرآن ، ولا يعلمون بما جاء فيه فسوف

---

(١) سفينة البحار/ج ٢ ، ص ٤١٣ .
(٢) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٦١
(٣) كنز العمال/خ ٢٤٥٧
(٤) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ١٦٤
(٥) نهج البلاغة/صبحى الصالح ، ص ٢١٩ .

يحشرهم الله سبحانه وتعالى عُمياً لكونهم نسُوا آيات الله التي كان يفترض بهم أن يجعلوا أحكامَها منهجاً لهم : ﴿ **ومنْ أعرضَ عن ذِكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرهُ يومَ القيامةِ أعمى ، قال ربِّي لِمَ حشرتَني أعمى وقد كُنتُ بصيراً ، قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى** ﴾[1] .

ما أعظمها من مصيبة عندما يكون الإنسان مشمولاً بالإهمال ، فلا أحد يلتفت إليه ، ولا أحد يكلِّمه بسبب ما جنته يداه التي سوف يعضُّ عليها يوم القيامة ، وعندها يأتي الجواب من الرسول : ﴿ **قال الرسولُ يا ربِّ إنَّ قومي اتخذُوا هذا القرآنَ مهجوراً** ﴾[2] .

لقد تعرضت بعض الروايات إلى مرور القرآن الكريم بشكل مجسّم على صفوف الناس ، وإلى كيفية شكايته منهم في محضر الباري تعالى ، وذلك في يوم القيامة ، فيراه الجميع في أحسن صورة .

فأما الذين كانوا يلتزمون بقراءته فتراهم يرقون سلالم العزِّ والمجد والرفعة إلى حيث رضوان الله وفضله ؛ ولقد ذكر الكليني ـ عليه الرحمة ـ في أصول الكافي وفي الجزء الثاني منه الآيات والروايات والأخبار التي تبيِّن فضيلة القرآن وفضيلة قراءته ؛ ومثل ذلك ذكر العلامة المجلسي ـ عليه الرحمة ـ في الجزء الأول من بحار الأنوار فأسهب في فضائل القرآن الكريم وأجر وثواب القاريء والمنافع التي يمكن أن يحظى بها المسلم من جراء مداومته على قراءة القرآن .

ولو أردنا هنا أن نتعرض لتلك الفضائل لما استطعنا أن نُغلق هذا الباب لما للقرآن من فضائل لا تُعدُّ ولا تحصى ، فهو الذي يكشف الغمَّ والهمَّ ، ويرفع عن الإنسان الاضطرابات النفسيَّة ، ويمنعه عن ممارسة الرذائل .

إنه في واقع الأمر ﴿ **شفاءٌ لما في الصُّدور** ﴾[3] .

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتهُ خاشعاً متصدِّعاً من خشيةَ اللهِ ، وتلكَ الأمثالُ نضربها للناسِ لعلهمُ**

---

(١) سورة طه، الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٢) سورة الفرقان، الآية ٣٠ .

(٣) سورة يونس، الآية ٥٧ .

يتفكَّرونَ ﴾[1] .

إن ما جاء في هذه الآية المباركة يمكن احتسابه تمثيلاً أريد بـه توبيـخ الإنسان على عدم خشوعه حين قراءته للقرآن الكريم بدليل ﴿ **وتلكَ الأمثال** ﴾ أي هذا وغيره ﴿ **نضربُها للناسِ لعلَّهم يتفكرُونَ** ﴾ فيتّعظون .

إن في قراءة القرآن المجيد لذَّةً خاصةً حيث يشعر الإنسان بمخاطبة الله له في كتابه ؛ فعبارة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ تعنيك أنت أيها القاريء المؤمن ، فكم هو جميلٌ خطابُ الله لك الذي يريـد به تيسيـر أمرك وإبعـادك عن طرق الأهواء والشهوات .

لقد تكررت عبارة : ﴿ **فبأيِّ آلاءِ ربكُمَا تكذِّبانِ** ﴾ في سورة الرحمن ، وعبارة : ﴿ **ولقدْ يسَّرنا القرآنَ للذكرِ فهلْ منْ مذَّكرٍ** ﴾ في سورة القمر .

وهذا التكرار دليل قاطعٌ على تنبيه الإنسان على القرآنِ الذي هو من آلاءِ الله ونعمه ، وقد يسَّره الباري للذكر ، ولكن للأسف ما من متذكِّر إلا من رحم ربّي . وكلمة مذكر تعني هل من معتبر ، وأصلها « مـدتكر » قلبت التـاء دالاً وأدغمت فيها الدال .

وقد يسّر الباري القرآن الكريم للاعتبار به والاتعاظ إذ يمكن اعتباره سهلَ ممتنع ، أي أن ما يفهمه الإمام المعصوم من قراءته لآية من آيات القرآن المجيد لا يتأتى أن يفهمها من هو مثلي .

وما يمكن أن يفهمَه العلاّمة الطباطبائي صاحب كتاب الميزان من القرآن لا نتوقع من عامة الناس أن يفهموه ناهيك عن مراحل القراءة : فالمرحلة الأولى هي القراءة بشكل عام ، حتى لو بدون تدبّر ، أما المرحلة الثانية ، فهي التدبُّر الذي توصل الإنسان إلى حالة الإحساس بمخاطبة الله له مباشرة ؛ وما تبقى من المراحل فهي الثالثة والتي يكون فيها الإنسان عاملاً بنهج القرآن بعد أن قرأه وتدبَّر فيه ، واقتنع بضرورة العمل به واتخاذه طريقاً ونهجـاً لبلوغ السعادة في الدارَين ﴿ **إنَّ هذا القرآنَ يهدِي للّتي هيَ أقومُ** ﴾[2] ، ﴿ **قدْ جاءكُم منَ اللّهِ نورٌ**

---

(١) سورة الحشر، الآية ٢١ .

(٢) سورة الإسراء، الآية ٩

وكتابٌ مبينٌ يهدي بهِ اللّهُ منِ اتّبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السَّلام ويُخرجهمُ منَ الظلماتِ إلى النورِ بإذنهِ ويهديهِم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾[1] .

وكذلك الأمر بالنسبة للصلاة ؛ فهي على ثلاثة مراحل أيضاً : فالمرحلة الأولى هي : إسقاط التكليف ، أي ينبغي لنا أن نقوم بإنجاز الصلاة التي تبدأ من تكبيرة الإحرام : « الله أكبر » إلى نهايتها : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . المرحلة الثانية : هي التدبُّر أي بلوغ حالة « لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى » ، والإدبار عن الدنيا بما فيها من الولد والتلد وما إلى ذلك والاشتغال بمناجاة الباري وكأنك تراه . ويقال : إن بعض العرفاء يسمعون جواب سلامهم على النبي (ص) في آخر الصلاة لشدة تفاعلهم معها ، وإحساسهم الجدي بوقوفهم بين يدي الباري تعالى ، فترى البعض منهم يرتجف إذا قام للصلاة والآخر يرتاع إذا بدأ بقراءة الفاتحة .

أما المرحلة الثالثة ، فهي العمل والالتزام لما قيل في الصلاة ، فاللسان يقول : ﴿ إياك نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ أول الأمر ، وبعدها يبدأ القلب بقول : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ ليصل الأمر إلى المرحلة الثالثة أي أن العمل يقول : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ وهذا يعني اجتناب المعاصي في جميع الأمور الحياتية ، وإذا اتفق أن عصى الفرد الله في مسألة أضحت : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ غير لائقة ، وأضحى هو من عبدة الشيطان ؛ وإن الله يقول في محكم كتابه : ﴿ ألمْ أعهدْ إليكمُ يا بني آدمَ أن لّا تعبدُوا الشيطانَ ﴾[2] .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله ، وعاين بسرك عظمة الله ، واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وقف على قدم الخوف والرجاء .

فإذا كبّرت ، فاستصغر ما بين السماوات العُلى والثرى دون كبريائه فإن

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٦ .

(٢) سورة يسٓ، الآية ٦٠ .

الله تعالى إذا اطّلع على قلب العبد وهو يكبِّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال : يا كاذب أتخدعني ؟! وعِزَّتي وجلالي لأحرمنَّك حلاوة ذكري ، ولأحجبنَّك عن قربي والمسارَّة بمناجاتي ؛ واعلم أنه غير محتاج إلى خدمتك ، وهو غنيّ عن عبادتك ودعائك ، وإنما دعاك بفضله ليرحمك ويبعدك من عقوبته . . »[1] .

فمن أراد الدنيا فليقرأ القرآن وليمعن التفكير في معانيه ، ومن أراد الآخرة فليتدبَّر القرآن وعباراته ، ومن كان في نفسه اضطراب فليبعده بقراءة القرآن ، ومن أراد تسلّطاً على نفسه رجع إلى القرآن ، ومن كان فيه صفاتٌ رذيلة تمكّن من إزالتها بالقرآن ، ومن رام الدرجات العلى في جناته تعالى عليه بالقرآن .

إلهي احجب بالقرآن خطرات الوساوس عن صحة ضمائرنا ، واغسل به درن قلوبنا وعلائق أوزارنا ، واجمع به منتشر أمورنا ، وارو به في موقف العرض عليك ظمأ هواجرنا ، واكسُنا به حلل الأمان يوم الفزع الأكبر في نشورنا ، واجبر بالقرآن خلَّتنا من عدم الإملاق ، وسُق إلينا به رغد العيش وخصب سعة الأرزاق ، وجنّبنا به الضرائب المذمومة ومدانيَ الأخلاق ، واعصمنا به من هوة الكفر ودواعي النفاق حتى يكون لنا في القيامة إلى رضوانك وجنانك قائداً ، وفي الدنيا عن سخطك وتعدي حدودك ذائداً ، ولما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهداً ، اللهم صل على محمد وآل محمد ، وهوّن بالقرآن عند الموت على أنفسنا كرب السياق وجهد الأنين وترادف الحشارج إذا بلغت النفوس التراقي ، وقيل من راق ، وتجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب ، ورماها عن قوس المنايا ؛ اللهمَّ اسلُك بنا سبيل القرآن وتوفّنا على نهجه برحمتك يا أرحم الراحمين بحقّ محمد وآله الطاهرين .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨٤ ، ص ٢٣٠ ، وكذا جاء في مصباح الشريعة .

فوائد الدعاء

إن أحد العوامل المساعدة في جهاد الإنسان الأكبر مقابل النفس الأمّارة هو الدعاء ، وقد أولى القرآن الكريم أهمية خاصة للدعاء لكونه يرتّب علاقة أو ارتباطاً بالمدعو ، وذمّ القرآن الكريم أولئك الذين لا يهتمون بالدعاء والتبتّل ؛ قال عزّ وجلّ : ﴿ **ادعُوني استجِبْ لكُم** ﴾[1] ، ثم أردف الباري فقال : ﴿ **إنَّ الذينَ يستكبرونَ عنْ عِبادتي سيدخلُونَ جهنَّمَ داخِرينَ** ﴾[1] .

لم يأتِ في القرآن عذاب مثل هذا العذاب يترتّب على ترك عمل بهذه الكيفية ، أو يمكن القول نادراً ما نرى وعيداً بهذه الكيفية التي جاءت بصدد التارك للدعاء ، فمن لم يدع ثم يئس من الدعاء وترك الحبل على الغارب في هذه القضية الحساسة أدخله الباري جهنم بعد اقتياده ذليلاً ، لقوله داخرين التي تعني الاقتياد بذلٍّ .

وفي آية أخرى يقول الباري تعالى : ﴿ **قل ما يَعْبَؤا بكمْ ربِّي لولا دُعاؤكُم** ﴾[2] أي ما يصنع بكم أو لا يكترث بكم لولا دعاؤكم له .

فمن امتنع عن الدعاء والطلب إلى الله تبارکت أسماؤه ، رفع الباري يده عنه وأوكله إلى نفسه ، وعندها تراه خاسراً في الدنيا وفي الآخرة ، لذا حثّت الروايات الشريفة على التقيد بقراءة دعاء الرسول في ظلمة الليل الذي كان يقول فيه : « اللهمَّ لا تكِلني إلى نفسي طرفةَ عينٍ أبداً »

---

(١) [المؤمن/٦٠].

(٢) [الفرقان/٧٧].

إن الدعاء شعبة من شعب تهذيب النفس وبنائها وهي التي ذكرها الباري سبحانه وتعالى بعد قسم غليظٍ بالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ثم جاءت عبارة النفس وتسويتها وإلهامها الفجورَ والتقوى وكيفية فلاح النفس بالتزكية ، وخيبتها إذا أخفاها البشر بالمعصية وبالجهل ؛ ﴿ **قد أفلحَ منْ زكَّاها ، وقد خابَ من دسَّاها** ﴾[1] .

فتزكيةُ النفس تمرُّ بالدعاء والتوسل بالمولى تعالى وقد تكرَّر ضمير المتكلم في هذه الآية الشريفة سبع مرات من أجل الدعاء الذي يربي النفس البشرية ويهذبها ، وهذا مما يدلل على الأهمية البالغة للدعاء ؛ وفي سورة البقرة نلاحظ مسألة قربِ الباري من الداعي حينما يدعوه ويبتهل إليه فيقول : ﴿ **وإذا سألكَ عبادِي عنّي ، فإنّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ، فليستجيبُوا لي وليؤمنُوا بي لعلّهم يرشُدونَ** ﴾[2] .

وقد نزلت هذه الآية المباركة حين سأل البعض أقريبٌ ربُّنا فنناجيَه أم بعيدٌ فنناديَه ؟ .

فأجاب : بأنه قريب عليم بأحوالهم ، سميع لدعائهم كما يسمع القريب كلام صاحبه ﴿ **أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ** ﴾ إذا أتى بشرائط الدعاء وعرف من يدعو ، ﴿ **فليستجيبُوا لي** ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، ﴿ **وليؤمنُوا بِي** ﴾ وليتحققوا أني قادر على إعطائهم ما سألوه ﴿ **لعلَّهُم يرشُدونَ** ﴾ أي يصيبون الحق ويهتدون إليه .

وقال أيضاً : ﴿ **نحنُ أقربُ إليكمْ منْ حبلِ الوريدِ** ﴾[3] . وحبلُ الوريد هو العِرق الذي يكون في صفحة العنق ، وهو تدليل على سماع الله للعبد أكثر من كل قريب ، إضافةً إلى التشجيع على الدعاء والتوسل به لوحده سبحانه وتعالى وصرف النظر عن التماس الآخرين .

---

(١) [الشمس/٩ و ١٠].

(٢) [البقرة/١٨٦].

(٣) [قٓ/١٦].

قال الإمام علي (ع) : « أحب الأعمال إلى الله عزّ وجلّ في الأرض الدعاء »[1] .

قال رسول الله (ص) : « يا ربِّ وددت أن أعلم من تحب من عبادك فأحبه ؟ .

فقال : إذا رأيت عبدي يكثر ذكري ، فأنا أذنت له في ذلك وأنا أحبه ، وإذا رأيت عبدي لا يذكرني ، فأنا حجبته وأنا أبغضته »[2] .

وبناءً على ما تقدّم يكون الدعاء بلحاظِ ما جاء في القرآن الكريم والروايات المعتبرة المتواترة عن الرسول الأكرم (ص) وأئمة أهل بيته ـ سلام الله عليهم ـ أهم وأفضل وأحب إلى الله من صلاة الليل ، ومن إقامة الصلاة في أوقاتها ، وأفضل كذلك من الجهاد ، لكون الدعاء يربط الانسان بالله بشكل مباشر ، ويجعله لا يعتمد إلاّ عليه تعالى ، وقد كتب المرحوم الكليني كتاب الدعاء في الكافي ورفَدَهُ بالكثير من الروايات التي تقول بفضيلة الدعاء ، وكذا فعل المجلسي ـ عليه الرحمة ـ حينما جمع الكثير من الروايات التي تهتم بمسائل الدعاء ؛ وهذان الكتابان والصحيفة السجادية تشكل جميعها نهج الأئمة الطاهرين من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، والحقُّ يقال : إن الدعاء يمكِّن الإنسان من بناء نفسه وتشذيبها ممّا لصق بها من أدران ومعاصٍ ، وعلى حد قول مؤسس الجمهورية الإسلامية بصدد هذا الموضوع جاء : يتمكن البشر من بناء نفسه بشيئين ؛ الأوّل : القرآن ؛ والثاني : الدعاء .

فالقرآن كلام الله النازل من جانب الحق ، والدعاء : كلام الإنسان الطالع إلى الخالق ، لذا يمكن اعتبار الدعاء تحدث الإنسان إلى خالقه ؛ والقرآن مخاطبة الخالق لمخلوقه .

ولهذا يكون الدعاء أحد افتخارات الإنسان وألذّ اللذائذ .

إن فوائد الدعاء كثيرة نحجم عن التعرض لأغلبها ، ونتبنى فائدتين منها ؛

(١) بحار الأنوار/ج ٩٣ ، ص ٢٩٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٩٣ ، ص ١٩٠

الأولى : إن إحدى فوائد الدعاء هو الافتخار الذي ينعم به العبد بمناجاته لربِّه الخالق العظيم ؛ فلو وُفِّق الإنسان على سبيل المثال لمقابلة القائد الفلاني أو السلطان الفلاني تراه يفتخر بذلك الأمر أمام أقرانه وأخدانه .

والدعاء في حقيقته افتخار للعبد في مناجاة سيده ، ولا فخر أسمى من أن يناجي الإنسان في قلب الليل ـ ولوحده ـ سيده الخالق المتعالي .

إنـه يختلي به دون العيـون فيلتذ بهكـذا افتخار بعيـد عن حبّ الـدنيـا ولذائذها .

قال الإمام علي (ع) : « من أحبَّ لقاء الله سلا عن الدنيا »[1] .

فيما أوحى الله تعالى به إلى موسى (ع) : « كذب من زعم أنه يحبني ، فإذا جنَّه الليل نام عني ، أليس كل محبٍّ يحبُّ خلوة حبيبه ؟! ها أنذا يا بن عمـران مُطَّلع على أحبـائي ، إذا جنَّهم الليل حُـوِّلت أبصارهم من قلوبهم ، ومُثلت عقـربتي بين أعينهم ، يخـاطبـوني عن المشـاهــدة ، ويكلّمـوني عن الحضور »[2] .

فالدعاء معناه ذهاب العبد إلى باب بيت مولاه الذي طالما دعاه وقال له : تعالى إليّ ﴿ ادعُوني أستجِبْ لكمْ ﴾ وهدَّده كذلك إذا لم يأتِ إليه ، وبعد ذلك قال لعباده : ﴿ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾ فليأتوا لدعوتي فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لأحقِّق لهم ما يريدون ﴿ لعلَّهم يـرشدُون ﴾ أي : أنهم يصيبـون ما يبغون .

لو وقَف الإنسان أن يرى علياً (ع) وهو مغشيٌّ عليه في ظلمة الليل الحالك لظنَّ أنها صار إلى ذلك من خوف جهنم ؟ إنه أسمى وأرفع من ذلك .

أنـه حبُّ العبد مقـابل محبـوبه وخـالقه ؛ وكـذا كانت الـزهراء البتـول ـ سلام الله عليها ـ في مقـابل الحق تعـالى حيث لا يُسمع منهـا إلاّ الأنين ، ولا يرى منها إلاّ ما يدلِّل على جريان دموعها . وقد قال فيها الرسول (ص) في

---

(١) كنز الفوائد/للكراجكي ، ميزان الحكمة/باب ١٢٤٩ : « الدنيا والآخرة عدوّان » .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٠ ، ص ٢٣ .

خبر طويل : « . . . أما ابنتي فاطمة فإنها سيدة نساء العالمين . . متى قامت في محرابها بين يدي ربِّها - جل جلاله - زهر نورها لملائكة السماء ، كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض ، ويقول الله عزّ وجلّ لملائكته : يا ملائكتي انظروا إلى أمَتي فاطمة سيِّدة إمائي قائمة بين يديَّ ، ترتعد فرائصها من خيفتي ، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي . . . »[1] .

قال الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « الركعتان في جوف الليل أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها »[2] .

قال الإمام الرضا (ع) : « سئل علي بن الحسين - عليهما السلام -: ما بال المتهجِّدين بالليل من أحسن الناس وجهاً ؟ .

قال : لأنهم خلَوا بالله فكساهم الله من نوره »[3] .

الفائدة الثانية : هي انسلاخ الإنسان الداعي من الهموم والغموم والاضطرابات التي قد تكدِّر معيشة الفرد ؛ ومن نظرة نفسية يقال إن أغلب الاضطرابات يمكن أن تزول بالدعاء والتبتُّل إلى الله في جوف الليل لإمكانية التصريح بما في القلب للواحد الأحد ؛ وبذلك يفرغ القلب من الحمل الزائد عن الطاقة البشرية الذي تطفو آثاره - أي الحمل الزائد - في العادة لتنعكس على أخلاقية الفرد ، فيضحَى متعباً بدون ممارسة أعمال شاقة ، ومضطرباً بدون انتظار لمن يكرهه على ذلك الاضطراب ، هذا إضافةً إلى ما جاء في الروايات المعتبرة من أنَّ الباري تعالى أحنُّ من الوالدة على ولدها ، « وهو الذي يتألَّه إليه عند الحوائج والشدائد كلُّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من دونَه »[4] .

ولا بأسَ بالتعرض هنا إلى مناجاةٍ كان يقرأها الإمام علي (ع) ومن بعده الأئمة من ولده وأهل بيت الرسالة والنبوة رواها ابن خالويه وهي موجودة في كتاب مفاتيح الجنان ص (١٥٦) تحت عنوان أعمال شهر شعبان :

---

(١) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١٧٢ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٨٧ ، ص ١٤٨ .
(٣) علل الشرائع/ص ٣٦٦ .
(٤) التوحيد/ ص ٢٣١ .

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، واسمع دعائي إذا دعوتك ، واسمع ندائي إذا ناديتك وأقبل عليَّ إذا ناجيتُك ، فقد هربتُ إليك ، ووقفتُ بين يديك ، مستكيناً لك ، متضرِّعاً إليك ، راجياً لما لديك ثوابي ، وتعلم ما في نفسِي ، وتخبر حاجَتي ، وتعرفُ ضميري ، ولا يخفى عليك أمرُ منقلبي ومثواي ، وما أريد أن أبدئ به من منطقي ، وأتفوّه به من طلبتي ، وأرجوه لعاقبتي ، وقد جرت مقاديرك عليَّ يا سيدي فيما يكون مني إلى آخر عمري من سريرتي وعلانِيتي ، وبيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصِي ونفعِي وضرِّي .

إلٓهي إن حرمتني فمن ذا الذي يرزُقني ، وإن خذلتَني فمن ذا الذي ينصُرني .

إلٓهي أعوذ بك من غضبِك ، وحلول سخطِك ، إلٓهي إن كنتُ غيرَ مستأهلٍ لرحمتك ، فأنتَ أهلٌ أن تجودَ عليَّ بفضل سعَتك . . . » .

قد يقول البعض : لماذا لا يُستجاب دعائي على الرغم من أنني أدعو اللّٰهَ ليل نهار من أجل أن يرزقني على سبيل المثال ؟ .

وهنا يقول العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان : إن الدعاء مستجاب ولكنه لا يتطابق في أغلب الأحيان مع تخيُّلاتنا ، بل يتطابق مع الفطرة الإنسانية ، فقد ندعو الباري تعالى أن يرزُقنا مالاً كثيراً ، أو أولاداً ذكوراً ، أي ندعو طبق رغباتنا لا طِبق مصالحنا الفطرية على الرغم من أن الدعاء ينبغي أن يكون متلائماً ومنسجماً مع الواقع لا مع الخيال ؛ فقد يكون المال الكثير لنا إفساد وابتعاداً عن الدين ، ونحن لا نعلم بذلك ؛ ولكن الباري تعالى يعلم ويرى ولا يريد لنا إلا الخير ، ويعلم أن مصلحة فلان تقتضي أن يبقى فقيراً أو بدون أموال كثيرة ، وأن دينه أفضل مما لو رزقه تعالى المالَ الكثير ؛ ولكن لو علم الله تعالى أن فلاناً من الناس يكتمل دينه مثلاً أو يكون على أفضل أوضاعه لو رزقه ولداً ذكراً فإنّه سيفعل ذلك بالتأكيد ؛ وقد تطرق القرآن الكريم إلى هذه القضية بشكل مختصر ومفيد فقال عزّ وجلّ في محكم كتابه : ﴿ **وعسى أن تكرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكمْ ، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكمْ ، واللّٰهُ يعلمُ وأنتُمْ لا تعلمُونَ** ﴾[1] ؛ وجاء في مكان آخر ما يقرِّب المعنى أكثر فقال تعالى :

---

(١) [البقرة/٢١٦].

﴿ فعسى أن تكرهُوا شيئاً ويَجعلَ اللّهُ فيهِ خيراً كثيراً ﴾[1] .

فما كان في غير نفعِنا لا يمكن أن يكون ، وعندها يبقى الدعـاء بدون نتيجة بحسب تصوّرنا .

وما كان فيه نفعُنا يتم بسرعة بعد الدعاء ، وهذا ما يقدِّره الباري تعالى لنا ، وهو أعرف سبحانه بمنافع ومصالح العباد الذين قصروا عن معرفة الخير ، فدعا الكثير منهم بالشرّ بدون أن يلتفت إلى ذلك ، ولكنّ القادر هو الذي يحدّد ويقدِّر استجابة الدعاء الذي ندعوه به كلَّ يوم .

ومن المسائل المهمة بالدعاء هي عدم الإصرار على المسألة الفلانية أو القضية الفلانيـة ، فالأئمـة من أهل بيت الـرسول الأكـرم (ص) كانـوا يبدأون أدعيتَهم بتوحيد الله وذكر صفاته والتعرض لألطافه ورحمته التي وسعت كل شيء ولا يذكرون حاجاتهم إلا آخر الدعاء ، وهذا ما لمسناه في دعاء كميل بن زياد الموجود في كتاب « مصباح المتهجد » يبدأ بـ « اللهمَّ إني أسألك برحمتك التي وسعت كلَّ شيء ، وبقوَّتك التي قهرتَ بها كل شيء ، وخضع لها كل شيء ، وذلَّ لها كل شيء ، وبجبروتِكَ التي غلبتَ بها كل شيء . . . » .

ويستمرُّ الدعاء على هذه الشاكلة ، حتى يصل الإنسان إلى استعراض أغلب صفات الله وأسمائه من أجل إعطاء أهميةٍ بالغةٍ بالدعاء وبالمدعو الذي هو الله جلَّت أسماؤه ، وبعد ذلك يتطرّق الداعي إلى ذكر حاجته بعد أن يُقسم على الله جلّ وعلا بأنبيائه ورسله ، وبخاتم النبيِّين وبالعترة الطاهرة من أهل بيته - صلوات الله وسلامه عليهم - لكي يتعرَّض الداعي إلى لذّة الدعاء الذي يحبُّ الله أن يرى عبدَه عليها ﴿ قلْ ما يعبؤا بكم ربِّي لولا دُعاؤُكُمْ ﴾[2] .

وإذا لم يستجبِ الباري تعالى للدعاء الذي دعوناه به ، فلا ينبغي لنا أن نيأس من رحمة الله ، لأن اليأس قد يصل في بعض الأحيان إلى حد الكفر ﴿ ولا تيـأسُـوا منْ رَوْحِ اللّهِ ، إنـهُ لا ييئسُ منْ رَوْحِ اللّهِ إلاّ القـومُ

---

(١) [النساء/١٩].

(٢) [الفرقان/٧٧].

الكافرونَ ﴾[1] .

أما السبب الثاني في عدم استجابة الدعاء ، فهو الذنب أو معصية الله في قوانينه التي تحول دون الاستجابة حيث تكون كالسِّتر بين العبد ومولاه ؛ قال رسول الله (ص) : « من أكل لقمة من حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة . . . »[2] .

كم هو جميل ما جاء في دعاء كميل بن زياد ـ عليه الرحمة ـ حيث يدعو المسلم فيقول : « اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تغيِّر النعم ، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم ، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء » .

وجاء أيضاً في أول المناجاة الشعبانية : « اللهمَّ اسمع دعائي إذا دعوتك ، واسمع ندائي إذا ناديتك » وتعني هذه العبارة : أن يا إلهي وفقني لإزاحة الستار الذي بينَ طلبي وبينَك ، أو بيني وبينَك ، ألا وهو الحجاب الذي صنعه الذنب أو المعصية وهذا ما يطلق عليه باب تشبيه المعقول بالمحسوس .

وبناءً على هذا نفهم أن لقبول الدعاء أو استجابته شروطاً منها الابتعاد عن المعاصي ، وما يُغضب الله ـ جلَّت أسماؤه ـ ولذا ينبغي أن نبتدىء الدعاء بالتوبة والاستغفار والإنابة ، لنتمكن من إزاحة الستر الذي يحول دون صعود الدعاء ، ولا بأس أن تكون التوبة والإنابة وسط الدعاء وآخر الدعاء أيضاً ، وهذا ما نلاحظه في المناجاة الشعبانية ، ودعاء مكارم الأخلاق ودعاء كميل .

إذن ، عدم استجابة الدعاء سببه نحن ، سببه معاصينا وتمادينا بالذنوب والآثام الذي يوجب عدم قبول الله تعالى لدعائنا ، وعليه ينبغي لنا أن نبتعد عن كل ما حرَّم الله من أذى وأكل حرام وانتهاك حرمات وما إلى ذلك ؛ قال الإمام الباقر (ع) : « إن الرجل إذا أصاب مالاً من حرام لم يقبل منه حجّ ولا عمرة ولا صلة رحم ، حتى أنه يفسد فيه الفرج »[3] .

---

(١) [يوسف/٨٧].

(٢) كنز العمال/خ ٩٢٦٦

(٣) بحار الأنوار/ج ٩٩ ، ص ١٢٥ .

على أية حال يجب علينا إذا أردنا أن يستجاب دعاؤنا عند الله تعالى،علينا أن نتجنب المعاصي والآثام ، نراعي حق الناس ، ولا نتكبر على أحد ، ولا نغترَّ بما عندنا من أموال وثروات ، وأن نحمد الله كثيراً على عظيم إحسانه ، ونيّر برهانه ، ونوامي فضله وامتنانه ، حمداً يكون لحقّه قضاءً ، ولشكره أداءً ، وإلى ثوابه مقرِّباً ، ولحسن مزيده موجباً وأن نلتزم بما جاء في كتابه الحكيم ، وما جرى على لسان نبيه الكريم وأهل بيته الأطهار (ع) كي نتمكن من إبلاغ الدعاء إلى مراحله الأصولية لنفوزَ بالقبول والرضا من عند العزيز القدير .

أما السبب الثالث الذي يحول دون الاستجابة ، فهو : التصديق بالقلب بعيداً عن الدعاء الترفيِّ الذي لا يزيد ولا ينقص ، ومحاولة الابتعاد عن خداع الله - جلَّت أسماؤه -؛ قال أمير المؤمنين علي (ع) : « إن رسول الله (ص) أبصر رجلا دبرت جبهته ، فقال : من يغالب الله يغلبه ، ومن يخدع الله يخدعه ، فهلا تجافيت بجبهتك عن الأرض ولم تشوِّه خلقك ؟»[1] .

وقال أيضاً (ع) : « إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه ، فهو جائر عن قصد السبيل ، مشغوف بكلام بدعة ، ودعاء ضلالة ، فهو فتنة لمن افتتنَ به ، ضالٌّ عن هدى من كان قبله . . . »[2] .

فمن كان قلبُه مليئاً بالخطايا حتى كأنه أحد مضاجع الشيطان ، لا يتأتّى له أن يفرغ مكاناً للرحمن في قلبه ؛ فقد يدعو الإنسان وهو آثمٌ قلبه فلا يستجاب دعاؤه لامتلائه بالمعاصي التي تمنع نزول الرحمة عليه ، أما ذلك القلب الذي أفرغ ما فيه إلا لأوامر الرحمن ، يتأتّى له أن يقول : لبَّيك وهو مدرك لها ، ليسعد بدخول نور الله إليه .

وأضرب لكم هنا مثلاً ليكون حديثنا أكثر وضوحا ؛ ولو رمى أحدكم إناءً في البحر لشاهد فوريّة امتلائه بالماء ، ولكن لو أغلق الإناء هذا بغطاءٍ محكمٍ ورماه فارغاً في البحر لشاهد عدم امتلاء الإناء ، أو عدم دخول قطرة ماء إليه ، ولو مرَّ عليه عام كامل ؛ فهل تعتقد أن السبب في عدم دخول الماء إلى الإناء هو

(١) بحار الأنوار/ج ٧١ ، ص ٣٤٤ .

(٢) نهج البلاغة/الخطبة رقم ١٧

بُخْلُ البحر بمائه أم السبب هو الغطاء المحكم الذي منع دخول الماء إلى قلب الإناء ؟ .

وكذا الأمر في دخولك إلى حجرة لا يوجد فيها منفذٌ إلاّ باب تدخل منه إلى الحجرة ، ثم تغلق الباب خلفَك ، بعد ذلك ترى أنك جالس في ظلمة حالكة ، فهل لك أن تلوم الشمس لعدم دخول أشعتها إليك ؟ .

إذن عليك أن تفتح باب الحجرة ، وتجعل لها منفذاً ، فسوف ترى دخول الأشعة الشمسية إليك .

فالتقصير منا نحن وليس من الحجرة ، أو من البحر ؛ فالقلب الذي لا يعرف الطهارة يكون بمنزلة الإناء الذي أُحكم غطاؤه ، أو الحجرة الفاقدة للمنافذ ؛ ويمكن أن يكون الحسد هو أحد المسائل التي تحجب الدعاء .

فالحسد هو أحد مفسدات القلب لكونه رأس الرذائل وثمرته شقاء الدنيا والآخرة ، ومن تسلَّط الحسد على قلبه منعه الله من رحمته ومن استجابة دعائه ؛ قال أمير المؤمنين علي (ع) : « الحسد دأب السُّفل وأعداء الدول ، والحسد منقصة إبليس الكبرى ، والحسد حبس الروح ، وأنه شرّ الأمراض ، وهو عيبٌ فاضح ، وشجىً فادح ، لا يشفي صاحبه إلا بلوغ أمله فيمن يحسده »[1] .

لقد تعرض الكثير من روايات أهل بيت النبي (ص) إلى أن الإنسان الكذّاب حينما يكذب تخرج ريح من فمه نتنة تطلع إلى السماء ، فتتأذى الملائكة من تلك الريح فيلعنون صاحبها ؛ فهل يمكن لهكذا إنسان استجابة من دعاء ؛ على العكس من ذلك الصائم الذي قد لا نُطيق خلوف فمه والذي يكون عطراً رائعاً في عالم الملكوت ، فإن دعاءه مقبول ومستجاب لخلوّ قلبه من المعاصي ، ولالتزام ما جاء في كتاب الله ـ جلّت أسماؤه ـ وسنة أوليائه ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

والجدير بالذكر أنّ القيام للدعاء ، وإبداء المحاولة في هذا المجال لا تخلو من الآثار النفسية الإيجابية ، والأجر المعنوي حتى مع عدم استجابة

(١) شرح نهج البلاغة/ج ١ ، ص ٣١٦ .

الدعاء ، لأن كلمات الدعاء بشكل إجمالي ترقّق القلب وتساهم في إدراك المسلم للكلمات والعبارات التي يمكن أن يطلقها حين الدعاء ، ناهيك عن الاستشعار الذي يحصل بأوحدية الله ، ومعرفة تفرُّده بمقاليد الأمور وتدبيرها .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) : « إني لأحبُّ للرجل منكم المؤمن إذا قام في صلاة فريضة أن يقبل بقلبه على الله ، ولا يشغل قلبه بأمر الدنيا ، فليس من مؤمن يقبل بقلبه في صلاته على الله ، إلا أقبل الله عليه بوجهه ، وأقبل بقلوب المؤمنين عليه بالمحبة له بعد حبِّ الله عزّ وجلّ إياه »[1] .

اللهمّ ارزقنا توفيق الطاعة ، وبُعد المعصية ، واستجابة الدعاء وأقبل علينا بوجهك الكريم واحجب عنا سطوات البلاء ، ونجِّنا من مفاجأة النقم ، وأجرنا من زوال النعم ، ومن زلل القدم ، واكشف عنا كرب الدهر ، واصرف عنا عوائق الأمور ، وأوردنا حياض السلامة واحملنا على مطايا الكرامة ، وجُدْ علينا يا ربِّ بالآئك ، واكشف بلائك يا أرحم الراحمين بحقِّ محمد وأهل بيته الطاهرين .

(١) ثواب الأعمال/ص ٢٦٠ ، الصلاة : « مثل ما في المتن معنى » .

التوسل بأهل بيت الرسول (ص)

إن بحثَنا هذا يشمل الجميع وبالخصوص أولئك المثقفين من الرجال والنساء ، وعلى ما أظن سيكون مفيداً ونافعاً لهم ، ويشتمل على التوسل بأهل بيت الرسول (ص) حيث يمكن اعتبار هذه المسألة من الشرائط الأساسية للدعاء ؛ وقليلةٌ هي الأدعية التي لم يتعرض فيها كتاب مفاتيح الجنان للمحدث القمي إلى حالة التوسل بأهل بيت الرسول (ص) .

وقد ذكر المرحوم الحر العاملي في «وسائل الشيعة» قرابة (٧٠) روايةً في باب التوسُّل ، تجمع تقريباً على اعتبار التوسل شرطاً أساسياً في استجابة الدعاء .

وبهذا الصدد يشير القرآن الكريم إلى استعمال الوسيلة في الدعاء : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وابتغُوا إليهِ الوسيلةَ ﴾[١] .

« عن ابن شهر آشوب قال : قال أمير المؤمنين (ع) في قوله تعالى : ﴿ وابتَغُوا إليهِ الوسيلةَ ﴾ أنا وسيلتُه »[٢] ؛ وقال الباري في محكم كتابه : ﴿ ولِلّهِ الأسماءُ الحُسنى فادعوهُ بها ﴾[٣] ؛ قال الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « نحن والله الأسماء الحسنى »[٤] ، أي أن الأسماء الحسنى التي

---

(١) [المائدة/٣٥].

(٢) الميزان/ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

(٣) [الأعراف/١٨٠].

(٤) الميزان/ج ٨ ، ص ٣٨ نقلاً عن الكافي .

جاءت في كتاب الله المجيد نحن ، فادعوه بها ؛ فعليكم أن تقسموا على الله بنا كي يستجاب دعاؤكم ، أو بعبارة أخرى : توسّلوا إلى الله بنا .

لذا يكون التوسُّل بأهلِ بيت النبي محمد (ص) بنظر القرآن الكريم والروايات المعتبرة مسألةً أساسيةً مؤكَّدةً .

وهذا ما لَمَسناه من النبيِّ الأكرم (ص) والأئمة الأطهار ـ عليهم السّلام ـ من خلال استعراضنا لسيرة حياتهم الشريفة ؛ ويمكن اعتبار التوسُّلِ بأرواح العلماء الكبار ممن ساروا على نهج الرسول والأئمة من بعده شيئاً مُسلَّماً به .

وحيد البهبهاني ـ عليه الرحمة ـ كان أحد العلماء الإسلاميين العظام ، ولمنزلته الجليلة كان يُدعى في عالم الرجال « بالشيخ » ؛ كان يصرُّ هذا العالم الفاضل في « الفوائد الحائرية » على طلبته بالتوسُّل بأرواح الأئمة والعلماء الكبار الأجلّاء الذين كان لهم الأثر الفعال في نشر الأخلاق الإسلامية الفاضلة وتعاليم الإسلام السامية ، ناهيك عن توصيته بعدم التعرض لأولئك العلماء بما يُسيء إليهم ، ويؤكّد أن النفور من العلماء يجرّ الإنسان إلى الجهل المطبق ، فيقول بثبات ذلك بالتجارب التي شاهدها ولمسها في مجمل حياته .

ويقول المرحوم « الملاّ صدرا » ـ عليه الرحمة ـ الذي كان يسكن مدينة شيراز : كنت أذهب إلى قم المقدسة لأنتهل وأستمد العون من روح السيدة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) كيما أتمكَّن من حل بعض الشبهات الفلسفية التي كانت تعرض لي في أثناء عملي ؛ ولا يخفى على أحد سيرة الملاّ صدرا الذي كان مختصّاً بالفلسفة الإسلامية وفي تفسير روايات أهل بيت الرسول (ص) ناهيك عن طرحه للحكمة المتعالية بدل فلسفة المشائين وفلسفة الإشراق .

لقد تمكّن « الملاّ صدرا » من طرح الفلسفة المشوبة بالعرفان ليقدِّمها إلى المجتمعات التي تحظى الفلسفة لديها بأهمية خاصة .

وكذا كان الأمر بالنسبة لابن سينا حيث قال فيه قائد الثورة الإسلامية : لقد كان ابن سينا شفاءً بنفسه ؛ وإن كتابه « الشفاء » وهو كتاب فلسفي من الكتب المعقَّدة ، وفيه قوله : إن فيَّ استعداداً خاصاً حبانيه الله ، فعندما أكون تلميذاً

في علم معين عند أحد الأساتذة أتمكن من أن أكون أستاذا لأستاذي بعد مرور ثلاثة أيام من طرحه لذلك العلم .

ويذكرني في كتاب الشفاء فيقول : لم أكن أعرف من الهندسة إلا النزر اليسير ، وبعد تلمّذي على يد أستاذ الهندسة لمدة ثلاثة أيام تمكنت من طرح مسائل صار فيها أستاذي تلميذاً عندي ، ولكن الحق يقال في أنني كنت أطالع في بعض الأوقات عدة مسائل في العلم الإلٓهي - يعني الفلسفة - وأكرر ما أطالعه (٤٠) مرة ولا أستطيع حلّ شبهة فلسفية إلّا بعد أن أتوسل بعالم الملكوت من خلال قسمي عليه بالأئمة الأطهار من آل بيت محمّد (ع) لأصل عن هذا الطريق إلى ما يشفي الغليل .

يقول الملاّ سليمان وهو أحد تلاميذ ابن سينا والذي كتب حاشيةً على كتاب الشفاء : كنت أرى ابن سينا يدخل مسجده الذي هو في بيته ليصلي من أجل حل شبهة علمية أو فلسفية .

فكلما تعمَّق الإنسان في العبادة كلما سمت روح تعبده ، وكلما تهاوت روح تعبده في أحد العلوم دلَّل ذلك الأمر على تفاهة معلوماته وغروره في كسبه لذلك العلم ، لكون العلم لا يجلب إلّا التواضع بعيداً عن التكبر والعجب والغرور .

يقول المرحوم مصطفى وهو الابن الأكبر لقائد الثورة الإسلامية : « كان والدي قد اعتاد على الذهاب إلى حرم الإمام علي (ع) في كل ليلة ليقرأ الزيارة الجامعة ثم يقفل راجعاً إلى بيته ؛ وفي إحدى الليالي كان الجو بارداً وممطراً شاهدت والدي قد استعد للذهاب إلى الحرم ، فتبسمت وقلت له : والدي العزيز ، يمكن لك قراءة الزيارة الجامعة هنا في بيتك بدون أن تتكلّف عناء الذهاب في هذا الجو البارد ، والزيارة في البيت لا تقلُّ ثوابها عن تلك التي في الحرم بشكل عام .

فأجابني بكلام قيِّم جداً ، يليق به كأستاذ وقائد : ولدي مصطفى لا تسلب منّا روح العوام ! .

هنيئاً لأولئك الرجال والنساء الأجلّاء من الذين يتمتعون بروح العبادة من

خلال التزامهم بطريقة أهل البيت الكرام ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إنهم لا يخلقون الشبهات ولا يعترضون على ما في القرآن من آيات ، ولا يحاولون التبجُّج بما يسمى بالثقافة الحديثة أو المدنيَّة العصرية ؛ وأن الذي يفعل ذلك مسلوب الإرادة ، ضعيف العقيدة ، بعيد عن روح العبادة والطاعة للواحد الأحد جلَّت صفاته ؛ وقد نرى أمثال هؤلاء في مجمل حياتنا لنتعرف على منافذ الشيطان الرجيم الذي يحاول أن يتسلط علي الروح الإنسانية من خلال تشجيعه لهكذا أمور كيما يضحى البشر متكبِّراً ومعجباً بنفسه من غير دليل ولا سند .

يتعرض قائد الثورة الإسلامية إلى جملة في « كشف الأسرار » يمكن احتسابها إحدى الطرائف العصرية فيقول : في طريقنا إلى مكة نزع أحدهم خاتمه من أصبعه وقال : ما فائدة هذا الحجر ؟ وما الذي يمكن أن يستفيده البشر من مثل هذه الأحجار ؟ .

فتبسمت في وجهه ، وقلت : إلى أين تذهب يا هذا ؟ ألا تعرف أنك ذاهب إلى الطواف حول حجر لا يضرّ ولا ينفع ؟! وتريد لمس الحجر الأسود الذي قد لا ينفعك في شيء ؟ وإذا نفعك في شيء فإن الطواف حول الكعبة سوف ينفعك أيضاً ، وإذا كان كذلك فزيارة قبر الرسول نافعةٌ أيضاً .

وكذا الأمر بالنسبة لقبور أهل بيته ـ سلام الله عليهم ـ .

ألا تعرف أن لله أماكن يحب أن يذكر فيها اسمه ، وأن السنن التي قال بها الرسول (ص) من مثل التختم يحظى بأهمية بالغة ، وأن زيارة الأطهار من أولياء الله وأصحاب الأئمة تجعل الفرد المسلم وجيهاً عند الله ؟ .

إن للتوسل بقبور الصالحين وأولياء الله المقربين وكما علَّمتنا التجارب لها الأثر الفاعل في قبول الدعاء واستجابته ، ولا أظن أن هناك من ينكر ذلك إلا من نزع الله من قلبه روح العبادة ؛ وقد اتّفق أن ذهبت في يوم من الأيام إلى المقام الذي دفن فيه الحرُّ الرياحي الذي قاتل المنافقين إلى جنب الإمام الحسين بن علي (ع) ، فشاهدتُ إحدى النساء وهي تلتصق بشباك الضريح وتقول : « يا كاشف الكرب عن وجه الحسين (ع) اكشف كربي بحق مولاك الحسين (ع) » ، وما إن رددت ذلك القول ثلاثاً حتى شاهدتها تخرج من المكان

الذي فيه القبر الشريف مبتسمةً فرحةً ؛ فتقدمت صوب القبر ، وكان بي ألم شديد وحمى مزمنة عجز الأطباء عن إزالتها عني ، تقدمت وقلت بمثل ما قالت تلك المرأة الصادقة اللهجة ، بعد ذلك رجعت إلى البيت لأرى نفسي معافى سالماً ، ولم أشكُ من تلك الحمَّى إلى وقتي هذا .

تقول زوجة أحد رجال العلم : كنت مريضة بمرضٍ خبيثٍ أقعدَني في البيت ، وعجز الأطباء عن مداواتي بعد أن نصحوني بإجراء عملية لي لاستئصال الجزء الخبيث ، وكان يوم العملية يقترب من ساعته المحددة ، فطلعت إلى سطح الدار بعد أن أخذ مني المرض مأخذه وعلى سطح داري الذي في قم ، توجهت صوب ضريح السيدة معصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) لأقول لها : يا ابنةَ الأحرار ، يا ابنة الأئمة الأطهار أنتم أهل بيت رسول الله (ص) لا تردُّون مَنْ لجأ إليكم ، وأنا زوجة أحد طلاب علمكم الذي نشرتم لواءه في مشارق الأرض ومغاربها، أتوسل إلى الله بك لأن تكوني وسيلةً عند الباري ليرفع عني ما أنا فيه من بلاء وأن ينجيني من هذا المرضِ الخبيث ؛ وما أن أكملت دعائي الذي شابه التبتُّل والخشوع حتى شعرت بتوقُّف الألم ، وانطمار الغدة التي كانت أصل المرض الخبيث .

وإذا أردت أن أستعرض نظير هذه الحوادث ، لتمكَّنت من رواية (٥٠) أو أكثر مما يشابهها من القضايا التي لا تخفى على من جاور قبور الأولياء والصالحين ، وفي مثل هذه القضايا حار الذين لا يعتقدون بالتوسُّل بقبور أهل بيت الرسالة وأصحابهم ، فما كان لديهم غير القبول ؛ لرؤية البعض منهم ذلك بأمِّ عينيه بعيداً عن السماع من الآخرين .

إن ربَّ العالمين ، عالم حكيم ، وقادر مقتدر ، ومن أحكمَ علائقه معه تمكن من الصعب المستصعب ، فكلما كانت العلاقة قويةً تمكن الإنسان من تسيير أموره على أفضل وجه .

وهذه المسألة لها جذور قرآنية لا يمكن التغافل عنها .

لقد عرض القرآن المجيد قصة سليمان في سورة النمل بشكل يبعث على الدهشة ، فاستعرض قضية إخبار الهدهد لسليمان عن امرأة في اليمن قائلاً :

﴿ إنّي وجدتُ امرأةً تملكهمْ وأُوتيتْ منْ كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ ﴾[1] .

وبعد سرد عدة حوادث جاء حديث سليمان (ع) : ﴿ قالَ يا أيُّهَا المـلأُ أيّكم يأتِيني بعرشِها قبلَ أنْ يأتوني مسلِمينَ ﴾[2] .

فاستعرض أحدهم ما لديه ثم قال : ﴿ قالَ الذِي عندهُ علمٌ منَ الكتابِ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفُكَ ﴾[3] .

ويذكر تفسير شبّر أن الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا وهو وزير سليمان ، أو الخضر ، أو جبرائيل (ع) ، وما فعله من نقل لعرش بلقيس جزء يسير من العلوم التي يتمتع بها أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، ولقد كانت علاقة هذا الشخص الناقل للعرش مع الباري تعالى محكمةً بحيث يتمكن من إنجاز عمل جبار كهذا ، وأن ما يقوم به الأئمة من أهل بيت الرسول (ص) من شفاء للمرضى ، أو رواء لحوائج الطالبين ليس شيئاً كبيراً أو عظيمـاً إذا قيسَ بأعمالهم العظام التي هي أكبر من أعمال ذلك الناقل لعرش بلقيس ، ولا عجب في ذلك لكونهم يرتبطون بالله ارتباطاً وثيقاً يمكّنهم من فعل ذلك بعلم من الله الحكيم العزيز ، وهذا ما يُدلل على أن التوسُّل بهم له جذور قرآنية .

وعليه فليفتخر المسلمون بأن لهم إمام مثل الحسين (ع) يتوسلون به في محضر الباري تعالى ، وهنيئاً لهم عباداتهم عند قبر السيدة زينب (ع) وتوسُّلهم بها ليتقرّبوا زلفى إلى الله العزيز الحكيم .

وعجبٌ لأولئك الذين نسوا أن لهم إمام زمان هو المهـدي المنتظر (ع) فراحوا يتوسّلون بغيره من البشر ، على الرغم من ارتباطه الوثيق بالمولى تعالى وقربه منه .

يحكى أن أحد الأجلاء فَقَدَ ولَدَيْه في زمن حكم الشاه لإيران ، فوصل حال زوجته من شدة الجزع والفزع إلى إصابتها بداء الفالج ، وخبا نور عينيها فلم تعد ترى شيئاً غير بصيص من نور ، وحينها قرر الأطباء معالجتها بعملية على

---

(١) [النمل/٢٣].

(٢) [النمل/٣٨].

(٣) [النمل/٤٠].

أن تنقل إلى المستشفى لتخلِّف وراءها أطفالاً صغاراً في البيت بدون من يرعاهم ، وصار الزوج يجري هنا وهناك ليرتِّب أوضاع زوجته ناهيك عن إصابته بالكآبة من جرَّاء ما وصلت إليه زوجته من حال ، وفي ذلك الوقت العصيب توجَّه الزوج إلى الباري بقلب صادق ليقول : إلٰهي أسألك بحقِّ الإمام المهدي (ع) إلاَّ فرِّجت عن زوجتي ورحمتها مما هي فيه .

وفي المساء وعندما كان مضطجعاً سمع ضجَّة في الدار ، خرج على أثرها من حجرته ليرى بأمِّ عينيه فرح الأطفال بشفاء أمهم من مرضها ، ورجوع النور إلى عينيها حيث كانت تقول : إن شفائي كان بفضل التوسُّل بالإمام المهدي (ع) .

للجيش رياضة صباحية يقومون بها بعمل بعض الحركات الرياضية ولكل الجيوش في العالم رياضات صباحية ترافقها أناشيد وطنية ، ولا بأس لو بدِّلت تلك الأناشيد بقراءات في الزيارة الجامعة ، لأنها تعرِّف الأئمة من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) لمن لا يعرفهم وتذكر بهم من يعرفهم وأن ذلك العمل لا يستغرق من الوقت إلا خمس عشرة دقيقة لا غير .

يقول العلامة المجلسي ـ عليه الرحمة ـ : إن الزيارة الجامعة لها سند قوي ودلائل تؤكد أنها أفضل الزيارات لجمعها بين الأئمة (ع) والرسول الأكرم (ص) ، واطلاع القارىء لها على مقام الأئمة من أهل البيت السامي وآثار أعمالهم في نفوس البشر ناهيك عن التوسُّل بهم لأن يكونوا شفعاء ، لكونهم أمناء الله على سره ، لأنهم المسترعون في أمر خلقه ، وأن الباري قرن طاعتهم بطاعته ، وعصيانهم بعصيانه .

إن الزيارة الجامعة تعمل على إنارة القلب ، وتساهم في تمكين الانسان من السيطرة على نفسه الأمَّارة بالسُّوء ؛ والمهم في قراءة الزيارة الجامعة هو التوسُّل بأهل بيت محمد (ص) ، وتوطيد العلاقة بهم ، بعد إحكام الارتباط بالله الواحد كيما تتزايد سعة الإنسان الوجودية ، وكلَّما وثَّقنا علائقنا مع الأئمة الأطهار (ع) ازدادت سعتنا الوجودية .

إن المتدبِّر في معاني الزيارة الجامعة يشعر بلذة خاصة بهذه الزيارة

خصوصاً إذا كان الحب والودّ الذي يملأ قلب الإنسان المسلم لأهل بيت الرسول الأكرم (ص) عميقاً عندها سيطيل النظر في رفعة وسمو أهل البيت - عليهم السّلام - ومظلوميتهم التي صنعها لهم أعداء الله على مختلف العهود والأزمان .

يقول العلامة المجلسي : ذهبت إلى مدينة النجف في العراق ، وعند وصولي أردت الذهاب إلى ضريح الإمام علي (ع) ، ولكنني استحييت من ذلك ، وقلت في نفسي : إنني ما أزال غير عارف بوضعي ، فكيف أذهب إلى زيارة ضريح الإمام علي (ع) بدون أن تكون لي علاقة قوية تشدُّني إليه ويقبلني كزائر ، فرابطت في الدار وفي المسجد ، وفي وادي السلام الذي هو مكان القبور ، أتعبَّد وأتهجَّد وأتوسَّل إلى الله أن يعرِّفني على صاحب ذلك المقام ، وبعد ذلك توجهت إلى زيارة قبر الإمام علي (ع) لأشرع بقراءة الزيارة الجامعة ولأنعمَ بصفو البال وراحة النفس ، وما أن شاهدني أحد العلماء الأجلّاء بادرني إلى القول : نِعْمَ الزيارة هذه .

« السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط الوحي ، ومعدن الرحمة ، وخزّان العلم ، ومنتهى الحلم وأصول الكرم ، وقادة الأمم ، وأولياء النعم ، وعناصر الأبرار ، ودعائم الأخيار ، وساسة العباد ، وأركان البلاد ، وأبواب الإيمان ، وأمناء الرحمن ، وسلالة النبيين ، وصفوة المرسلين ، وعترة خيرة ربِّ العالمين ورحمة الله وبركاته » .

وقد قال العلّامة المجلسي بصدد هذه الزيارة : إنها أصحُّ سنداً ومضموناً .

ويحضرني هنا أن أذكر أن الدنيا فرص ، فلا بأس باستغلالها وتوظيفها لتأديب وتشذيب النفس البشرية ، وأن قراءة الزيارة الجامعة فرصة لا ينبغي التفريط بها بسهولة إلا إذا حالت الظروف القاهرة بينها وبين الإنسان المسلم .

جاء في مفاتيح الجنان للمحدِّث القُمِّي : أن أحد العلماء رأى في منامه

ظالماً كان قد مات منذ مدة زمنية ليست بالقصيرة في وضع جيد ، فسأله عن سبب ذلك ؟ .

فأجابه : بأن امرأة الحداد توفّاها الباري ليلة البارحة ، ودفنت في نفس المقبرة التي هو فيها وأن الحسين (ع) زارها ثلاث مرات ؛ ومن أجل الحسين (ع) رفع الله العذاب عن تلك المقبرة بشكل مؤقت .

فاق العالم من نومه ، وذهب إلى الحدّاد ليسأله عن صحة وفاة زوجته ، فأجابه الحداد بأن زوجته قد توفّاها الباري تعالى قبل ليلتين ؛ فقال العالم للحدّاد : ماذا كانت تفعل امرأتك في النهار ؟ .

هل كانت تعمل شيئاً خاصاً لله سبحانه وتعالى ؟ قال : لا ، ولكنها كانت لا تستغني عن زيارة الإمام الحسين (ع) في كل يوم .

أعزائي القراء ، لا ينبغي لأحد منا أن يتخلى عن زيارة الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار ، لكي يتمكن من إيجاد علاقة ورابطة قوية بهذه العترة الطاهرة ، ليكونوا شفعاء له بعد أن يتوفّاه الله ـ جلّت أسماؤه ـ واطلبوا من الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم توفيق الطاعة وبعد المعصية لكي نحظى بروح التعبُّد التي ستؤول بنا إن شاء الله إلى صلاح الدنيا والآخرة .

ذكـــر اللّـــه

إن إطلاق كلمة الموت لا يختص بها موت الجسم ، بل يتعدى إلى موت الإنسانية أيضاً ، وقد أشار القرآن إلى الشخص الفاقد للإنسانية فمثّله بالحيوان ، بل أدنى من الحيوان ؛ ولقد تعرضنا في ما سلف إلى القوى المساعدة في حربنا الداخلية أو حرب الخير والشر في نفوسنا وإلى إمكان الاستعـانة بهـذه القوى لنخرج منتصرين على أنفسنا في ما سماه الرسول الأكرم (ص) الجهاد الأكبر .

أما الآن فنتعرض إلى القوة المساعدة التاسعة وهي : « ذكر الله » باللسان وبالقلب ، قال الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ **إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ ، ولذكرُ اللّهِ أكبرُ** ﴾[1] ، وعبارة : ﴿ **ولذكرُ اللّهِ أكبرُ** ﴾ دليل على أن الصلاة يشملها الذكر ، وأن الفرائض من صلاة وزكاة وحج وأمر بمعروف كلها تكون من أجل هذا الذكر : ﴿ **إنني أنا اللّهُ لا إلَهَ إلاّ أنا فاعبُدنِي وأقمِ الصلاةَ لذكرِي** ﴾[2] ، أي لا يوجد إلَهٌ مؤثّرٌ غيـري في عالم الـوجود ، وعليـه يجب عليكم أن تعبدوني من أجل الذكر الذي هو أكبر من الفريضة .

قال عزَّ وجلَّ في سورة المزمل : ﴿ **إنَّا سنلقِي عليك قولاً ثقيلاً ، إنَّ ناشئةَ الليلِ هِي أشدُّ وطأً وأقومُ قيلاً ، إنَّ لكَ في النهارِ سبحاً طويلاً ، واذكرْ اسمَ ربِّك وتبتّل إليه تبتيلاً** ﴾[3] .

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥ .

(٢) سورة طه، الآية ١٤ .

(٣) سورة المزمل، الآيات ٥ ـ ٨ .

[١]

أيَـام اللّـه

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ولقدْ أرسلنا موسى بآياتِنَا أنْ أخرجْ قومكَ منَ الظلماتِ إلى النورِ وذكِّرهُمْ بأيامِ اللّهِ . . ﴾[١] .

أي يا أيُّها الرسول إذا أردت أن تخرِج قومك من الضلالة والانحراف إلى طريق الهدى والنور عليك بتذكيرهم بـالنِّعم الجليلة وبأيـام الله العظام ، التي يمكن أن يستفيد الإنسان من الحوادث التي جرت فيها فيتخذها عبرةً له .

﴿ فسيروا في الأرضِ ، فانظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المـكذِّبينَ ﴾[٢] .

أيُّها البشر غوروا في التاريخ لتتعرفوا عاقبة الذين كذَّبوا الرسل ، ولتتعرفوا على كيفية إذلالهم من قبل الله تعالى ، واتخذوا من سيرة الماضين عبرةً لكم تنتفعوا بها في مجمل حياتهم الدنيوية .

﴿ يخـرِّبـونَ بيـوتهُم بـأيـديهِم وأيـدِي المؤمنينَ فـاعتبـرُوا يَـا أُولي الأبصارِ ﴾[٣] .

فالتاريخ عبرةٌ للمعتبرين .

ومن عاشوا في الحقبة الزمنية الماضية عبرةٌ ، فعلينا أن نعتبر بتلك الأيام

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٥ .

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦ .

(٣) سورة الحشر، الآية ٢ .

والأعوام والحوادث ، ونتذكّر أيام الله التي خصّها الله بحوادث بقيت آثارها على مدى الدهور .

إن المسيرة التاريخية للإنسان عجيبة جداً ، فالبحث في التاريخ والتدقيق فيه يجرُّنا إلى الكثير من المسائل الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولا أعني هنا مطالعة التاريخ بحد ذاتها ، فذلك يختلف كثيراً عن السير في التاريخ .

فقد يطالع إنساناً كتاب تاريخ من الغلاف إلى الغلاف ، ولكنه في النهاية لا يخرج بتحليل عام للقضايا الاجتماعية أو السياسية وما إلى ذلك ، وهذا ما لا يعطيه القرآن الكريم أهمية تذكر .

إن مطالعة القرآن تفهمنا أن هناك حوادث تاريخية مهمة ضبطها القرآن بشكل دقيق ليتخذها الناس عبرةً لهم يستفيدون منها في تنظيم حياتهم ولو أخذنا سورة يوسف (ع) وطالعنا في محاورها السياسية والاجتماعية والأخلاقية لتوصلنا إلى أن ما في تلك الحوادث والمحاور التي ضبطها القرآن المجيد لنا لا يتعدّى أن يكون درساً واقعياً ، في بعض من أيام الله ـ تعالت أسماؤه ـ لنعتبر ونلتزم بأوامر الباري ـ جلّت قدرته ـ ونتجنب ما يغضبه .

ومطالعة الحوادث التي جرت في تلك الأيام المنعوتة بأيام الله يكون بالشكل التالي : لماذا ألقي يوسف في غيابة الجبّ؟ .

ومن هو الذي ألقاه؟ .
وما السبب في اختيار يوسف دون غيره؟ .
ولماذا بيع يوسف بثمن بخس؟ .
وكيف ذهب إلى السجن .
وما السبب في تتويجه ملكاً بعد أن كان يباع ويشترى ويظلم ويسجن؟ .
وكيف كان حديث يوسف إلى أبيه؟ .

وما كان حديثه إلى إخوانه الذين ظلموه وألقوه في الجبِّ ، وباعوه! .

وفي الختام نخرج بنتائج عديدة ، منها عفة يوسف في الوقت الذي كان كل شيء مهيأً له ، إلا الانقياد للشيطان ! .

وهذه تجربة اجتماعية أخلاقية فذّة للإنسان المسلم .

يقول القرآن الكريم في نهاية الأمر : ﴿ **منْ يتّقِ ويصبِرْ فإنَّ اللّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنينِ** ﴾[1] .

هذه الجملة قالها يوسف لإخوانه بعد تحقق منامه ، حيث تعني : أن الذي يخاف الله ويتقيه ، ويصبر على بلائه يؤتيه أجر المحسنين ، وأنكم وصلتم - أي إخوانه - إلى الذلّ والهوان بسبب افتقادهم للتقوى أولاً وللصبر ثانياً ، وأن هاتين الصفتين هما اللتان تصلان بالمرء إلى المقام العليّ .

وكذا الأمر في جميع القصص القرآني ، فنشاهد قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام ويمكن أن نأخذ منها عبرةً وعظةً .

وكذلك قصة نوح التي تعدُّ إحدى العبر .

وقصة قوم ثمود وعاد ، وقصة قوم لوط وكيف أفناهم الباري تعالى ، وقصة يونس وكيفية إشراف قومه على الهلكة لولا رحمة من الله .

كل هذا وذاك من القصص والروايات القرآنية الحكيمة من أجل أن يتّعِظ ابن آدم ، ويعتبر ، ويلتزم أخلاقياً .

وقد ذكرت ذلك فيما سبق وقلت إن نصف الكتاب الشريف يتعلق بالمسائل الأخلاقية المحضة ، هذا في ظاهر الأمر .

أما إذا أمعنّا النظر فيه في سوره وآياته ، لاتضح لنا أن كل الآيات والسور القرآنية المباركة هي من أجل بناء الإنسان بشكل يليق به وبسجود الملائكة له .

وعليه ، فالتذكير بأيام الله الاستثنائية المليئة بالعبر والمواعظ أمر ضروري ولازم ، ليُراجع الإنسان مسيرة حياته ليطابقها مع المسيرة التاريخية الصحيحة والسليمة التي تعرض لها القرآن الكريم في مجمل سوره الشريفة .

إن الأول من فبراير عام ١٩٧٩ يعدُّ أحد أيام الله ، لكونه حادثة غريبة وعجيبة ، علينا أن نجعلها ضمن المسائل والأيام المعتبرة ، إنه اليوم الذي رجع

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

فيه مؤسس الجمهورية الإسلامية إلى ايران ولا يملك سلاحاً إلا لا إله إلا الله ، ليطرد الشاه المقتدر والمرجح بشتى أنواع السلاح ، بل يقال إن إيران كانت ترسانةً للسلاح الغربي والإسرائيلي ، ولكن الإمام المؤسس استطاع بصدقه وصبره وتقواه أن يكون أقوى الناس . قال رسول الله (ص) : « إن سرك أن تكون أقوى الناس ، فتوكَّل على الله »[1] .

لقد توكل هذا الرجل على بارئه في يوم عدَّ من أيام الله العظام ، فطرد الطواغيت إلى حيث لا رجعة ، وأقام حكومة إلّهية يلتزم ما جاء به القرآن المجيد ، وما جاء به الرسول الأكرم (ص) والأئمة من بعده ـ صلوات الله عليهم ـ لقد جلب هذا الإمام محبة الناس دون أن يطلب هو ذلك ، فقاموا لمقارعة الظلم والفساد الشاهنشاهي البغيض باذلين الغالي والنفيس واضعين الأرواح الى الأكف ممتثلين لأمر قائدهم الذي لم يحد عن نهج الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) .

لقد توكَّل على الله واعتصم به ، ومن توكَّل على الله لا يُغلب ، ومن اعتصم بالله لا يُهزم .

سأل أحدهم الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن حدِّ التوكل ؟ .

فقال (ع) له : « حدُّه اليقين » .
فقال : فما حدُّ اليقين ؟ .
قال (ع) : « أن لا تخاف مع الله شيئاً ! »[2] .

إن الحوادث التي جرت في ذلك اليوم الذي قدم فيه مؤسس الجمهورية الإسلامية من باريس ، نادرة جداً ، وفيها عبرةٌ وعظةٌ لنا .

لقد وقفت الأمّة المستضعفة مقابل مدافع ودبابات الحكومة الجائرة ، ولم يكن لديهم غير شعارات إسلامية أطلقوها في وجوه المؤتمرين بأوامر الطاغوت ، فسقط الطاغوت وانتصر الشعب الملتزم لأوامر القائد المتوكل على الله ، الصابر

---

(١) مكارم الأخلاق/ص ٥٥٢ .
(٢) الكافي/ج ٢ ، ص ٥٧ .

وعلى العكس من ذلك نرى : ﴿ عاقبةَ الذينَ أساؤُوا السُّوأى أنْ كذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ وكانُوا بها يستهزِئُونَ ﴾[1] .

إنها عظات وعِبر لنا ولأبنائنا من بعدنا .

إنها أيام الله التي يجب أن نتذكرها دائماً ، لتستقيم أمورنا الدنيوية والأخروية ، وعلينا أن ندرك مسألة مهمة جداً وهي أن الله تعالى يُمهل ولا يُهمل ، إنه يعطي الناس فرصاً كثيرة ليؤوا إلى الخير والصلاح .

ولكن إذا لم يفعلوا ذلك أمهلهم مدةً ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إن أخذه لشديد ، فاتَّعِظ أيها الإنسان يا من يطول بك الأمل في هذه الدنيا الدنيّة .

كان نمرود فاسقاً متجبّراً مغروراً وصل به الأمر إلى بناء قصر شاهق طلع على سطحه ليقول للباري تعالى جئت لحربك ، جئت لقتلك ، فإن كنت أهلاً لذلك فارمني بسهم منك ـ أعاذنا الله وإياك من هكذا مقولات ـ .

تركه الباري لعقله القاصر مدةً ، ثم أراد أن يفهم الآخرين أنه أضعف من بعوضة ، فبعث إليه بعوضة اخترقت دماغه فحار بذلك بالأمر ، عندما أمر اثنين من حاشيته بأن يضربوا رأسه بالمطارق ، وإذ فعلوا ذلك حتى وصل الدرك الأسفل من جهنم التي وقودها من هم أمثاله .

قال أحدهم : إلّهي إذا كان حاصل أرضي لهذا العام كثيراً ، سأُخرج من العشر وأوزعه على الفقراء والمساكين ، فلما جاء موسم الحصاد وكان الحاصل جيداً قال : إلّهي إن العشر كثير وأن عليّ قروضاً ينبغي أن أسلمها لأصحابها ، فامهلني إلى العام القادم ؛ فإن كان الحاصل جيداً سأتبرع بالنصف ، ليبقى لي نصف ؛ وجاء الموسم الجديد ، وكان الحاصل أفضل من السنة الماضية بكثير ، ولكن صاحبنا كان يقول : إلّهي أريد هذا العام تزويج ابني فأمهلني إلى العام القادم ، ليكون الحاصل كله لك بشرط أن يكون حاصل العام كله لي .

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

كانوا يعبدون الأوثان والأصنام الحجرية والخشبية ، فهؤلاء يقولون : إنها تقربهم زلفى من الله ، أما الذي اتخذ إلّهه هواه فلا يعبد الله ولا يتقرب بهواه ذلك إلى الله زلفى .

فالتوحيد العبادي : هو الخضوع لله فقط : ﴿ إيّاك نعبد ﴾[1] ، وهو تقديم ما هو حقه التأخير ويفيد الحصر .

فـ « نعبدك » ضمير متقدم ، وتقدم الضمير دلالة على الحصر ؛ وتعني أننا نعبدك فقط ، ولا نعبد غيرك ، سواء كان هوى أم شيطاناً أم أوثاناً أو غير ذلك .

فإذا أصبح الإنسان عبداً للشهوة ، أو عبداً للأموال ، تعلق قلبه بالشهوات وتعلق قلبه بالأموال ، وهذا التعلق يمنعه من أداء واجبه المفروض عليه ، فالذي تعلق قلبه بالأموال لا يتأتى له أن يعطي حقوق الفقراء والمساكين حاله حال ذلك الذي كان في زمن الجاهلية يعبد الأوثان والأصنام والحجر ؛ وحاله حال هؤلاء الذين يعبدون في زماننا الحاضر (متاع الرجل أو متاع المرأة) في الهند واليابان .

فإذا كان الفرد لا يتمكن من الحؤول دون غريزته الجنسية ، يُعدُّ عابداً للأصنام فذاك الذي في اليابان يعبد (متاع الرجل أو متاع المرأة) لا يختلف عن هذا العابد للشهوات أو ذاك الذي يعبد الأوثان أو الذي يعبد الأموال ، فكلهم عبيد لغير الله تعالى .

إن سورة يسّ المباركة تتصدى لمثل هذه الأمور ، وهي من السور التي ينبغي أن تقرأ في كل صباح لتأثيرها الملحوظ في الحياة الدنيوية والأخروية ، ونقرأ فيها : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾[2] .

أي : أنسيتم أيُّها الناس عهدي إليكم أن لا تعبدوا الشيطان الذي أغوى أباكم آدم وأخرجه من الجنة وزوجه ، وأقسم مراراً على تضليلكم وإضلالكم ؟

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

(٢) سورة يسّ، الآية ٦٠.

ألا تعلمون أنه عدوٌّ لكم وأن هذا الأمر غير خاف على أحد .

فالذي يعبد الأموال أو النساء ، أو السلطة ، أو الشهرة ، عابد للشيطان الرجيم . وفرقه مع ذلك الذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتي ؛ أنه يُعدّ مشركاً بالله بحبِّه للمال وعبادته له ، والذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتيّ يقول بإشراك إلّه آخر مع الله .

فالاثنان يلتقيان في نقطة واحدة هي الشرك سواء كان إلّهاً آخر أم مالاً أم شهوةً ونحوها .

٤ ــ التوحيـد الأفعالـي :

وهو : أن الإنسان لا ينبغي أن يرى غير الله في هذا العالم مؤثراً ، وقد بيَّن القرآن المجيد التوحيد الأفعالي بالآية المباركة التي تقول : ﴿ **قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ منْ تشاءُ ، وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ وتعزُّ منْ تشاءُ وتذلُّ منْ تشاءُ ، بيدكَ الخيرُ إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ** ﴾(١) .

إن هذه الآية الشريفة تعني بالضبط أن لا إلّه إلا الله ؛ أي لا مؤثر في الوجود إلا الله ، وما دونه وسائل فقط .

فالسعادة مرهونة بالله ، فإذا تمكنا أن نصل إليها بواسطة العلم أو القدرة أو الشهرة ، يعني أنّا وصلنا إليها بتأثير من الله تعالى فهو الذي أعطى العلم ، والقدرة ، والوجاهة ، ولا يتأتّى لأحد أن يأتي بهذه النعم لولاه جلَّت صفاته ، وأن البشر مجرد وسيلة لوجود السعادة .

فإذا كان توحيدك العبادي متخلخلاً بنسبة (٩٠٪) يكون التخلخل في التوحيد الأفعالي (٩٥٪) بل أكثر في بعض الحالات الطارئة .

ولذا يكون تعريف زليخا ـ في سورة يوسف للقدرة شركاً بالله العظيم : ﴿ **ومَا يؤمنْ أكثرهُم باللَّهِ إلاَّ وهمْ مشركونَ** ﴾(٢) .

فقد يقول البعض إنه مؤمن ، وإنه يعلم أن صفات الله عين ذاته ، وأن قلبَه

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٦.

عليّ بن إسماعيل كان عبداً للمال ، وكان المال بالنسبة له كل شيء ، وفي زمنه أراد البرامكة بالإمام الكاظم (ع) سوءاً ، فاستغلوا حبه للمال وأمروه بعد أن قدموا له الأموال أن يشهد زوراً على الإمام الكاظم في مجلس هارون الرشيد ؛ وكان الإمام الكاظم قد نهاه عن السفر إلى بغداد فأجابه ؛ بأنه مدين لبعض الأفراد ويروم الحصول على مال من هارون ، فعرض عليه الإمام (ع) ما لا يسدُّ حاجته ، لكنه أبى إلا الذهاب إلى بغداد ليلتقي بهارون ؛ وعندما قال له الإمام (ع) : لا تكن شريكاً في دمي؟! .

فقال : ما الذي تعني في قولك هذا ؟ فكرَّر الإمام (ع) حديثه لعلمه أن علي بن إسماعيل عبداً ذليلاً أمام الذهب والفضة .

ذهب علي بن إسماعيل إلى بغداد فسعى بالإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) في مجلس هارون ، وقال مخاطباً إياه : لو كنت أنت الخليفة فمن يكون موسى بن جعفر ؟ ولو كان هو الخليفة فمن تكون أنت ؟ لقد جمع موسى بن جعفر الأموال والسلاح وتهيّأ لحربك فبادِره قبل أن يبادِرك!! .

وعند ذاك تفتّحت أسارير هارون الرشيد ليقدم لصاحبنا جائزةً قدرها (٢٠٠) ألف درهم ، وليجد عذراً في قتله للإمام الكاظم ـ سلام الله عليه ـ ولكنه لم يسعد بجائزته حيث لقي حتفه قبل استلام جائزته المزعومة تلك .

كان نسب علي بن إسماعيل ، من أرقى الأنساب ، ولكنه انحرف عن الجادة الصواب لكونه كان عبداً لغريزته على العكس من ذلك العالم الذي كانت غريزته عبداً له ؛ إنه المقدس الأردبيلي أحد مراجع المسلمين العظام .

سأل أحدهم هذا العالم الجليل : لو تأتّى لك الاختلاء بفتاة جميلة ، فهل تحدِّثك نفسك بعمل ما لا يليق بالشرع المقدّس ؟ .

فأجاب : سألت الباري تعالى أن لا يحشرني في وضع هكذا .

لم يقل الأردبيلي : لن أفعل شيئاً ، ولكنه قال : سألت الباري أن لا يحشرني في وضع مثل هذا! وذلك لأن النفس أمّارة بالسُّوء ، إذا عصفت بها الشهوات تنكّرت للشرائع إلا ما رحم ربي ، سألت الله تعالى أن يجعلنا ممن

يستطيعون السيطرة على غرائزهم .

ومن أجل ذلك منع الإسلام منام الأخ والأخت من الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم عن الثماني في فراش واحد ، ويستحبُّ أن يُحال بينهم شيء حتى ولو كان من قبيل الستارة أو ما شابه ذلك .

وقد نرى البعض ممن يدَّعون التمدن والحضارة يلوم زوجته على تمسكها بالحجاب ، وينعتها بالرجعية والتخلف ليتمكن بهذه الوسيلة من حرفها عن جادة الصواب .

فعلى وقتنا الحاضر نشاهد الكثير من هذه المسائل ، ولو رجعنا إلى السبب في ذلك ، لرأينا بوضوح عمل النفس الأمَّارة بالسوء التي تعصف بالمرء إلى حيث التقليد الأعمى والجهل المركب أعاذنا الله وإياكم من هوى النفس ورغباتها .

أعزائي القرّاء الأفاضل : كلُّنا سمع وقرأ عن علي الأصغر ابن الإمام الحسين بن علي ـ عليهما السّلام ـ وما جرى له في أرض كربلاء ؛ بعد أن طغت غرائز القوم وتفاقمت تنكّروا بكل القيم الفاضلة والمثل الإسلامية الراقية ، لقد تجردوا عن العواطف الإنسانية ، وأصبحوا حيوانات مفترسة لطغيان غريزة حب السلطة ، وحب الدنيا .

جاء الإمام الحسين (ع) يحمل طفله الرضيع بعد أن اعتمَّ بعمامة رسول الله (ص) إلى القوم يطلب ماءً له ، ولكن أحد أولئك الذين أرادوا كسب رضا العبيد رماه بسهم في عنقه فسال دمه الطاهر في حضن أبيه ، ومن هو أبوه ؟ إنه ابن بنت رسول الله (ص) ، إنه ابن الزهراء البتول التي قال فيها الرسول (ص) : « من أغضبها أغضبني ، ومن أغضبني فقد أغضب الله »[1] .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ١٩ ـ الاحتجاج للطبرسي .

الحسد ، الكبر ، الرياء

﴿ ولولاَ فضلُ اللَّهِ عليكمْ ورحمتُهُ ما زَكى منكُم مِّنْ أحدٍ أبداً ، ولكنَّ اللَّهَ يُزكِّي من يشاءُ ، واللَّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾[1] .

إن جميع الأنبياء والرسل ـ سلام الله عليهم ـ جاءوا من أجل الأخلاق الفاضلة ، ومن أجل خلق مجتمع سليم بعيداً عن الصفات الرذيلة والمتدنِّية كالحسد والكبر والتظاهر والرياء والعجب وسوء الظن وما شابه ذلك من الصفات المنحطَّة .

ولا يتأتى لأيِ فرد أن يدَّعي أنه لا يمتلك إحدى هذه الصفات الرذيلة ، أو يقول : بأنه تمكن من قلع جذور هذه الصفات من نفسه الأمَّارة ، لأن قلع جذور هذه الصفات يتطلب جهاداً مريراً ، إضافةً إلى فضل من الله ورحمة .

قد يتصور البعض أنهم لا يوجد في كوامنهم صفة رذيلة ؛ ويمكن أن يتعرفوا ذلك حينما تعصف العواصف ، وحينما تمحِّصهم البلايا ، لأن أغلب الصفات الرذيلة تشبه في وضعها النار التي تحت الرماد ، وما ينزاح الرماد حتى تُرى النار الحامية ، فعلى سبيل المثال لا يمكن للإنسان أن يقدِّر وجود أو عدم صفة الحسد فيه إلا إذا محِّص بالتجربة .

فنرى البعض يدَّعي عدميّة الحسد في كوامن نفسه ، ولكنه يتحرَّق من الغيظ حينما يرى صاحبه قد حصل على جائزة تقديرية له في عمل معين ،

---

(١) سورة النور، الآية ٢١ .

واستغلالها ، ليقع البشر في هذه الفخاخ المقيتة .

فمذهب فرويد على سبيل المثال يشيع النظرية القائلة : « إن جميع الغرائز الإنسانية تسقي من منبع الغريزة الجنسية ، وما من عمل إلا وللغريزة الجنسية دخل فيه » ، حتى مسألة رضاع الطفل من ثدي أمه .

إن الكلمات التي يطلقها هكذا أفراد لها تأثير سلبي في الفكر الإنساني بشكل أو بآخر ، فالكلمة تعني « الجرح » في اللغة ، وما تفعله السكين في البدن تفعله الكلمة في الدماغ ، لهذا قالوا : إن الكلمة تعمل جرحاً يندمل والكلمات تعمل جروحاً لا تندمل إلى يوم القيامة .

وعليه ينبغي لنا أن نلتزم جانب الكلمات الإلٓهية حتى لا نمكن الشيطان وخيله ورجله أن يستحوذوا علينا .

فالكلمات التي جاءت بها المذاهب الأرضية جنود لإبليس مثلها كمثل السهام السامة التي تصيب الإنسان فتحيله إلى ميتة أو ما أشبه ذلك .

عزيزي القارىء : يتمكن الإنسان من طرد الشيطان من حياته إلى غير رجعة هذا إذا التزم ما جاء في كتاب الله وسنة أوليائه ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

قال رسول الله (ص) لأصحابه : « ألا أخبركم بشيء إن فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق من المغرب ؟ قالوا : بلى .

قال : الصوم يسوِّد وجهه ، والصدقة تكسر ظهره ، والحبُّ في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطع دابره ، والاستغفار يقطع وتينه . . . »[1] .

وعليه تكون الصدقة ، والكلمة الطيبة والإحسان إلى الآخرين وما إلى ذلك من الأعمال التي تقرِّب الإنسان من العلي القدير ، تقصم ظهر الشياطين الصغيرة والكبيرة وتقطع دابرها وتسوِّد وجهها بذلك يتأتّى للبشر أن يسلموا من خطر هذا اللئيم .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٦٩ ، ص ٣٨٠ .

لقد أتحفتنا الروايات المتواترة عن أهل بيت النبوة والرسالة ـ سلام الله عليهم ـ بنصائح للشيطان ، هذه النصائح ذكرها إبليس لبعض أنبياء الله ـ عليهم السّلام ـ بعدما يئس منهم ولا بأس بذكر بعض منها في هذه المقالة ؛ قال صادق أهل البيت (ع) :

« لما هبط نوح (ع) من السفينة أتاه إبليس ، فقال له : ما في الأرض رجل أعظم منّةً عليّ منك ، دعوت الله على هؤلاء الفساق فأرحتني منهم ، ألا أعلّمك خصلتين : إياك والحسد فهو الذي عمل بي ما عمل ، وإيّاك والحرص ، فهو الذي عمل بآدم ما عمل »[1] .

وقال الإمام الباقر (ع) : « لما دعا نوح (ع) ربَّه عزّ وجلّ على قومه أتاه إبليس فقال : يا نوح . . اذكُرني في ثلاثة مواطن فإني أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في أحدها : اذكرني إذا غضبت ، واذكُرني إذا حكمت بين اثنين ، واذكُرني إذا كنت مع امرأة خالياً ليس معكما أحد »[2] .

وجاء في وصايا إبليس لموسى (ع) : « إذا هممت بصدقة فامضها فإذا همَّ العبد بصدقة كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبينها »[3] .

وبناءً على ما ذكرنا يمكن القول بأن الغضب والحسد والحرص والصدّ عن الصدقة وما إليها من الصفات الرذيلة هي وسائل الشيطان وشراكه التي يمكن من خلالها أن يقود البشر إلى الدرجات السفلى من جهنم الحامية .

جاء عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « إن الشيطان يدبِّر الإنسان في كل شيء فإذا أعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته ، وإن إبليس يقول لجنوده : ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك »[4] .

فانظر أيها القارىء الكريم ؛ فما دلّك القرآن عليه من صفات فاضلة ،

---

(١) الخصال/ص ٥١ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٢٢ .
(٣) بحار الأنوار/ج ١٣ ، ٣٥٠ .
(٤) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٦٠ .

وكان يعمل طول الليل ليسقي بستان يهودي في أجرة قدرها ثلاثة دراهم ليشتري بها ثوباً يستر جسمه .

فلم يضع طول حياته لبنةً على لبنةٍ ، ولم يملك إلا ما يسدُّ رمقه ، ويستر جسمه ، ولم يدخر من يوم لآخر .

فهل لأمة فيها هذا الإنسان تدرس مبادئه وآراءه ثم ترتضي لخلفاء وأمراء بني العباس وبني أمية أو لأي ملك أو سلطان استغلاله واستعباده واستيطانه ؟ .

وهل يقنع المؤمنون المخلصون بغير الإمام أميراً عليهم وهو القائل في كتاب له إلى عثمان بن حنيف :

(لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القزّ ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، أو يقودني جشعي إلى نحير الأطعمة ، ولعل في الحجاز ، أو في اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى ، وأكباد حرًى ، أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة ... وحولك أكباد تحنُّ إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر)(١) .

إنه لا يريد أن يشاركهم مباهج الدهر بل مكارهه ، ويريد من أولي الأمر أن يقتدوا به ؛ إنه لحمل ثقيل لا يتحمله سواك وسوى الصفوة من أتباعك .

« توكلت على الحي الذي لا يموت ، وتحصنت بذي العزة والجبروت ، واستعنت بذي الكبرياء والملكوت ؛ مولاي استسلمت إليك فلا تُسلمني ، وتوكلت عليك فلا تخذلني ، ولجأت إلى ظلك الظليل فلا تطرحني ؛ أنت المطلب وإليك المهرب ، تعلم ما أخفي وما أعلن فأمسك عني اللهم أيدي الظالمين من الجن والإنس أجمعين واشفِني وعافِني يا أرحم الراحمين » .

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح، ص ٤١٦ .

بقيّـة اللّـه (عج)

لقد بحث الكثير من العلماء والأدباء في مسألة بقيّة الله الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر ـ عجّل الله فرجه الشريف ـ .

إن الأسئلة التي تتبادر إلى أذهان العامة بصدده هي :

كيف كان الإمام في بطن أمه ، ولم يفهم القوم بأنها حامل به ؟

وكيف صار إماماً وليس له من العمر غير خمس أو ست سنوات ؟

وكيف يمكن أن يعيش إنسان ألف عام أو أكثر ؟ أين هو مكان الإمام المهدي (عج)؟ .

إن الإشكالات التي يمكن أن يطرحها البعض على هذه المسائل تكتسب شبهتها من منبع واحد ، وهذا المنبع اشتباه بحد ذاته ؛ لأن المساواة بين الوضع الطبيعي والخارق للعادة اشتباه كبير .

فعندما يقول الإنسان : إن البشر لا يعمَّرون في العادة أكثر من مائة عام كيف يتأتى لأحدهم أن يحيا ألفا ؟ .

وكيف يمكن له أن يسيطر على كل أمور الدنيا ، مع أنه لا يمتلك من الجيوش والعساكر وما إلى ذلك من الأسلحة الفتاكة والطائرات المروحية والنفاثة ، وأن من يقوم معه في بداية أمره ٣١٣ إنساناً .

ونقول هنا : إن قضية الإمام المهدي (عج) هي قضية غير طبيعية من أولها

إلى آخرها ، ولا يمكن أن ننعتها بأنها طبيعية ، بل إنها خرق للعادة .

إن قضية المهدي (عج) لا يمكن أن نساوي بينها وبين المسائل الطبيعية بل يمكن أن نشبهها ببعض المسائل الخارقة للعادة التي أخبرنا بها القرآن الكريم من مثل حمل مريم وهي بنت . وعندما تتأثر نفسياً يأتيها الخطاب بالإشارة إليه : ﴿ **فأشارتْ إليهِ ، قالُوا كيفَ نكلِّمُ من كانَ في المهدِ صبياً ✽ قالَ إنِّي عبدُ اللّهِ ءاتاني الكتابَ وجعلني نبياً** ﴾[١] .

هذه الحكاية نقلها لنا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبداً .

كان اليوم الرابع عشر من شعبان حينما أرادت حكيمة خاتون عمّة الإمام الحسن العسكري وابنة الإمام الجواد في دار الإمام الحسن العسكري ، وكانت حينها صائمةً . فأرادت الذهاب إلى منزلها فقال لها الإمام بضرورة بقائها لأمر مهم ! وعندما سألت عن ذلك الأمر المهم أجابها : بأن الله سيمنحه ولداً في تلك الليلة .

فتعجّبت عمة الإمام (ع) وسألت : ممَّ؟ .

فأجابها : من نرجس ، بعد ذلك سكتت حكيمة خاتون ، ووطَّنت نفسها للإفطار والبقاء في منزل الإمام ليلاً ، وقرابة أذان الصبح طرق الإمام العسكري الباب عليها ليقول لها : إن وعد الله قريب .

تقول حكيمة خاتون : وما إن أتيت حجرة زوجة الإمام العسكري (ع) حتى قامت زوجته إليّ ؛ وبعد أن أمسكت بها استندت إليَّ لتجلس على الأرض ، عندها رأيت الصبي ينزل منها ساجداً وكأنه فلقة من قمر[٢] ، عندها قال الإمام (ع) : ﴿ **ونريدُ أن نمنَّ على الذينَ استضعفُوا في الأرضِ ونجعلهُم أئمةً ونجعلهُم الوارثِينَ** ﴾[٣] .

إن قضية المهدي المنتظر لا تقتصر على ما جاء في القرآن الكريم ، بل

---

(١) سورة مريم، الأيتان ٢٩ و ٣٠.

(٢) تاريخ الإمام المهدي ، بحار الأنوار/ج ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) سورة القصص، الآية ٥.

تتعدّى هذا الحد إلى الكتب السماوية الأخرى ، فقد عرَّفنا القرآن المجيد بذلك من خلال الآية المباركة : ﴿ **ولقدْ كتبنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يرثُهَا عبادِي الصالحونَ** ﴾[1] .

فوراثة الأرض التي عرض لها القرآن الكريم عرض لها الإنجيل والتوراة والزبور ، فهذه الكتب السماوية وتفضل علامات ظهوره وزمان ظهوره وما إلى ذلك من الإشارات التي يمكن أن يفهم منها أن الإمام المهدي (عج) ظاهر في آخر الزمان لا محالة .

بعد التحري والتحقيق تمكنت من العثور على (٦٢٣٠) رواية تهتم بموضوع المهدي (عج) ، وعلى علمي أن الروايات أكثر من هذا العدد بكثير ، لأن هذا العدد هو ما أخرجته أنا لوحدي ، وإنني لا أدعي علماً أو مقاماً عند الله ، فأنا أجد طلاب الحوزة العلمية لا غير .

ومن اهتم بمتابعة هذه الروايات من العلماء تمكن من تجاوز هذا الرقم الذي ذكرت بكثير .

إن أغلب الروايات التي تعرض لقضية الإمام المهدي (عج) مروية عن طريق أهل السنة ، ولذا لا يمكن لأحد من المسلمين إنكار هذه القضية الحياتية التي تتعلق بمصير الأمة الإسلامية والمجتمع الفاضل الذي سيلي هذه الحقبة من الزمن .

قال رسول الله (ص) : ابشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[2] .

وقال (ص) : « سيكون بعدي خلفاء ، وبعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . . . »[3] .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

(٢) كنز العمال/خ ٣٨٦٥٤ .

(٣) كنز العمال/خ ٣٨٦٦٧ .

البحث التاسع :
التوبة (١) ١١١
البحث العاشر :
التوبة (٢) ١٢٣
البحث الحادي عشر :
التوبة (٣) ١٣٧
البحث الثاني عشر :
رحابة الصدر (١) ١٤٧
البحث الثالث عشر :
رحابة الصدر (٢) ١٦١
البحث الرابع عشر :
كفارة الذنب ١٧١
البحث الخامس عشر :
عبودية اللّه ١٨١

الجـزء الثانـي

مقدمـة ١٩٥
السعي والاستقامة ١٩٧
الإخـلاص ٢٠٨
صـلاة الليل ٢١٦
الإلتجاء إلى القرآن ٢٢٣
فوائد الدعاء ٢٣٠
التوسل بأهل بيت الرسول (ص) ٢٤١
ذكـر اللّـه ٢٥٠
التوكل على الله ٢٦٥
مراحل التوحيد والتوكل ٢٥٦